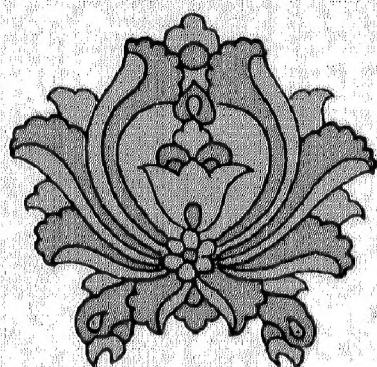


محمد الغزالي



تراثنا الفكري

في ميزان الشرع والعقل

دار الشروق

تراثنا الفكري
في ميزان الشرع والعقل

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م
الطبعة الثانية
١٤١١هـ - ١٩٩١م
الطبعة الثالثة
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
الطبعة الرابعة
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
الطبعة الخامسة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيديو المصطفى

رابعة العدوية - مدينة نصر - ص.ب. ٣٣ البانوراما

تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

تراثنا الفكري

في ميزان الشرع والعقل

دار الشروق

مقدمة

شرائع الأنبياء التي آلت إلينا واتضحت معالمها في رسالتنا ، وانتفى عنها كل خطأ وعوج ، تقوم على أمرين جليلين : « أن أقيموا الدين ، ولا تفرقوا فيه » ^(١) . وإقامة الدين تعني دعم قواعده ، وتوسعة سرادقه ، مع إحصاء لشعب الإيمان كلها ، وتنشئة الأجيال الحاضرة واللاحقة عليها ..

أما النهى عن التفرق فيه ، فإن الكيان الحي لا ينقسم على نفسه ، بل ينتشر الحس في جميع أعضائه وأجزائه ، فإذا اتجه إلى غرض اتجه كله بعزم واحد ، لم ينشط البعض ويتخلف أو يفتر البعض الآخر ..

« أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه » كيان واحد يلتف حول سياج واحد ! ولم ذلك ؟ لأن الأعداء متربصون به ! هم به ضائقون ، ومنه نافرون ، وله كائدون ... !

إنهم يكرهون عقيدة التوحيد وما انبنى عليها ، ويشمئزون منها ، ويتجهّمون لأصحابها « إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا إذا أبدا » .

من أجل ذلك لخص القرآن الكريم واجبات حملة الحق في هاتين الجملتين « أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه » .

كلمتان ما أيسر النطق بهما ، وما أصعب الحفاظ عليهما ..

(١) سورة الشورى : ١٣ .

وقد نظرت إلى أمتي الإسلامية ، واستشعرت عجباً من مواقفها !
أنا وصاحبي نؤمن بحملة العقائد المطلوبة ، وأنا وهو مشغولان بما يستنفد العمر
وفاء بأعباء الحق وتكاليفه ، ومع ذلك نهذر الكثير المتفق عليه ، ونحتفي بالقليل
الذي يُظنّ فيه خلاف ! أنا وهو مثلاً نؤمن بأن الله حق ، وأنه واحد ، وأنه
لا شريك له ، وأنه لا يشبه المخلوقات « ليس كمثله شيء » ، وهو السميع
البصير»^(١) .

وتبعات هذا الإيمان الججمع عليه كثيرة في ميادين الأخلاق والأعمال ،
والدعوة والجهاد ، وشئون الحياة كلها ..

ومع ذلك فقد يرد في دين الله مثلاً أن الله ينزل إلى السماء الدنيا في ثلث
الليل الأخير ، فيغفر للمستغفرين ، ويحيب السائلين .. إلخ

فنقول جميعاً : يستحيل أن يكون النزول على حقيقته المادية ، يخلو منه المكان
الذي تركه ، ويشغل به المكان الذي قصده ، وتتفق على أنه على كل شيء شهيد
ومهيمن ومقتدر إلخ ، ثم يقول بعضنا : المقصود بالنزول التجلّي ، ويقول
الآخر : هو نزول يخالف مانألف ، ولا ندرى كنهه ..

هل هذا التفاوت في الفهم أو التعبير ، في هذه القضية وأشباهاها ، يجعل
الأمة أحزاباً متباغضة ، وأقساماً متنافرة ، وفرقا يضرب بعضها بعضاً ، كى يهَيَّ
صفتنا كله أمام الكافرين بالله ، الكارهين لوحدايته وجلاله ؟

لقد تدبّرت هذه الحال ونتائجها ، وتذكرت قول رسولنا : « ماضلّ قوم بعد
هدى كانوا عليه ، إلا أوتوا الجدل »

بل لقد ساءلت نفسي : هل المولعون بقضايا الخلاف ، صغراها وكبرها ،
والذين يحشدون أفكارهم ومشاعرهم وأوقاتهم للانتصار فيها ، والفرح بخذلان
مخالفهم ، هل هم مخلصون للقضايا المتفق عليها ؟

لماذا ننسى القواعد التي تجمعنا ، ونهشّ للدروب التي نتفرق فيها ... ؟

(١) سورة الشورى : ١١ .

الحق أن هذا الاهتمام بالأمور الخلافية لون من الطفولة الفِجَّة ، والزيف الفارّ بأهله من ميدان الحق ، لأنه كثير التكاليف ، إلى ميدان آخر لامشقة فيه ولا ترحمه واجبات ثقال ..

وأترك الماضي وذاكرياته المؤذية إلى الحاضر المخرج .

أمة هى خمس العالم من ناحية التعداد ، تبحث عنها فى حقول المعرفة فلا تجدها ، فى ساحات الإنتاج فلا تحسّها ، فى نماذج الخلق الزاكي ، والتعاون المؤثر ، والحريات المصونة ، والعدالة الياينة ... فتعود صفر اليدين !!
بماذا شغلت نفسها ؟ بمباحث نظرية شاحبة ، وقضايا جزئية محقورة ، وانقسامات ظاهرها الدين وباطنها الهوى ..

واستغرقها هذا كله ، فلم تعط عزائم الدين شيئا من جهدها الحار ، وشعورها الصادق .. فكانت الثمرات المرة أن صرنا حضاريا وخلقيا واجتماعيا آخر أهل الأرض فى سُلّم الارتقاء البشرى !!

حكومات فرعونية إقطاعية ، وجواهر تبحث عن الطعام ، وفنّ يدور حول اللذة وطرقها ، ومتدينون مشغولون بالقمامات الفكرية وحدها كأنما تخصصوا فى التفاهات ..

أما العالم المتقدم فهو يعبد نفسه ، ويسعى لجعل الشعوب المتخلفة - وأولها المسلمون - عبيدا له ، وأرضهم مصادر للخامات التى يحتاج إليها ، أو الأنواع الذين يستهلكون مايصنع ..

ثم .. هناك بعيدا عن الأعين بنو إسرائيل يمكرون ليقيموا الهيكل ، كى يحل الله فيه ويحكم بهم العالم ، أو جماعة الكرادلة والكهان الذين يعملون لإقامة مملكة الرب ، تمهيدا لنزول المسيح له المجد !!

وأنا رجل مسلم امتنّ على الحق فعرفت دينى بعد دراسة نقية للوحى الأعلى . ولا بأس أن أذكر بعض ما أعتمد عليه وأنا أتحرّك هنا وهناك .

أشعر أحيانا بفخر وأنا أقول لنفسى : إننى مع الملائكة أشهد الله بالوحدانية والعدالة ، أليس يقول الله تبارك اسمه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة

وأولو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم»^(١) .
 إننى مع كل ذى معرفة شريفة نشارك الملائة الأعلى فى إعظام الله وإجلاله ،
 والانسحاق مع أسمائه الحسنى ..
 العلم عندنا يستحيل أن يخاصم الدين أو يخاصمه الدين ، وقضية النزاع
 الموهوم بين العلم والدين لاصلة لها بالدين الصحيح ، قد يقع النزاع بين العلم وبين
 البوذية أو البرهمية أو عقائد اقتبست منها ، أو متدينين انتسبوا إلى الله وأبوا السير
 على طريقه المرسوم ، فغضب عليهم لما كذبوا عليه ..
 أما العقل السليم فهو الأداة الوحيدة لفهم الوحي ، والكون على سواء ..
 ومن ثم فما دمت مستقيماً مع عقلى ، فأنا مُتَشَبِّهٌ بدينى ، سائر على الفطرة ،
 بعيد عن الانحراف !
 وأمر آخر لا غنى عنه ، أشعر بالفخر وأنا أستحضره ! أقول لنفسى : إننى وراء
 محمد - الإنسان الكامل - عندما يقول الله له : « قل هذه سبيلي ، أدعوا إلى الله على
 بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين »^(٢) .
 نعم أنا من أتباع محمد فى الدعوة على بصيرة ...
 وقد شاء الله أن يجرد سيرة نبيّه الخاتم من كل شائبة للكهانة ، وتجاوز
 للإنسانية المجردة .. فإذا عرئى من أعماق الجزيرة المعزولة عن التاريخ يخرج على
 الناس بكتاب مبين ، ومسلك فى بناء النفس والجماعة لم يعرف التاريخ ولن يعرف
 أذكى منه ولا أرقى ..
 درسنا فلسفة يونان ، وآداب الفرس والهند والصين ، ودرسنا سير الملوك
 الذين حكموا ، والقادة الذين فتحوا ، ووازنّا بين تراث وتراث ، وآثار وآثار ، فما
 وجدنا بعد التمهيص والتدقيق إلا ما يُفرد رسالة محمد بالصدق وقدره بالشرف .
 أنا لست من المسحورين بقادتهم ، ولا المفتونين بتراثهم ! وفى عقلى نافذة

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

(٢) سورة يوسف : ١٠٨ .

مفتوحة أبدا لتَلَقَّى الشَّبه والأسئلة والاعتراضات ، والوقوف قليلا أو طويلا بإزائها ..

ومع ذلك فعلى طول تلاوتى للقرآن لم أزد إلا يقينا ، وعلى طول تفرسى فى سيرة نبيه لم أزد إلا إعجابا ...
وأحقر من يثير الشكوك ليقال إنه ذكى ، ومن يكتّم إعجابه ليظهر بأنه مستقل لاتابع !

ومعاذ الله أن أفقد الإنصاف مع من يتحدثون عني بانحراف ! أو أستهين بالمواريث الأدبية والمادية التى جعلت أكثر البشر لا يعرفون الإسلام ولا يدينون به ، وربما حقدوا على أهله وظنوا بهم الظنون !!

سأبقى إلى الممات وفيما لمواثيق الفطرة التى أخذها الله على ، ومقتفيا آثار النبيين الذين ربطوا حياتهم بواهب الحياة « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لأسألكم عليه أجرا ، إن هو إلا ذكرى للعالمين »^(١) ..

غير أنى أمقت الخداع والمّين ، وقد سمعت رجلا من شيوخ انجلترا أو أمريكا يقول لحكومته : لا يجوز أن نرسل أولادنا ليموتوا - فى معركة الخليج الأخيرة - فى سبيل شيوخ النفط الذين سرقوا شعوبهم ، وبدّدوا ما أخذوا على موائد القمار وفى علب الليل ..

إن هذا القائل يعلم أن الجيوش التى جاءت من أوروبا وأمريكا إنما جاءت لتحمى موارد النفط - الذى هو شريان الحياة الصناعية - وتستبقى ضحّتها لمصالح شتى ، آخرها مصلحة الشيوخ اللصوص الخونة الذين يتحدث عنهم هذا القائل .. وفى الحياة يكثر أن يختلط النفع والضرر ، والإثم والبر ، وعلى أولى الأبواب أن يترثوا طويلا فى معالجتهم لبعض المشكلات ...

إن للنفط العربى قصة تبعث على الأسى والسخط ، فإن مناجم هذا المعدن كثرت فى بلادنا ، بيد أننا كنا مشغولين عنها بشئون أخرى جعلتنا نسرح بقطعان

(١) سورة الأنعام : ٩٠ .

الضأن والمعز فوق هذه المناجم ، دون فكر في استئثارها أو ارتفاعها !!
 إن الذى كشف هذه المعادن هم « الخواجات » أما نحن فكنا نتنازع : هل
 حديث التوسل صحيح أم ضعيف ؟ هل كرامات الأولياء حق أم وهم ، هل
 الحكم لبني هاشم أم لأسر أخرى ؟ ...

إن أهل القرآن خانوه خيانة فاجرة ، واتخذوه مهجورا ، فى الوقت الذى
 أنسوا فيه بباطل من القول ، وسخف من الجدل ..

وغرقوا فى غيبوبة عجيبة من المباحث التى ما عرفها السلف الأول ، ولو عرفها
 ما أفلح أبدا ، ولا افتتح قطرا ، ولا أنشأ حضارة !!

وعندما قام الأوربيون بتصنيع النفط وتلوين مشتقاته ، ثم صنعوا الناقلات
 العملاقة فحملته إلى أرضهم ، أعطونا ثمن السلعة التى ابتدعوها ! فإذا صنعنا
 بهذا الثمن ؟

ذهب أقله فى خيرنا ، وذهب أكثره فى ضرنا ...

ولن أتحدث عن مخزاة السرف فى مواطن الشهوات ، ولا المجازفات المجنونة بمال
 الله فى إرضاء الشيطان ، ولا الأرصدية التى تعمى بنوك أوروبا وأمريكا ، وتجمدها
 كلما حلا لها ، ولا .. ولا .. فالحديث مهين لأممتنا كلها ...

إنما السؤال عن سر هذه المحنة من الجذور ؟ ما الذى جرنا إلى هذا القاع
 السحيق ؟ فجعلنا نأخذ ولا نعطي ؟ وجعلنا نتحرك فى موضعنا أو إلى الخلف ؟
 وجعل بيننا وبين كتابنا بُعد المشرقين .. ؟

إن هذا المؤلف « محاسبة نفسية » لموقفنا فى الحاضر والماضى ، ولن يصلح
 لنا مستقبل إلا اذا دققنا فى هذا الحساب ، ووضعنا أيدينا على أسباب
 العوج ..

وكل محاولة لاقتحام المستقبل بفكر عصور الانحطاط لن تزيدنا إلا خبالا ...
 كنت أقرأ أسماء الأسلحة الحديثة فأشعر بهول مابلغه القوم من قوة ، هذه
 صواريخ جو جو ، وجو أرض ، وأرض جو ، وأرض أرض ، وهذه طائرات
 قاذفة ، وتلك مقاتلة ، وهذه سببية ، وهذه مزودة بمدافع للهجوم ، وهذه تفلت

من شباك «الرادار» أما المقذوفات من شتى الأسلحة ففنون وجنون ، هذه
فخاخ ألغام ، وهذه ... إلخ ...

قلت : ما أروع ما أعدَّ هؤلاء لنصرة معتقداتهم وقيمهم ! فهل أعد المسلمون
شيئا من هذا في بلادهم بتفوقهم الصناعى ومهاراتهم الخاصة ؟ كلا اللهم إلا
مانشترية منهم فيبيعون لنا مايستغنون عنه ، ثم يمدوننا بذخائره بين الحين
والحين !!

ما أعرف فشلا فى نصرة الدين والشرف ، والأرض والعرض أقبح من هذا
الفشل !

بم شغلنا عن مثل هذا الإنتاج ؟ بالجدل المحموم فى غيبات نهينا عن التقرُّ
فيها ، بتجسيم الخلاف الفقهيّ ، وإيفاد الشر منه ، مع علمنا القاطع بأن
وجهات النظر كلها مأجورة من الله سبحانه ، ولا لوم على مخطئ ، إن عُرف
خطؤه ...

بالانصراف عن شئون الدنيا مع نسيان حقيقىّ لخالق الدنيا والآخرة ! إنه
انصراف بلاذة وغباء ، وليس تجرّداً لتقوى ، ولا ترفُّعا عن شهوة ..

هل يشعر المسلمون بأن لهم رسالة كبرى تزحم البر والبحر وتشغل الإنس
والجن ؟ ما إخالهم يشعرون ! إنهم يعيشون فى زوايا متواضعة متقاصرة من
الأرض ، ينظرون إلى التقدم الحضارىّ بعيون ناعسة ، وينظر العالم كله إليهم نظرة
استهانة ! ربما أعطاهم شيئا من العون المادّيّ الذى يسألون ، وربما تصدّق عليهم
بشيء من العون الأدبى الذى إليه يرنون ..

إننى أجزم بأن فلسفة الكون فى القرآن الكريم بعيدة جدا عن أفهام قرائه ،
وأن جمهرة المسلمين لاتسمع من هدير الآيات شيئا طائلا ، فهم «كمثل الذى
ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ..» .

قرأت قوله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء
ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ؛
وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل

والنهار»^(١) ثم قلت : إن ضمير الجمع للمخاطب تكرر خمس مرات في هذه الكلمات ، كأن الله يقول للسامعين : هذا كله لكم ، لكم أنتم ، لكم وحدكم ! ومن السامعون ؟ أبناء آدم جميعا ، أهل الأرض كلهم ، كما قال في موضع آخر « خلق لكم مافى الأرض جميعا .. » وقال : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ... » .

ومع هذا كله فقد سألت نفسى : هل العرب والمسلمون من بين جمهور المخاطبين ؟ هل الكلام يتناولهم مع سائر الناس ؟ أم هم مستثنون من الناس ؟ إنهم غرباء بين الأرض والسماء ! حتى الفلاحة وهى حرفة بدائية أجادها غيرهم ، وأكثر ثمارها ، وهم يُحْرِزُونَ أرغفتهم بِشَقِّ الأنفس !

وقد صور غيرهم الخيرات فى باطن الأرض ، وشرع يستخرج السائل والجامد من معادنها ، ونحن ننظر دهشين ، وبعض شُطَّارِنَا يفتى بأن التصوير حرام !! وَسَاكَتْ فوق ثبج البحار بوارج ومدمرات وشقت أعماءها غواصات تحمل الردى ، وناقلات نفط عملاقة وغير عملاقة ، ماصُنع شىء من هذا كله فى موانينا الجميلة ! إننا نرمقها معجبين بعد أن يُتم غيرنا صنعها ... !

تساءلت : أين نحن من دنيا الناس ؟ وتساءلت مرة أخرى : أين نحن من ديننا ؟ وهل نُنْصِفُه أو نُشْرَفُه بهذا التخلُّف السحيق ! بل هل نستطيع حمايته يوم تُسْكِرُ القوة أصحابها - وما أكثر سكراتها - فيتحركون للنيل منا والإجهاز على بقيتنا ؟

إن المسلمين أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة .. وقد تهز بعضهم غرائز الدنيا فيصيح ويسعى ، لكنه لا يفعل شيئا ، ولا يبلغ هدفا ! لأنه ما استفاد من النعمة التى يَسْرُّها الله له ، أعنى أنه ما استفاد من الوحي الذى أغناه عن التجارب ، ومهَّد له سبيل الكمال ، وعَلَّمه كيف يؤدى حق الله .. ! وكيف يحتفظ بحق نفسه ...

(١) سورة إبراهيم : ٣٢ ، ٣٣ .

هذا الكتاب لاغير تَلَقَّه آباؤنا الأقدمون فصَحَّحُوا به مسار الحياة ، وأبدعو حضارة أرقى وأزكى مما عرف السابقون ، فها بالنا نقرؤه دون وعى ، ونحتر على آياته صُماً وعمياناً ؟

رأيت يوماً إحدى الصور التي أرسلتها مركبة الفضاء الأخيرة ! ورأيت الشمس والأرض نقطة ضئيلة في بحر الظلام الذي يَسُود الملكوت ! لقد سَبَّحْتُ بحمد ربِّي ، وتضاءلت في ذاتي ، وأحسستُ أن قِيُوم السماوات والأرض صاحبُ مُلك لا يَبْلَى على امتداد الأزَل والأبد !

إن مالا نبصر أضعاف أضعاف ما نبصر من هذا العالم الضخم الفخم ... ! وشعرت أن الجديد الذي انطبع في نفسي صورة طبق الأصل للقديم الذي رسمه الوحي في قلبي وعقلي ، إن القرآن الكريم علمني هذا من قبل !! لكن هل يعلم الناس هذا ؟ من يعلمهم ؟ وأهل القرآن نيام عنه ، مشغولون بكلام خفيف الوزن « ولو أنهم آمنوا واتَّقُوا لَمَثُوبَةٌ من عند الله خير لو كانوا يعلمون » (١) .

هل نعود مرة أخرى لتدبر كتابنا وبناء الحياة وَفَّق دلالته .. ؟ في عصور مضت ربما كانت المسافة بين العلم بالإسلام والعمل له لا تتجاوز أشباراً أو أذرعاً ، أما في الآونة الأخيرة فإن المسافة تبلغ أميالاً طويلة .. ولا أتحدث هنا عن سياسة الحكم والمال ! وإنما أتحدث عن الأخلاق والتقاليد والقدرات المطلوبة لإحسان أى عمل وإدارة أى جهاز . إنني رأيت أياماً يؤدي العمال فيها ما عليهم دون أن يشعروا بأى حق لهم ، لعلهم كانوا يطبقون الحديث المعروف « أدُّوا الذي عليكم وسلوا الله الذي لكم » .

وهذا الحديث يأبى الظلم ، ولكنه يحرس المجتمع من عواقب التفريط والإضراب عن العمل !!

(١) سورة البقرة : ١٠٣ .

ثم جاء بعد ذلك جيل من العمال والفلاحين يطالبون بحقوق ليست لهم ، وقلمًا يؤدون عملاً أو يكملونه أو يتقنونه !

وكثيراً ما أنظر في أحوالنا فأرى الفوضى تسبق النظام في أغلب الإدارات - وأرى أجهزة ضخمة وثمرات تافهة ، وأرى نسياناً متعمداً لقوله تعالى : « لا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » .

وقلمًا رأيت الجودة في صناعاتنا ، أو شارات الإحسان والتجويد في إنتاجنا . إن الرياء والتزوير وموت الضمائر خلالت متشرة لا يوجد لها نظير في مجتمعات شيوعية أو علمانية مقطوعة عن الله .

وقد يكثر المال في أيدٍ لاتعرف قدره ، فيزداد الإقبال على المخدرات ، والبحث عن المتالف ، وربما نظرت إلى فئات في المجتمع فتذكرت المثل المقول في عبد السوء : إذا جاع سرق ، وإذا شبع زنى !!

وعلة هذا الهبوط واضحة ، فقد تسلفت مبادئ المدينة الحديثة إلى بلادنا في فترة ضعف شديد في موروثاتنا الدينية ، فلم نلق مقاومة تذكر...

ومن هنا رأينا ألوف العمال والفلاحين يهاجرون طلباً لأدوات الحضارة الحديثة ومظاهرها ، والأمل المسيطر هو الفيديو والتليفزيون الملون ، والحرير والمذهبات ، وصنوف الترف ، ثم تنافست طبقات الأمة كلها في استجلاب هذه المظاهر والعناصر...

وشاء القدر أن يقع ذلك في الوقت الذي نضج فيه التفكير لإقامة إسرائيل الكبرى ، والتطويح بمستقبل الأمة الإسلامية كلها ..!!

لقد تحرك كل ذى دين لنصرة دينه ، وطولب المسلمون وحدهم بنسيان دينهم ، وعدم التجمع على شعائره أو شرائعه !! ولحظت أن فتياناً لا ينقصهم الإخلاص ، يبتغون التجمع على دينهم ورفع أعلامه ، لكنهم لا يدرون ما الطريق ؟

بعض الأمراض الخبيثة تظهر لها أعراض على سطح الجلد ، فيظن المعالج القاصر أن هذه البثور سطحية ويشغل بمداواتها على هذا الأساس ، وسيقضي

عمره دون أن يصل إلى شيء ..!

ومن المشتغلين بالدعوة من لا تعدو عينه هذه السطوح ، والأمر أخطر مما يتوهمون ، وسيأتيهم أجلهم وهم في أماكنهم لا ينقصون ذرة من علل أمتنا ... من أجل ذلك تعاونت مع أولى الألباب على تشخيص العلة وتحديد الدواء ، باحثا في الحاضر والماضي ، مستقرثا ما يظهر وما يخفى ، فكان هذا الكتاب الذي تدور فكرته حول « المسار الفكري في تراثنا » .

إنه مراجعة وتحقيق .. وقد قطعت نصف المرحلة الآن ، ولاتتم الرحلة حتى أضع إن شاء الله بحثا آخر عن العلوم الإنسانية ، آمل أن يدركني فيه توفيق الله .
محمد الغزالي

الفصل الأول

إسلامية المعرفة أو المعرفة الإسلامية

ما هو أول علم تلقاه آدم عن ربه ؟ رفع به مكانته ، ورجح كفته ، وأقنع الملائكة بأنه أهل للحياة والخلافة في الأرض والسيادة على أرجائها وأحيائها .. لقد قال سبحانه وتعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ! قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم .. »^(١) .

ما هذه الأسماء ؟ وماسمياتها ؟ لا أريد أن أذهب بعيدا ، سأبقى مع السياق القرآني وحده ، إن الله يقول للبشر قبل ذلك : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ... »^(٢) وهذه عبارة عامة مجملة ، سبقتها في النزول آيات فصلت الموضوع تفصيلا أوضح « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلا ما تشكرون . ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. »^(٣) .

ظاهر أن العلم الذي اختص به آدم يتصل بالأرض والحياة على ظهرها ، واستثارتها واتصال عمرائها ، واستكشاف قواها وأسرارها ، ولن تكون الأرض وحدها مهاد الحياة البشرية فالأرض إحدى بنات الشمس ، والمعيشة فوق ترابها

(١) سورة البقرة : (٣١ - ٣٣) .

(٢) سورة البقرة : (٢٩) .

(٣) سورة الأعراف : (١٠ - ١١) .

مرتبطة بكواكب شتى فى السماء ، فلا بد أن تتسع المعرفة الآدمية لتشتمل على علوم الكون والحياة ...

ولانزعم أن آدم عرف الكيمياء والفيزياء والفلك ! لكننا نزعّم أنه عرف الأبيجديات التى تتكون منها هذه العلوم مع إدمان البحث والتجربة ، وأوتى عقلا جوابا فى الآفاق يقدر به على تسخير عناصر الكون لنفسه ، كما يقدر به على معرفة آيات الله فى الملكوت الكبير ، ودلالة هذا العالم الضخم على عظمة بانية وبارئه .. وهل خلق الله الكون إلا لهذه الغاية ؟ إنه يقول فى كتابه : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » (١) . إن الله خلق هذا العالم لنعرف نحن - من هذا الخلق - قدرته وإحاطته ، فنقدّره حق قدره ، ثم نسبح بحمده ونهتف بحمده !

والرحلة من الجهل إلى المعرفة بعيدة الشقة ، وقد تقطعها أجيال بعد أجيال ، ليكن ، فهذه رسالة آدم وبنيه على ظهر الأرض .. بها تميّز على الملائكة ، وبها استحق الخلافة ..

وعجّبي لأُم تحيا على الثرى لاتدرى مافيه ولا ماتحتة لأنها فى طفولة عقلية تحتاج معها إلى المرضع والكافل ..
أُم لم تمكّن فى الأرض مع أنها أوتيت أسباب التمكين ! ولم تجعل لنفسها معاش إلا ماتلتقطه الثعالب من فضلات الأسود !

لقد علّم أبوهم آدم الأسماء كلها ، فجهلوا هم هذه الأسماء كلاً أو بعضاً ، وإني أرمق المسلمين فى هذا العصر فأذكر ذا القرنين وقد مرّ على قوم يغار عليهم ولا يغيرون ، وينال منهم ولا ينالون « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً .. » (٢) .

(١) سورة الطلاق : (١٢) .

(٢) سورة الكهف : (٩٣) .

ماذا يطلب هؤلاء العجزة ؟ يطلبون من يحميهم من عدوهم ، ويبنى لهم حصونا يأمنون خلفها على أنفسهم ! لأنهم لا يستطيعون تشييد هذه الحصون !
إن علمهم بالحياة ضحل ، وحظهم من التمكن قليل . إن صلتهم العلمية بآدم واهية ، وطالما شكوت من أن الجانب الإنساني العام مثلوم في الحياة الإسلامية المعاصرة !

وقد يظهر هذا الضعف المخزى في بعض الأجيال التي تعمر الأرض ، فيكون من عمل الأنبياء أن يعرفوا الناس كيف يحمون أنفسهم وكيف يحمون عقائدهم وشعائهم ، يقول الله في نبيه داود : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون »^(١) .

إن معرفة الحياة صنعة إنسانية عامة ، والتمكن في الأرض حق لبنى آدم كلهم ، أما الجهل والعجز فعلى تعثرى الآدمية تفقد بها شخصيتها وتقصر بها عن رسالتها .. وما يكون الإنسان إنسانا إذا توقف عقله عن الفكر ، وأشبهت حواسه وجوارحه حواس الدواب وجوارحها في أكل ما تيسر ، والعيش في نطاق غرائز بدائية تنطلق بها الكلاب والذئاب ..

ونعود إلى أيننا آدم ، وكم أرق لحاله وهو يهبط من جنته ليكدح كي يبقى ! لقد كان في رزق دار وعيش قار ، وهاهو ذا يسعى جاهدا حتى لا ييجوع ويعرى ! هذه عقبي ضعف الإرادة وغلبة النسيان ، والخديعة بوساوس الشيطان .. إنه هبط على أية حال وهو مزود بمعرفة نظرية عن حياته الجديدة ، وإن كان البون بعيدا بين العلم النظري والمعاناة الواقعية لا بد أن يعرق ويقلق ، وقبل ذلك ومعه لا بد أن يذكر ربه ويحترم أمره مهما كانت المغريات والمثبطات .

وقد قيل له وللشيطان الذي أغواه « اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإذا يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى »^(٢) .

(١) سورة الأنبياء : (٨٠) .

(٢) سورة طه : (١٢٣) - (١٢٤) .

إن أبانا آدم - في ماضيه الطيب - كان يتلقى العلم عن ربه ، ويستمع إلى أمره ونهيه ، فإيمانه به إيمان شهود ، ثم كان الخطأ « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »^(١) ثم شرع يستقبل حياته على ظهر الأرض ، وهو موقن بأن من الله المبتدى وإليه المنتهى ، وأن عليه وعلى نبيه من بعده استصحاب هذه الحقائق ، فلا ينسى أحد من أين جاء وإلى أين يصير ..

أمداد هذا الذكر الواجب ، وينابيعه الدافقة ، تتفجر من فجاج الأرض ، وآفاق السماء على سواء .. إن هذا التراب الداكن عندما ينشق عن شماريخ البلح وعناقيد العنب إنما يتحدث عن ربه ..

والرياح التي تسوق السحب من شرق الدنيا إلى غربها فتهب بالحياة والنماء إنما تحدث عن ربها ..

وهذا الإنسان الذي يولد من ماء مهين ، ويبدأ طفلاً غامض المستقبل لا تدري أيكون امرءاً عبقرياً أم جباراً شقيماً ؟ إن هذا الإنسان - طوعاً أو كرها - يتحدث عن ربه ، إنه ما خلق نفسه ولا خلقه أبواه ، إنه ما خلقه إلا الله ..

وإيمان الشهود عند آدم تحوّل في أبنائه إلى إيمان تفكير إلى إيمان بالغيب ، بيد أن ضمانات هذا الإيمان من الكثرة والوفرة بحيث لا يبقى لتجاوزها عذر .. أساسها أن آدم الذي استوعب علم الحياة عندما علّم الأسماء كلها ، عرف ربه ، وعرف ما يدل عليه في جنبات العالم الكبير الذي هبط إليه .

كان مخلوقاً يعرف خالقه ، وتابعا يعرف سيده ، وماراً بتجربة شاقة ينبغى عليه وعلى أولاده أن ينجحوا فيها ..

مصدر العلم الإنساني :

مصدر هذا العلم الذي علا به آدم على الملائكة ، الكون !
إن العلم بالكون هو صميم الإنسانية ، والجهل به لا يعوض عنه شيء ! وقد أبان لنا القرآن الكريم ثلاثة أسباب لهذا العلم الكوني الواسع ..

(١) سورة طه : (١٢٢) .

الأول : دلالة على الله ، وقد شرحنا ذلك في أماكن أخرى ، ونشير هنا إلى بعض أقسام القرآن التي ألمت إلى عظمة الله المبثوثة في مادة الكون ونظامه . نحن نعيش في كون متحرك ، القمر يجرى حول الأرض ، والأرض تجرى حول الشمس ، والشمس تجرى لمستقر لها ، تنطلق معها توابعها التي اكتشفت كلها ، والشمس وأسرتها ، واحدة من مجرات فوق الحصر تجرى في فضاء لم تُكتشف آماده .

ومع هذا الجرى الدعوب في كل اتجاه فهو كالحبوة المحبوة الوزن المضبوطة الأداء لا يطرأ عليها خلل ولا تعثرها فوضى « والسماء ذات الحبك إنكم لفي قول مختلف »^(١) . نعم إن الحبكة الملحوظة في نظام الأفلاك الدوارة تثير الدهشة ! « فارجع البصر : هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر نحاسا وهو حسير »^(٢) .

وقد ينظر المرء ببلاهة بُعيد الفجر وانغلاقه إلى الظلام ترقّ كثافته وتخف حدته ، ويتلاشى أمام النهار المقبل من بعيد ، إنه لا يدرى كيف تم هذا المخاض ؟ وكيف تمت في الفضاء الرحب ولادة يوم جديد ؟

تدبر هذا القسم « فلا أقسم بالحنّس الجوار الكنّس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس »^(٣) إن هذا المشهد يتنقل على خطوط الطول والعرض باستمرار ، لا يتخلف ولا ينقطع ، حتى يأذن الله للشمس أن تخلف موعدها وتطلع من مغربها ، ويؤذن بانقضاء هذه الدنيا وانتهاء أيام الاختبار الإنساني في المضحك المبكى ..
الثاني : ارتباط الحياة الإنسانية ضروراتها ومرفهاتها بهذا الكون ! « والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم »^(٤) .

(١) سورة التكويد : (١٥ - ١٨) .

(٢) سورة النازعات : (٣٠ - ٣٣) .

(٣) سورة الذاريات : (٧ - ٨) .

(٤) سورة الملك : (٣ - ٤) .

إن أغذيتنا وأدويتنا وألبستنا من هذه الأرض ، والأرض كما علمت جزء محدود من عالم ممدود ، بل إن ثقباً في بعض الأغلفة الجوية قد يتهدد أرضنا بالفناء ، كأن هذا الكون كله خلق من أجلنا « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخراتٌ بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون »^(١) ...

أليس يدعو للكتابة أن المسلمين المعاصرين آخر من يعلم هذه الحقيقة ؟ غيرهم نقب في البلاد فاستخرج الغالي والرخيص وارتفعه وباع ما يفضل عنه ، ونحن نمشي فوق أراضٍ ملأى بالنفط والحديد والذهب ، لاندرى ما حوت ! حتى يحىء من يرى أن الأرض له ليشيرها فتعطى كنوزها ينفق منها كيف يشاء ، ثم يرمى لنا الفضلات في كبر وتأفف !

أيرضى بذلك أولو الألباب ؟ إن فقه الكون والحياة فريضة أسبق من فرائض أخرى صنعها أصحاب الثقافات المغشوشة ، زعموها ديناً وهي أبعد ما تكون عن الدين ..

الثالث : حماية الحقوق والحقائق ، فالويل لنا يوم يكون أهل البيت مسلحين بالحجارة واللصوص مسلحون بقذائف قريبة المدى أو بعيدة المدى ! ! سينهب الحق وتطمس الحقيقة ..

لقد وصف الله خواص الحديد ومنافعه المدنية والعسكرية فقال : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب »^(٢) فهل ينصر الله ورسله قوم لا علاقة لهم بحديد ولا خشب ؟ !

في هذا العصر اتسعت ساحات الحروب حتى شملت البر والبحر والجو ، ومن المستحيل أن ينجح في هذه الميادين إلا ذوو الثقافات الغزيرة المستبشرة المستكشفة ! ولا أزال أنظر بضيق وأسف لقوم يروون حديث « نحن أمة أمية » ليفهموا منه

(١) سورة النحل : (١٢ - ١٣) .

(٢) سورة الحديد : ٢٥ .

أن الأمية صفة أمتنا إلى آخر الدهر .

فهم يرفضون الحساب الفلكي ، وينكرون القواعد الرياضية التي قام عليها إرسال المركبات الفضائية وأمكن بها النزول إلى القمر .. ثم ينظرون إليك بتبجح قائلين : أتنكر السنة ؟

إن هذا الوصف كان لواقع عربي متخلف نقضه القرآن الكريم من القواعد عندما قال : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » (١) . هذا الحق لا يدركه إلا قوم يعلمون ! وقد لاحظت أن الوصف بالعلم يحيى غالبا عند الكلام عن الكون وأسراره وقواه وحركاته .

تدبر قوله تعالى : « فالحق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباننا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » (٢) .

وفي الماعة إلى عظمة العالم وضآلة البشري يقول : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣) .

وفي بناء التوحيد على الفكر الباحث والنظر السديد يقول : « الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (٤) .

ثم تجيء آيتان تكادان تحصران العلم المثمر المورث لليقين في العلوم الكونية القارئة لآيات الله في صفحات الأرض والسماء ، وهى العلوم التي قلتُ حظوظنا فيها وصفرت أيدينا منها ، فأمسينا في الميدان الدولي كما قال الشاعر :

ويقضى الأمر حين تغيب يتم ولايستأمرون وهم شهود !

(١) سورة يونس : ٥

(٢) سورة الأنعام : (٩٦-٩٧) .

(٣) سورة البقرة : ٢٢ .

(٤) سورة البقرة : ٢٢ .

وأى قيمة لفارغ العقل واليد من علوم الكون والحياة ؟ أما الآيتان فقولته تعالى :
« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال
جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود . ومن الناس والدواب والأنعام
مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء » (١) .

ولا عجب فأصحاب العقل أو أولو الألباب كما عبر القرآن الكريم هم مستخرجو
الحق من ثنانيا الكون الكبير « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق
السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه » (٢) .

ومع ذلك كله فكلمة « نحن أمة أمية » تسرى كالخمر في أبدان السكارى ، مما
جعل المسلمين يتسولون المعرفة من ألسنة أخرى ، وأمم أخرى لأن مصادرهما في
العربية وبين العرب أدركها الجفاف ...

ولنشر إلى فروق بين العلم الديني والعلم المدني ! الأول محدد ، أساسه الاتباع ،
والآخر مطلق أساسه الاختراع والابتداع ، فالصلاة مثلا والطهارة اللازمة لها
لا يتطلب تعليمها إلا ساعة من نهار ، وعلى المسلم بعد هذه المعرفة تكرار ما أمر به
سائر عمره ليفيد من هذا التكرار أدب النفس وسكينة الروح ، وتماسك الجماعة
 وإقامة أمة متعارفة على منهاج وهدف ..

أما علوم الدنيا فهي متجددة ، وقد لاحظنا في نصف القرن الأخير أن المعارف
الإنسانية زادت بما يساوى أو يفوق ماحققته الإنسانية طوال القرون الماضية ،
و دارسو العلوم الكونية ومتابعو التطور الحضارى يحسون هذه الحقيقة ..

ومن المؤسف أن المسلمين لم يسهموا في هذه الوثبة الرحبة ، أعنى مسلمى القرون
الآخيرة ، أما آباؤهم الكبار فأياديهم على العالم لا ينكرها إلا متعصب جاحد ..
بم شغل المسلمون المتأخرون أنفسهم ؟ بالكلام في بعض الجوانب الدينية ! فقد

(١) سورة فاطر : (٢٧-٢٨) .

(٢) سورة آل عمران : (١٩٠-١٩١) .

يستغرق شرح الصلاة شهرا ! وقد يطول الحديث في الوضوء والغسل قريبا من هذه المدة ..

وبدیه أن أفرق بين التخصص العلمی وبين الأنصبه التي تعمّ الجماهير... وأيّاً ما كان الأمر فإن المساحة الزمنية والعقلية التي لابد منها لعلوم الحياة ضاقت كل الضيق لحساب شئون أقرب إلى اللغو والثثرة ، ومن ثم لحقت بالإسلام هزائم مادية وأدبية شائنة ..

إن المسلمين الأولين اخترعوا علوم المعاني والبيان والبدیع ، والنحو والصرف لخدمة الإعجاز البياني في القرآن الكريم ..

وخدمة هذا الكتاب تحتاج إلى جانب ذلك حاجة ماسة إلى علوم الأحياء والفيزياء والكيمياء والفلك وطبقات الأرض الخ .

والجهالة بهذه العلوم خيانة مخزية للإسلام وكتابه الضخم .. وهي - مع كونها خيانة دينية - خيانة إنسانية عامة لرسالة أيينا آدم الذي ألهم الأسماء كلها ، وجعلت له الأرض ذلولا ، وساد فيها البر والبحر !

لماذا يغوص غرينا في الماء ، ويسبح في الفضاء ونحن ننظر مشدوهين ؟ لماذا يملك الإلحاد الكهرباء والذرة ولا نملك نحن إلا الهراوات ؟ نهتد بها من يعترض أهواءنا !! ..

من عجائب دنيا المسلمين

أليس عجيباً أن تكلف أمة ببناء إيمانها على دراسة الكون ، ومع ذلك تحيا محجوبة عن الكون ونواميسه وأسراره وقواه ؟
أهذه هي استجابتها لقول الله : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه .. » .

لو كانت أمتنا حين تكاسلت واستنامت تعيش على ظهر الأرض وحدها لكان

وزر تخلفها على رأسها ، تعانى منه فى شئونها قَلَّتْ أو كثرت !!
لكن أمتنا فى سباق مع أُم أخرى لاتنام ! أُم لارسالة لها ، أو لها رسالة مادية
محدودة قوامها الباطل والهوى .

ومع ذلك فإن المبطلين يسابقون الريح نشاطا وعزيمة ، ونحن ممثلى الحق
جاثمون على الثرى ، ننظر ببرود أو بلاهة إلى الآخرين ، ولا نعى من رسالتنا شيئا
ذا بال ..

الآدمية فى كتابنا علم عجزت عنه الملائكة ، وظفر به آدم وحده ، فاستحق
الخلافة فى الأرض ! والآدمية فى حياتنا طعام وسفاد ، وتحاسد وتفاخر ، أى هى
الحيوانية الهابطة !.

الآخرون سَيَّروا الأفمار الصناعية ، وأرسلوا مركبات الفضاء تزودهم بمزيد من
المعرفة ..

وفى الوغى لهم أظافر تخرق وتذبح وتصعق ، وتفعل المنكر بعدوها ..
أما نحن فقد نتوَّد لهم مشترين من أسواقهم ، أو مُتزوِّدين من غنائمهم ، أو
مستعيرين من أسلحتهم مانحتاج إلى تعلُّمه منهم ، قبل أن نحسن استخدامه !!
أنا ما أشك فى أن هناك عطبا أو كسرا أو تلفا فى كيانتنا الفكرى والنفسى ،
جعلنا فى هذا الوضع المهين ، وما نصح أبدا إلا بذهاب هذه العاهات ، وعندئذ
نصنع كما يصنعون ..

وقد أنظر إلى أنظمة الحكم هناك ، فأجد القادة بلغوا فى ثقافتهم أعلى شأو ،
وفى تجربتهم أعظم خبرة ..

ومع اقتدارهم على الرأى السديد فهم يستشيرون أهل الحلّ والعقد فى
بلادهم ، ويستمعون بإخلاص إلى الرأى الآخر ، وإلى النصيح المجرد ، وكأن على
لسان كل منهم كلمة أبى بكر « وُلِّيت عليكم ولست بخيركم ، إن رأيتم خيرا
فأعينوني ، وإن رأيتم شرا فقوموني » .

أما نحن فقد وقعت أمورنا بين أيدي أقزام متعالمين متطاولين ، لاندرى من
أين جاءوا ، ثم نسمع الواحد منهم يقول فى صلف وزهو : « ما أريكم إلا

ما أرى ، وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد !!
قائد الحق تجرى على لسانه صيحة فرعون - قُبَّحه الله - وقائد الباطل تجرى
على لسانه كلمة الصديق رضى الله عنه !!
آية موازنة تلك ، وما يكون المصير مع هذا البلاء ، فى الأحوال السياسية
والعمرانية التى تسود أرض الإسلام ..؟ وشيء آخر ما نستحى من ذكره بعدما
لفحنا دخانه وشروره .

فقد كان لتعمق الأوربيين فى العلوم الكونية أثره فى انفتاح أبواب الغنى
عليهم ..

إن القوى والأسرار التى اكتشفوها كانت مفاتيح لخزائن السموات والأرض ،
فلا غرابة فى ارتفاع مستوى معيشتهم ، ولا غرابة فى اتساع دائرة الرفاه والتنعم
لديهم !

إنهم استثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرها غيرهم ، فخدمهم الرطب
واليابس ، والسائل والجامد ، والحديد والذهب ، والتراب والهواء ، وتوشك أن
تأخذ الأرض زخرفها ، وتزدان وتتحول إلى خادِم طيِّع لأطباع الإنسان ..!! أى
إنسان ؟

الإنسان الذى عرف الخلق ولم يعرف الخالق ، والذى يحسّ أهواءه فى بدنه
وفى دنياه ، ولا يدري عن وحى الله شيئا له وزن ، ولا يقدر للآخرة شيئا يكون له
ذخرا !!

وما أشك فى أن المسلمين يحملون من هذا التناقض وزرا كبيرا ، فهم ماتذوقوا
الحق الذى اصطفاهم الله له ، ولا حملوه إلى الناس كى ينفعوهم به ..
ونشأ عن ذلك أن جماهير المسلمين فقيرة كسيرة الجانب ..
والثراء الذى ناله بعضهم عارئة من الاتصال بالأجانب والعمل لهم أو
معه !!

ونشأ عن ذلك أيضا أن أما كثيفة العدد تذلها الديون التى أخذتها وتكاد تنقض
ظهرها ، ومع الديون ربًا مضاعف ، ومعها جميعا لادين ولا دنيا إلا ما يظفر به

الأذئاب من فضلات الأرباب ...

وتذكرت أحاديث كنا نتعلمها في صغرنا وما انتفعنا بها في كبرنا !
تذكرت مارواه أبو سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله يقول : أعوذ بالله
من الكفر والذّن !! فقال رجل : يا رسول الله ، أتعذل الكفر بالدين ؟ قال :
نعم !!

وفي حديث آخر : « لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها !! قالوا : وما ذاك يا رسول
الله ؟ قال : الذّن » .

وعن أبي موسى أن رسول الله قال : « إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه ،
بعد الكبائر التي نهى الله عنها ، أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء » .
وفي رواية « نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه » .
وهذه الأحاديث كلها في الديون التي يأخذها الناس توسعا في حقوق
الآخرين ، وإطاعة لرغبات وشهوات مجنونة ، مع قلة اكتراث بالوفاء أو استعداد
له .

ومعروف أن الفقر نوعان : فقر صعلكة وكسل ، وفقر سببه الجهاد والبذل ،
أو إثار الحلال القليل على الحرام الكثير ، أو الترفع عن قبول السحت والرشوة
وهذا السلطة المتاحة للمرء ..

الأول معصية ، والآخر مَحَمْدَة ، وحال الأفراد والجماعات في أمتنا الكبرى
يرجع إلى النوع الأول غالبا ، فققر المسلمين واستدانهم ، وقلة ذات اليد عندهم
ترجع إلى عجز عن مكابدة الحياة ، وجهالة بمفاتيح الخير ، واستهلاك الأوقات في
البطالة والملذات !

إن سعة المعرفة ذريعة إلى سعة الثروة ، وإن الخبرة بالدنيا أقصر طريق لخدمة
الدين !

والمرء قد يمرض فيأسى على الصحة ويبحث عنها ، ويعرف قيمة العافية
ويحرص عليها ، وقد تلحق به أزمة فيمد يده مُقترضا أو سائلا ، شاعرا بذلّ
الحاجة ، ضائقا بأيام الفقر .

أما أن يتحول المَرَضُ والفقر إلى دين فذاك تفكير المجانين .
وما أكثر الذين جُثُّوا عندنا ثم زعموا - بعد فَقْدانِ العقل - أن الدين يكره
المال ، ويحب المسكنة ، ويرتضى لأتباعه التخلُّفَ المدنيَّ والعسكريَّ ، أو الهوان
المادِّيَّ والأدبيَّ ، وأن يعيش المسلمون أذنانا ، وأن يعيش غيرهم أربابا ! ولعنة
الله على العجز والكسل .

كنت أسير في الشارع فوجدت العمال يحفرونه على مدى بعيد ، وبعمق كبير ،
ووجدت انابيب هائلة تُمدُّ بلباقة وقدرة ، لتكون شبكة الصرف الصحي في هذا
الحى الكبير !

وعرفت أن معونة انكليزية مشكورة قامت بالصناعة والتركيب .. !
ومدَّتْ يدي إلى إحدى الصحف كي أغالب السَّامة التي تتسلل إلى
أعصابي ، فوجدت في الصفحة الأولى خبرين : يقول أولها : ١٥٠ مليون دولار
منحة من إيطاليا إلى مصر ..

ويقول الآخر : مساعدات غذائية أوربية لمصر قيمتها ١٠ ملايين دولار ،
لمناسبة عودة ٤٠٠ ألف عامل فروا من العراق والكويت في الأحداث الأخيرة ...
ومسلسل الأخذ لا ينتهى ! وستبقى الأكفُّ مفتوحة لتلقَّى القروض والهبات
حتى نستفيق من العيوبة التي رانت علينا ... !

إننا لم ننحرف عن رسالتنا الإسلامية فقط ، بل نسينا انتماءنا إلى آدم الذى
علَّمه الله الأسماء كلها ، وأهبطه إلى الأرض كي يعمرها بذكائه ونشاطه ، أو بكذِّ
يمينه وعرق جبينه !!

فما المعرفة التي نُحصِّلُها - والحالة هذه - إذا كانت من الناحية الدينية
مغشوشة ، ومن الناحية الإنسانية مضطربة ؟؟
ألا يحتاج مسارنا الفكرى إلى مراجعة ؟

الفصل الثاني

أبعاد الوحي الأعلى

توضيحا لرسالة المسلمين العالمية وتحديد المواقف المتميز بين الناس ، يقول الله تعالى لهم : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس »^(١) . وفي موضع آخر يقول سبحانه : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »^(٢) .

ونلاحظ أن شهادة المسلمين على الناس تقدمت في نص وتأخرت في نص آخر ، وسواء تقدمت أم تأخرت فالمقصود ما قلته بإيجاز في أحد كتبي : « إن الله ربّي محمدا ليربّي به العرب ، وربّي العرب بمحمد ليربّي بهم الناس كافة » . ولا ريب في أن محمدا عليه الصلاة والسلام قام بما فرضه الله عليه ، وأنه أنشأ من العرب المعزولين عن حضارات العالم أمة لانظير لها في سناء المعرفة ، وزكاة الأخلاق ، وشرف الحضارة ، وأن هذه الأمة التي صاغها محمد في قالب جديد أضاءت المشارق والمغارب ، وأعادت الحياة المادية والأدبية لجاهل من البشر ظلت ترسف دهرا في الجهالة والعبودية ...

ونحن نشهد بذلك بعد بضعة عشر قرنا من بعثته ، كنا أصفارا ثم صرنا شيئا مذكورا ! فهل يشهد لنا العالم بما نشهد به نحن لمحمد ؟ أو بعبارة أخرى : هل وصلنا للناس القول كما وصله هو إلينا ، ونقلناهم بالوحي كما نقلنا هو به ؟

(٢) البقرة : ١٤٣ .

(١) الحج : ٧٨ .

إن سلفنا الأول أدى ما استطاع من واجب البلاغ وعبء التعليم والتربية ، ثم شرع الأخلاق ينطوون على أنفسهم أو يشتغلون بشئونهم وينسون أنهم شهداء على الناس ..

وهذا التقصير بدأ ضئيلاً ثم تنامي على مرّ الأيام ..
والمسلمون الآن بين ١/٥ العالم أو ١/٤ ، وأغلب سكان القارات لا يدري شيئاً عن رسالة الحق ، أو يدري عنها مالا يشرفها ، مالا يغري بالنظر فيها بله اتباعها ..
إن المسلمين - والعرب خاصة - مسئولون أمام الله عن هذه الجهالة السائدة ...

ويخيل إليّ أن ناساً من استراليا وأمريكا عندما يوقفون أمام الله يوم القيامة ليسألهم : لماذا لم تعرفوني معرفة صحيحة وتعملوا لي عملاً صالحاً وتستعدوا لهذا اللقاء ؟ فإنهم سيقولون لله : إن العرب الذين ورثوا دينك ، حبسوا نوره ، أو أطفؤوا مصابيحهم ، وتركوا ، وتركوا أنفسهم في ظلام !!
وأترك الحديث عن قصور الدعوة وعطل أجهزتها إلى أمر آخر أخطر وأنكى ... إن غشا واسعا تسَلَّل إلى ثقافتنا الإسلامية ونال من جوهرها ومظهرها .. إن أكذوبة الغرائق التي بسطها الطبرى في صفحات ، وأسهب في الحديث عنها محمد بن إسحاق ، والتي عدها السيوطي مما نسخ ! ثم أثبتنا في سيرته^(١) النبوية محمد بن عبد الوهاب ، هذه الأكذوبة مثل لاضطرابات فكرية وسياسية مبتوته العلاقة بالدين ، نريد أن ننحّيها عن ديننا كما ينحّي القذى عن الوجه الجميل لتبقى له وسامته ...

والحمد لله أن القرآن الكريم مصون لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن السنة المطهرة يعرفها الحفاظ والفقهاء ، وأنها - في جملتها - تراث صادق لم يعرف التاريخ نظيراً له في النقاء ..
ونحن عندما نعرض الإسلام على الناس - إلى آخر الدهر - يعيننا على نشر

(١) انظر الأعمال الكاملة لمحمد بن عبد الوهاب طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

عقائده وقواعده أمران مهان :

الأول : مواثيق الفطرة التي أخذها الله على الناس من ظهور بنى آدم ، فنحن أصدقاء هذه الفطرة ، نعتمد على سلامتها ونرد المنحرفين إليها « لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »^(١) .

واحترامنا للعقل قائم ، ونزولنا على منطقته حتم ، وعدونا في هذه الحياة التقليد البليد والتعصب الأعمى ..

وسلاحنا العتيد : « قل هاتوا برهانكم »^(٢) وفي كل معركة تشتجر فيها الأدلة لابد أن يخرج الإسلام منتصرا .. ومن ثم لانشعر ونحن نخوضها بأى قلق ... الأمر الآخر : لفت الإنسان بعد نفسه إلى ماحوله ! « أُولم ينظروا في ملكوت السَّمَوَات والأَرْض وما خلق الله من شيء »^(٣) ؟ وفي المعارف الكونية والإنسانية ألف سائق إلى الله الحق ..

وكل تقدم علمي هو دعم لرسالتنا مهما كانت البيئة التي ظهر فيها ، قال تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »^(٤) .

تجديد الإسلام : كيف ؟

وإن كنا يخامرنا الأسى لحال المسلمين في القرون الأخيرة ، ولستواهم العلمي الهابط ، ولغيابهم عن الجامعات العلمية الناشطة ، وقد كان من أثر هذا الغياب أن أُلّف بعض الأوربيين رسالة عن أثر « ألف ليلة وليلة في التشريع الإسلامي » . والتعظيم على حقائق الإسلام تبذل فيه جهود هائلة ، ويشارك فيها شياطين

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) الأنبياء : ٢٤ .

(٣) الأعراف : ١٨٥ .

(٤) فصلت : ٥٣ .

الشرق والغرب ، حتى ليكاد الدين الصحيح يستخفى من دنيا الناس ، فماذا نعمل للنهوض بأعباء المنصب الكبير الذى اصطفانا القدر له بعد ما أورثنا القرآن الكريم ، وكلفنا أن نتعلمه ونعلمه للآخرين ؟

قبل الإجابة المفصلة عن هذا السؤال أود أن أقرر أموراً ذات بال !
أولها : أن دار الإسلام لم تنصف الوحي الذى شرفت به ، ولم تحسن القيام عليه !

ثانيها : أن العالم - بعيداً عن ديار الوحي وفي غياب تعاليمه - لم يقف مكتوف الأيدي ، بل خط لنفسه مناهج من عنده ، اختلط فيها الصالح والطالح ..
ثالثها : أنه منذ سقوط بيزنطة ، وافتتاح المسلمين للقسطنطينية ، اكتشف الأوروبيون أمريكا ، واستولوا على الأندلس ، وبدأ عصر الإحياء ، ووقعت طفرة علمية لم تعرف الدنيا شيئاً لها منذ بدء الخليقة ، كما استقرت نظم اجتماعية وسياسية كثر الحديث فيها عن حقوق الإنسان وكرامات الشعوب !

وأخيراً كان الوجود الإسلامى خلال هذا التحول العالمى يتقلص ويتراجع حتى أمسى أطلالاً بالية مع مرور القرن الرابع عشر للهجرة ! !

وقد اضطرت - وأنا أتحدث إلى الأخلاق الحيارى - أن أضع عشرة تعاليم جديدة تنضاف إلى التعاليم العشرين التى وضعها الإمام حسن البنا ، لترميم العالم الإسلامى وإصلاح فهمه وعمله به ، والواقع أن الجهاد العلمى فى معركة البناء فريضة لازمة ، وإذا لم نتصر فيه فسيكون عقابنا شديداً ..

إن تجديد الإسلام ليس نشاطاً فى ميدان واحد بل فى ميادين شتى ، وليس صموداً أمام عدو واحد ، بل أعداء كثيرين ، لعل أشدهم بأساً يكمن فى داخل بلادنا !

ولا بأس أن أعيد هنا المبادئ العشرة التى اقترحتها^(١) ترشيداً لمسيرة الإصلاح عندنا .. !

(١) دستور الوحدة الثقافية : ٢٢٠ - ٢٢١ .

- ١ - النساء شقائق الرجال وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وللنساء - في حدود الآداب الإسلامية - حق المشاركة في بناء المجتمع وحمايته .
- ٢ - الأسرة أساس الكيان الخلقى والاجتماعى للأمة ، والمحضن الطبيعى للأجيال الناشئة ، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجو الصالح بينهما ، والرجل هو رب الأسرة ، ومسئوليته محدودة بما شرع الله لأفرادها جميعا .
- ٣ - للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له ، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض ، وقد شرح الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها .
- ٤ - الحكام - ملوكا كانوا أم رؤساء - أجراء لدى شعوبهم ، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية ، ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة ومن رضا السواد الأعظم بها ، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرها ، أو يسوس أمورها استبدادا ...
- ٥ - الشورى أساس الحكم ، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها وأشرف الأساليب ماتمخض لله ، وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغش وحب الدنيا .
- ٦ - الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التى قررها الإسلام ، والأمة جسد واحد ، لا يهمل منها عضو ، ولا تزدري فيها طائفة ، والأخوة العامة هى القانون الذى ينتظم الجماعة كلها فردا فردا ، وتخضع له شئونها المادية والأدبية .
- ٧ - أسرة الدول الإسلامية مسئولة عن الدعوة الإسلامية ، وذود المفترقات عنها ، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا ، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء الخلافة فى الشكل اللائق بمكانتها الدينية .
- ٨ - اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداد ، وإنما تنشب الحروب إذا وقع عدوان أو حدثت فتنة أو ظلمت فئات من الناس .
- ٩ - علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها موافق الأخاء الإنسانى المجرد ، والمسلمون دعاة لدينهم بالحجة والإقناع فحسب : ولا يضمرون شرا لعباد الله .

١٠ - يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى - على اختلاف دينها ومذاهبها - في كل ما يرقى ماديا ومعنويا بالجنس البشرى ، وذلك من منطلق الفطرة الإسلامية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء ، محمد عليه الصلاة والسلام .
 تلك هى المبادئ العشرة التى أقترح إضافتها ، والتي أتقدم بها مع التعاليم العشرين لمحدد القرن الرابع عشر الإمام الشهيد حسن البنا ، رضى الله عنه .
 ولن شاء أن يقبل أو يرفض ..
 وآخر مائدعو به : « واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »^(١) .

خطورة الجهل بالآخرين

من الأخطاء التاريخية التى أساءت إلينا طويلا جهلنا بغيرنا ، وقصورنا عن إدراك أحوالهم العامة ، وقد يكون هذا الغير خصما ضاعنا أو عدوا مزعجا ..
 وأكثر الغارات التى قوضت بنياننا الحضارى كانت تشبه الزلازل المباغطة لا يعرف لها وقت أو تتخذ لها أهبة !!
 وقد سقطت لنا عواصم ، وضاعت من دار الإسلام أقطار ، والمسلمون فى غفلات أول الليل التى يقول فيها الشاعر :
 يانائىم الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
 كذلك طاحت الأندلس ، وكذلك تطيح لنا اليوم أرضون فى آسيا وإفريقية وأوروبا ..

كانت دراستنا للآخرين صفرا ، مع أن الآخرين كانت تغلى مراجلهم ولا يفتشون يفكرون فى النيل منا والإتيان على ديننا من القواعد !
 أكننا نتدبر الآية الكريمة : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا .. »^(٢) ٢ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٧ .

(١) سورة البقرة : ٢٨٦ .

وإذ كنا نسينا هذا النذير الإلهي ، فيكف ننسى أحداث تاريخ طويل ، ترادفت مآسية علينا ، ولا تزال تنذر بالويل والثبور ؟
إننا جزء من عالم مؤار بالحركة ، وقد تحولت خطاه إلى وثبات فسيحة في هذا العصر ، وأعداؤنا يصارحون بكرهيتهم العميقة للإسلام ، وتخطيطهم للإتيان عليه .

فحتى متى نجعل ماحولنا ؟ يجب أن نندم على هذا الخطأ ونتحرز بعد من الوقوع فيه ...
- وأرى أن يتكون جهاز ذو نشاط مزدوج ، كلاهما يضارع الآخر في القدرة واليقظة ..

- النشاط الأول يقوم على الأسس الآتية :
(أ) سبر الارتقاء الثقافي والإحاطة بالآماد التي بلغها غيرنا حتى نعرف من نخاطب ؟ وماذا نقول ؟
(ب) إدراك المستوى العمراني والصناعي والحضاري الذي يسود العالم من حولنا ، فإن من الهزل أن تعرض الإسلام أمم متخلفة ، ينظر إليها غيرها شزرا ، ولا تستطيع أن تساند حقها بدعائم مادية أو علمية .
(جـ) دراسة التيارات السياسية والقوى العسكرية التي حظى بها غير المسلمين ، وتقدير مانقدمه للأديان والمذاهب الأخرى من دعم ، ووضع ذلك تحت أنظار المسئولين .

- أما النشاط الثاني فهو داخلي يتحرك في دار الإسلام ويقوم بما يأتي :
(أ) محاربة الغش الثقافي والانحراف الفكري اللذين أبعدا الأمة الإسلامية عن كتاب ربها وسنة نبيها ، وجعلها صورة مشوهة للدين الحق ، وأعجزها عن نصرته ..

(ب) إعادة بناء الأمة الإسلامية على أساس أن الوحي حياة ، وأن دراسة الكون أهم ينابيع الإيمان ، وأن حسن استغلاله سلاح اقتصادي وعسكري خطير ..

(ج) كرر القرآن في أربعة مواضع السَّمَات الأولى لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى تلاوة آيات الله على أنها منهاج العمل ، وتربية الأمة على الأخلاق المتينة والتقاليد الظاهرة - وهذه هى التركيبة التى لانكاد نعى منها شيئا طائلا - وتعلّم الكتاب والحكمة .
ونحن للأسف بعيدون عن الحكمة فى أغلب شئوننا ، ولانرتبط بمعانى الكتاب وأهدافه ..

ولكى يكون انتمائنا للإسلام واقعا ملموسا لابد من إبراز هذه السَّمَات الثلاث ماديا ومعنويا ..

(د) غرلة التراث الإسلامى الذى آل إلينا فى هذا العصر لاستبقاء ما يوافق الكتاب والسنة واستبعاد ما عداه ، ونحن أصحاب وحى معصوم ، وفى تاريخنا العلمى قمم وأئمة ، قد تختلف أفهامهم فى الفروع الثانوية ولكنهم قلما يختلفون فى الأصول والغايات ..

ومن الممكن جمع شتات العالم الإسلامى مع صدق النية وسعة الأفق .
ذلك ، والجهاز الذى أقترحه ينبغى أن يعمل بعيدا عن الأضواء مكتفيا بنظر الله إليه ، كما ينبغى أن يكون مساعدا لجميع الأجهزة الإسلامية القائمة ، مثل مجمع البحوث فى مصر ورابطة العالم الإسلامى فى السعودية ..
إنه جهاز راصد كشاف ، يرقب العالم الإسلامى والعالم كله .. وشغله الشاغل حراسة الرسالة الخاتمة وعلاج ما يساورها من عطب ، أو يهددها من كيد ، ثم لفت الأجهزة الإسلامية الكثيرة كى تؤدى واجبها ..

للشيطان جهود قديمة فى صرف الناس عن الحقيقة ، قد تظهر فى إبعادهم عنها أو تجريئهم عليها ، وذلك بالعصيان السافر أو الخافت ، أو بمنهج آخر أسوأ هو تشويه الحقيقة نفسها والأخذ من أطرافها أو من صميمها ..

إن البدعة قد تكون أقبح من المعصية !!

والدين منذ آدم ونوح ومن بعدهما تعرّض للنوعين معا ، فالأصنام التى حاربها نوح شماليّ الجزيرة العربية - فى أعلى العراق - عادت إلى الجزيرة نفسها ، فكان

من العرب من يتسَمَّى : عبد « وَدَّ » وعبد « يغوث » ..
 وقد بنى إبراهيم الكعبة حصناً للتوحيد ، ومثابة للركع السجود ، وسرعان
 ماحوّلها العرب إلى موئل للأصنام تقصد من دون الله ، أو معه !!
 وموسى الذى استنقذ قومه من حكم الفراعنة تحوّل قومه إلى فراعنة ، وتحوّل
 التوحيد فى ديانتهم إلى تجسيد وخرافة ، كما تحوّل فى ديانة عيسى إلى تثليث
 وقرايين ، واختفت معالم الوحي النازل على إبراهيم وموسى وعيسى ، فلا يعرف لها
 وجود ...

وفى الصحف المنسوبة إلى أولئك النبيّين خلط هائل وشروء بعيد ...
 ومع أن رسالة محمد نجت من هذا البلاء الماحق ، ومع أن أصولها بقيت نقية
 محفوظة ، إلا أن الشيطان لم ييأس من إلحاق قذى بها يظهر فى تفسيرات بعض
 القاصرين ، وتطبيقات بعض ذوى الأهواء ..
 وقد رأيت من يستमित فى تقرير أن الإسلام توسع بالسيف ، وأكره شعوبا
 على الدخول فيه بالقوة !

وفى سبيل ذلك يلغى أو ينسخ أكثر من عشرين ومائة آية أولها قوله تعالى :
 « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » ..^(١) .

ورأيت من يجادل بغضب فى إقامة الحكم على الشورى ، ويرى أن الشورى
 نافلة يرجع إليها الحاكم إذا شاء ، وأن الإسلام لا يكثر لأجهزتها ولا لضماعاتها .
 وينظر إلينا ونحن نتحدث فى ذلك على أننا مسحورون بالأنظمة الغربية نريد نقلها
 إلى أرض الإسلام ..

وغنى عن البيان أن هؤلاء أعوان الفرعونية الحاكمة ، أو م مهدو الطريق
 أمامها ...

وهناك نفر من الناس يتهمك بمحاربة السنة إذا قلت : إن للفلك حسابا محكما
 يمكن أن نعرف به مولد الهلال ومغيبه ، وهو ينظر إلى قصة رواد القمر على أنها
 من الإسرائيليات الملفقة ...

(١) البقرة : ٢٥٦ .

وفي هذا العصر الذى شهد أزمة للإيمان ، وانفصالا بين العلم والدين ،
والذى يتحرك فيه العلماء الراسخون بثبات لتعريف الناس بالله الأحد الفرد
الصمد ، بديع السماوات والأرض ، ذى الجلال والإكرام ، يجيئك شخص
شاحب الفكر يقول لك : أفهمهم أن الله خلق آدم على صورته طوله ستون
ذراعا !!

وقد يزيد على ذلك : وقل لهم إن له ساقا ورجلا ..!
إن العقيدة - فى المنطق الإسلامى - لا تثبت إلا من نص^(١) قطعى الدلالة
والثبوت ، وهذه المرويات الأحادية يقبلها من يقبلها ، ويأبأها من يأبأها ،
ويؤولها من يؤولها ، فما معنى استحيائها فى هذا العصر وشغل الأذهان بها ؟
أهى فتنة للناس !!؟

من أجل ذلك نريد أن ننظر فى ثقافتنا الإسلامية المعاصرة لنعيدها إلى
قواعدها الأولى .

وكتابتنا معصوم جملة وتفصيلا ، والسنة فى جملتها ثابتة ، ضبطها الفقهاء
والعلماء الثقات بما ينقى عنها الأوهام ، ويجعلها ضميمة إلى القرآن الكريم ، لاتنك
عنه .. ولا تبعد عن هداه ..
ولاريب أن للسنن المتواترة حكم القرآن نفسه ..

(١) ما نقره هنا هو مذهب جماعة المسلمين ولا اعتبار للشواذ .

الفصل الثالث

أغلفة تغطي الحقيقة العظمى

يطيب لى أحياناً أن أقيس نفسى بسكان الأرض من البشر كما تقيس القطرة نفسها أحياناً بأمواج اليمِّ ! أقول : ما أنا ؟
واحد من خمسة مليارات يطعمها قيم السموات والأرض ! تنتشر بين المدائن والقرى ! ما أقل شأنى !
لكن القضية ليست قضية طعام ميسور أو مُجهَد ، يحيا به هذا الجسد ، إن لكل واحد منا عينيْن وأذنين يطلّ بهما على الوجود من حوله ، والإبصار وظيفة معقدة تنقل صور الأشياء إلى المخ ليميز بعضها عن بعض ثم يتصرف .
وكذلك الآذان فى أصداع الناس كلهم ، وقد تكون وظائفها أعقد وأصعب ..

على - كى أستبين الحق أن أجيب على خمسة أسئلة فى هذه الآية : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ؟ ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبّر الأمر .. ؟ » ^(١) .
إن عشرين ملياراً من الآذان والعيون تقوم بوظائفها فى هذه اللحظة تحت إشراف بالغ الدقة .

وهناك أضعاف هذا العدد من الخلايا التى تولد والخلايا التى تفنى ، فى كل كيان حىّ تظل فيه الحرارة ، وتتجدد فيه الأنسجة إلى أن يأذن الله بقبضه إليه ،

(١) سورة يونس : ٣١ .

فتخلو منه الدنيا بعد أن جاءها كما كانت خالية منه قبل أن يجيئها ! .
 من المشرف على هذه المواكب المتصلة ؟ من يدبر أمرها كله ؟ إننى فى دنيا
 الناس الآن - عندما أقيس نفسى بسكان الأرض - أهون من ذبابة فكيف إذا
 قست نفسى بجموع المستقدمين والمستأخرين من أزل الدنيا إلى أبدها ؟ كم أساوى
 والحالة هذه ؟

لقد تضاعلت كثيرًا وهذا الخاطر يمرّ بى ، وزاح عنى غرورى ، وعرفت أن
 المحصورين فى أنفسهم يعيشون فى وهم كبير أو فى ظلمة دامسة ! .
 ثم طفر بى الفكر طفرة أخرى : ما يكون وزن الناس كلهم بعد ما أسمع هذا
 النبأ عن أبعاد الكون الذى نرمق ملكوته بقصور شديد ؟ يقول الله تعالى : « لخلق
 السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) .
 إن الأرض إذا قيست بأمرها الشمس هباءة طائفة ، والشمس إذا قيست
 بالمجرات الأخرى هباءة شاحبة ، والشموس والمجرات إذا قيست بملكوت الله
 حلقة فى فلاة ..

وليس يبق فى العالم الرحب شىء له قيمة تذكر إلا عقل ساجد لله جاثٍ أمام
 عظمتة يقول : « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » .
 إن الألسنة اللاهثة تنقطع وهى فى سباق مع ذرات الوجود قبل أن تحصي ما
 ينبغى لله من مجد ، وما يستحقه من حمد ! .
 ولأقرر أن محمدًا عليه الصلاة والسلام هو الذى ورث علوم الأنبياء ، وقدم
 لنا فى كتابه ؛ الحق المصطفى .
 إنه الإنسان الأول الذى أحسن تنزيه الله ، وتوحيده ، ومدحه والثناء عليه
 بما هو أهله .
 والحضارة التى أقامها على ظهر الأرض ؛ أساسها الربانية الخالصة ، وشعارها
 الفذ : الله أكبر .

(١) سورة غافر : ٥٧

وجهاها الزاكي الباقي هو لحراسة الحقيقة الواحدة ، وإخماد المناوشات التي تعادياها ...

وقد لاحظت وأنا وزملائي ندرس العلوم الحديثة ؛ كأن هناك مؤامرة طويلة الذبول لتجهل الناس بالله ، وصرفهم عنه ، وتعليقهم بأوهام ما أنزل الله بها من سلطان .

اسمع هذه الكلمة إن الطبيعة زودت الأرحام بوسائد ينقلب فوقها الجنين فلا تضطرب له أجهزة ، ولا تشوه له ملامح مهما كانت الاهتزازات التي تتعرض لها الأم !!

ما الطبيعة التي قامت بهذه المهمة الصعبة ؟ ذكر هي أم أنثى ؟ جن هي أم ملك ؟

كيف قامت بمهمتها هذه في أرجاء القارات الخمس ؟ ظاهر أن الكاتبين يعتمدون إسدال حجب خادعة على عمل القدرة العليا ، ظاهر أن المراد إهالة التراب على اسم الله ! أهذه معرفة إنسانية أم جهالة إنسانية ؟ إن البيئة التي نشأ فيها العلم المادى كانت أبعد ما تكون عن احترام الدين لأن الدين الذى عرفته كان أبعد ما يكون عن احترام العقل ، بيد أن الحقيقة لا يجوز أن تضيق في هذه المتاهات الغريبة !

واسمع هذا الكلام في تفسير بدء الخلق : منذ ٥٠ مليون سنة وقع انفجار عظيم في الكون ، انطلقت منه سحب هائلة من الغازات والذرات أخذت تدور هنا وهناك !! ثم تجمعت على مَرَّ السنين ، فإذا هي تلك النجوم والشموس والعوالم العليا والدنيا التي تشرق وتغرب في أرجاء السماوات !! انفجار نشأت عن أنقاضه المتناثرة هذه الكواكب الدوارة بحساب دقيق ، «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار»^(١) .

ونشأت عن مصادفته العمياء أو العوراء أرضنا التي قال موسى في وصفها

(١) سورة يس : ٤٠ .

لفرعون ، أو في عمل الله بها كما عبر القرآن الكريم : «الذى جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى .. كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولى النهى»^(١) .
أى انفجار هنا ؟ من صاحبه ؟ كيف تمخض تلقائياً عن هذه الأفلاك التى لا يعوج لها مدار ، والتى لا يتخلف لها ميعاد فى شروق أو غروب ؟؟
هذا هذر باسم العلم ! هذا تجهيل متعمد للمخلوق الحق بديع السموات والأرض ..

والذى يراه أولو الأبواب أن العلم الحديث ؛ يجب أن يبرأ من هذا التجهيل الكنود ، وأن يترك «س» هذه التى ينطلق منها فى علوم الكيمياء والفيزياء والأحياء ، وأن يتحدث بأدب وخشوع عن الخالق الكبير ..
وهذا التصحيح هو عمل المسلمين الأول ، وهو ألف باء الرسالة الإسلامية .
والواقع أن علم التوحيد أو علم الكلام هو الذى ينهض بهذا العبء عندما ينسجم مع قواعده القرآنية ، ويتخلص من أدران الفكر الإغريقى القديم ، ويتخلص فى الوقت نفسه من العوام الذين يقفون عند الظواهر القرآنية ، ويتحدثون عن الله حديثاً يشبه حديث الخرافيين من أهل الكتاب الأولين ويكادون يحسدونه لفرط سداجتهم ..

* * *

الدين والمعرفة

المظنون أن البلاد التى سعدت بالوحي أدنى إلى الرشد ، وأحق بالاستقرار من البلاد التى حرمت منه ، فقد تمهد لها الطريق ، وانزاحت العقبات ، ولعلها تجد فى مسيرتها ما يعرفها بالوجهة ويؤمنها من الأخطار ..
لكن ملاحظة الماضى والحاضر تخلف هذا الظن ، وتلقى فى أنفسنا أن جماهير

(١) سورة طه : ٥٣ - ٥٤ .

غفيرة تحرم من بركات الدين لسببين : إما زيف في القلب أو أفن في الرأى ! وقد يلتقى السببان فى بعض الأفراد أو فى بعض الطوائف ..! .
والذى يتدبر القرآن الكريم يشعر بأنه أكثر الحديث عن أهل الكتاب السابقين كى يجتّب أصحاب الرسالة الخاتمة قسوة القلب ، وضعف الفكر ، ويربطهم بالفكرة السليمة والعقل الواعى ! .

وليتنا أبصرنا على أشعة الوحي الخاتم هذه الحقائق ! فإن الإيمان يضيع أثره مع كل خلل يصيب العقل ، ومع كل هوى يخالط القلب ، أو بتعبير أصرح لن يكون للدين موضع يحتله ويعمل منه إذا اختفى الإنسان السوى ، وتعطلت مشاعره ، وتعطل أسمى ما فيه وهو تفكيره وضميره ! وقد أعجبنى كتاب الأستاذ عبد المنعم خلاف : «أومن بالإنسان» لهذا الملاحظ !! .

عندما يكون الدين مراسم لفكر سطحي فإنه يتحول إلى أشكال وترانيم ، وعندما يكون ذكاء مع شح مطاع وهوى متبع فإنه يتحول إلى مصيدة للمغانم والمآرب ..

وأخطأ سقراط عندما قال : الفضيلة المعرفة ! ما قيمة المعرفة عند الذين تقودهم شهواتهم ؟ «أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون» ؟

لابد - مع المعرفة الواسعة - من ضميمة أخرى ، هى النية الشريفة ، وإخلاص القلب لله ..! وقد أفاض علماؤنا الأولون فى أن النجاة تعتمد على الفقه - وهو المعرفة الصحيحة للحكم - وعلى التجرد - وهو البراءة من المآرب الشخصية والتمحّص لله سبحانه - ويظهر أن الجمع بين الأمرين يحتاج إلى جهود مضنية ..

هل كان الخوارج مخلصين ؟ يرى الكثيرون أنهم أتوا من بلادة الفقه وقصر النظر مع حسن نيتهم !! .

ورأى أن رفضهم السماع من أولى الألباب وأهل الذكر هو لون من العناد

يقدح في إخلاصهم للحق ! ويخرجهم من دائرة الاجتهاد المحترم ! .
 الفضيلة هي المعرفة حقاً عندما تكون المعرفة باعثة على إرضاء الله وفعل
 الخير ، ونصرة الحق ، ومحق الباطل ، وتحسين الحسن ، وتقبيح القبيح ، وما
 أحوج العالم الإسلامي إلى عارفين من هذا النوع الشريف ..
 إن البيئات المتدنية في أرجاء شتى من العالم الإسلامي تشتم بالقصور
 والجمود ، وتشدها إلى التراب طبائع معتلة ، والجو الذي تحيا فيه يخالف مخالفة
 تامة جو القرآن الكريم المليء بالصحو والضوء والتألق والانطلاق ..
 لقد شرح لنا الوحي الخاتم علاقتنا بربنا ، وعلاقتنا بالناس ، فعرفنا أن الله
 واحد ، وأن ما عداه خلقٌ يعنوله ، ويهلك إن فقد إيجاده وإمداده ، وأننا
 عائدون إليه البتة ؛ بعد انقضاء آجالنا هنا ، وأننا محاسبون على الطريقة التي
 قضينا بها أيامنا على ظهر الأرض ..
 شرح القرآن ذلك بوضوح لم يعهد في فلسفة سابقة ، ولا في دين
 مضى ... !.

فالآله كما صوره أرسطو يحيا في غيبوبة خاصة لا يدري ما يفعله غيره ، ولا
 يعنيه ، وهو بتعبير «ويل ديورانت» يملك ولا يحكم مثل ملكة إنجلترا .. ! ولعل
 العالم صدر عنه بطريق التفاعلات الكيماوية ! إنها ألوهية سخيفة ! .
 أما الآله الثلاث فشأنه لا يقل عجباً ، إن إدخال جبل في قارورة أيسر من
 إدخال فكرة التثليث والتوحيد في دماغ بشر ، وكذلك فكرة الخطيئة والفداء ...
 من أجل ذلك انفصل العلم عن الدين ، واتخذ لكل منهما وجهة خاصة به ،
 على نحو ما قيل :

سارت مشرقةً وسرت مغرباً شتان بين مُشرق ومُغرب
 أما الوحي الخاتم - وما نحسب في الدنيا الآن وحياً غيره - فهو يقود البشر من
 بصائرهم إلى كون يدل على الله ، أو إلى إله تنجلي عظمته في ملكوته ، وتنضح
 الآفاق بوحدانيته وامتداد سلطانه !! «الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ،
 والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله

ربكم ، فتبارك الله رب العالمين ، هو الحى لا إله إلا هو ، فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين»^(١) .

ومن عجائب الدنيا أن أمة لديها هذا الوحي لا تحسن صحبته ، ولا تستضىء بسناه ، ولا تتعرف منه على حقوق الله وحقوق الناس !! بل ينظر الناظرون إليها فيجدونها متخلفة عن الركب الإنسانى السائر ، يحود عليها هذا بآلة ، وذاك برغيف ، أو يمتنُّ هذا عليها بدواء تعالج به عللها ، أو سلاح تردُّ به العادين عليها .. أما إنتاجها لنفسها ودينها فصفر ! .

إن الهزائم النفسية والعلمية أنكى فى نظرى من الهزائم السياسية والعسكرية ، ويغلب أن تكون هذه نتيجة لتلك ..

وقد رمقت الصنم الذى هوى فى أوروبا الشرقية ، وكيف تدافعت الشعوب إلى الخروج من سجن الشيوعية ، وكيف تعالت صيحاتها وهى تطارد حكام الأمس الدابر ، وتستترل عليهم اللعنات !! .

وكنت أحسب الشيوعيين العرب سوف يتوارون خجلاً بعدما انكشفت عوراتهم هناك ! لكن الذى حدث أنهم تماسكوا ونظموا فى الجزائر مظاهرة نسوية لإلغاء قوانين الأسرة الإسلامية !! .

قال لى صديق : لماذا أراك دهشاً ؟ إن هذا ما صنعه الإسلاميون بأنفسهم ! أتريد صورة للإسلام الذى يقدمونه ؟ تخيل معرض سيارات فاخرة أحسن الصنائع جوهرها ومظهرها ، وتطلعت العيون معجبة إلى روائها ، فإذا عارض كثير الصباح يقدم بدلها ، وفى زحامها دابة نشيطة أو كسولاً ، عارية أو مسرحية ، ماذا يفعل النظارة بها ؟ إنهم يسخرون منه ومنها ، ويتركونه ودابته ! هكذا قدّم الإسلاميون الإسلام !! .

إن هؤلاء الدعاة يصلحون للعمل فى أسواق الماشية ، ولا يجوز أبداً أن يتحدثوا عن إسلام لم يفهموه ، ولم يرتفعوا إلى مستواه ...

(١) سورة غافر : ٦٤ .

أثر الدعاة على الدعوة

ما الذى دعا الشيوعيات إلى التصايح ضد قانون الأسرة فى الجزائر والمطالبة
بإلغائه ؟

الذى دعا إلى ذلك خطباء ودعاة إسلاميون ، تحدثوا عن موقف الإسلام من
المرأة حديثاً استفز أولى الألباب ، وبعث فى النفوس الوجل من مستقبل يستولى
فيه أولئك الإسلاميون على الحكم !.

يقول أحدهم : الإسلام يرى أن المرأة إنما خلقت لتلد الرجال !! ويقول
ثاني : مقار النساء البيوت ، ما يخرجن منها إلا إلى الزوج أو إلى القبر ! ويقول
ثالث : يجب أن تظل الفتاة أمية لا تكتب ولا تحسب ! ويرفق رابع بها فيقول :
حسبها إتمام المرحلة الابتدائية فى التعليم ، وما وراء ذلك لا داعى إليه .. ! .
وبلغنى أن طالبة ساذجة فى أحد المعاهد قالت لأُمها : أما يوجد دين آخر
أرفق بنا من هذا الإسلام ؟؟

لقد شعرت أننى أظعن فى فؤادى عندما سمعت مقال هذه الطالبة !! .
إن الدين الذى كرم الإنسان ذكراً كان أو أنثى أمسى على السنة بعض الفئتين
الجهال هواناً بنصف الإنسانية وتحقيراً لها .. !! .

لقد مكثنا بضع سنين فى الجزائر تؤكد صدق العلامة ابن باديس عندما أيقظ
الإسلام فى صدور الرجال والنساء جميعاً ، مؤكداً أن الأمة لا تستطيع التحليق
إلا بجناحيها ، من الرجال والنساء ، وواقفاً عند قول الرسول الكريم «النساء
شقائى الرجال» وقول الله سبحانه : «لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو
أنثى ، بعضكم من بعض» ...

إن غلماناً سفهاء يحملون علماً مغشوشاً أو جهلاً مركباً هجموا على الصحوة
الإسلامية ، وكادوا يقفون مسيرتها بما ينشرون من ضلالات ، ويشيعون عن
الإسلام من إفك ..

استغل الشيوعيون هوسهم الدينى فقادوا مظاهرة إلى المجلس التشريعى منادين
باحترام حقوق الإنسان وحفظ كرامة المرأة ..

ونحن المسلمين أعرف الناس بذلك كله ، ولكن سفهاءنا غلبونا على الرأى ،
وليس أغىظ لنفسى من الدعاة الجهلة عندما ينقرون الناس من الإسلام بسوء
تصوّرهم وتصويرهم له ...

ولعل هذا ما دفع توفيق الحكيم إلى الخطأ عندما سئل : هل يمكن لدولة
عصرية الاعتماد على الإسلام نظاماً للحكم ؟ لقد أجاب إجابة عشوائية تحتاج إلى
تصحيح ! قال : ممكن .. ولكن لابد من تفسيرات جديدة للإسلام تتفق
والمفاهيم العصرية ، فمن المؤسف تبثى البعض تفسيرات القرون الوسطى للنصوص
الدينية .

فى هذا الكلام تخليط ظاهر ، فالمطلوب هو تفسير الإسلام التفسير
الصحيح ..

وعندما تعرف حقائق الإسلام فإنها ستكون الدواء الناجع والتقوم الصحيح
للأعصار كلها قديمها وحديثها ...

والدولة الإسلامية التى ظهرت فى القرون الوسطى ، قدمت للناس مفاهيم
دقيقة صلحت بها أوضاعهم ، ولا تزال صلاحيتها للتطبيق قائمة ، المهم أن ندود
عنها ذوى العقول المختلة ..

أيام دولة النبوة كان رباط المرأة بالعلم والعبادة وثيقاً ، وكذلك أيام دولة
الخلافة الراشدة .. فإذا نبت فى عصرنا من ينكر ذلك لم يحتج الإسلام إلى تفسير
عصرى ، بل إلى تفسير سلفى ، على ألا يقوم بهذا التفسير مغفل جريء ..
تدبر - أيها القارئ الكريم - ما نقوله لك ، وتدبر معه قول الدكتور «لويس
عوض» عندما سئل : هل يحافظ الإسلام - حتى يومنا هذا - على شمول
دعوته ؟

قال : كلا .. وإذا كان الإسلام قد استطاع التغلب على «بيزنطة» قديماً ،
فلأنه كان ديناً «علمانياً» (!) أكثر من المسيحية فى القرن السابع ، وكان معنياً
بالأمور الحيوية عنايته بالنواحي الروحية ، على حين كان البيزنطيون لا يهتمون إلا
بشئون الآخرة ،

ثم قال : ويبدو أن ما تحلم به الجماعات الإسلامية المعاصرة هو إسلام بيزنطى^(١) !! .

نقول : « وهذا الكلام على ما فيه من تشويش ؛ صائب فى جوانب عديدة ... إن أشرف ما تزئى به العلمانية دعواها هو تطلُّعها إلى إنسانية سليمة تنمو مواهبها فى جو ضاحٍ من الحريات المصونة ، تحرسها عدالة اجتماعية وسياسية ممتدة ، وينعم فيها الرجال والنساء ، والصغار والكبار بحقوق لا يعكرها اقتيات طبق أو عرقى ، ويفتتح الناس فيها على الحياة ، فيستغلون قوى الكون باقتدار مادى وعلمى لا حدود له ... ! .

إن حضارتنا الأولى كفلت هذا كله وضمت إليه أمراً آخر لا تعرفه الحضارة المعاصرة ، هو الإيمان بالله ، والتزام هداه ، والإعداد للقاءه ، والشعور بأن هذه الحياة الدنيا جسر إلى ما بعدها من خلود ! .

ذاك تاريخ سلفنا العظيم ، بيد أن الخلف التى ورثت هذه الحضارة أشبهت أجيال اليهود والنصارى بعد ما قست قلوبهم وخمد فكرهم .. ولا يكون الإنسان سلفياً بعمامة على رأس متحجر ، وفكر طفولى ، ولا تكون المرأة سلفية بنقاب يشوّه ملامح الإنسانية ويطمسها ، قبل أن يستر ملامح الوجه وسيماً كان أو دميماً ..

والمفاهيم العصرية التى يتمناها توفيق الحكيم هى هى حقائق الإسلام الذى جاء به الوحي قبل أن يتجرأ عليه أذعياء السلفية ، ويقدموه للناس شراباً مُراً ، يورث المرض والتخلُّف والهزائم ..

والواقع أن أعداء الإسلام - كما رأيت - يفتحون الأبواب للسلفية الحديثة ، حتى إذا أدرك الناس فحواها ثارت على الإسلام ثائرتهم ، وقرروا الابتعاد عنه ، وفضلوا عليه كل نحلة أخرى ..

لقد علمت بعد دراسة طويلة أن الملك عبد العزيز كان على حق عندما أدب

(١) لويس عوض ناظم على الإسلام ودعوته وقد رحب بالخيانة الوطنية التى ارتكبتها يعقوب حنا عند غزو فرنسا لمصر ، وهو بداهة يستغل أخطاءنا .

الغلاة من الإخوان^(١) الذين تمردوا عليه ، ورأوا إعلان الحرب على سياسته الخارجية دون وعى ولا قوة !.

كان الملك - وهو قائد سياسى وعسكرى - أبصر بحقائق الدين من محترفى الفقه ، وكان يمكن القضاء على الدولة كلها لو نجح هؤلاء الغلاة فى فرض أنفسهم ..

الواقفون أمام الفكر الصحيح

إننا فى هذه الأيام كى نتصر على الإلحاد ، وعلى الأعداء المتربصين بالكتاب والسنة ، يجب أن نقلّم أظافر هؤلاء الواقفين أمام الفقه الصحيح ، والعمل الجاد المشمر ... إنهم عند البصر الدقيق حرب على الإسلام ..

عندما أسقط المرتدون الخلافة الإسلامية فى تركيا ؛ أقاموا نظامًا «علمانيا» ظاهره الانفلات من الأديان كلها ، وباطنه مخاصمة الإسلام وحده ، ومتابعة أوروبا فى مظاهر حضارتها المنتصرة ..

وكان النظام الجديد عسكريًا صارمًا . بدأ عهده بقتل عدد كبير من رجال الدين الذين قاوموه ، والحق أن الشعب كله كان كارهاً له ، مؤثراً الإسلام فى شئون حياته كلها . بيد أنه فشل فى مقاومة الارتداد المسلح ، فاستكان على مضض ، وإلى حين ، منتهزاً كل فرصة لإظهار ولائه الإسلامى وحنينه إلى أن يعود الإسلام المستبعد ..

وبديه أن تكون شئون الأسرة والعلاقات بين الجنسين هى فى مقدمة ميادين الصراع بين العلمانية والإسلام .. كان الحكام حراساً على نقل الاختلاط الأوروبى الماجن إلى الشرق الإسلامى كله ، وإذا كانوا قد تركوا القرآن خلف ظهورهم ، فما الذى كان يرجى منهم ؟ «من يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر» .

(١) هؤلاء غير الإخوان المسلمين الذين بدأت دعوتهم لمصر ، ثم انتشرت فى العالم الإسلامى .

وقاومت طالبات الجامعة والمعاهد هذا الزحف المنحل ، وأصررن على ارتداء الحجاب الإسلامى ! إنه سمة الفضيلة والتحفظ ! تبقى المرأة ظاهرة الملامح ، ويبقى جسمها مصوناً عن الأعين المتلصصة !..

يبد أن هذا الاحتشام أحفظ الملاحدة ، فاستصدر قائد الجيش (!) قراراً من المحكمة العليا بأن هذا الاتجاه الإسلامى يخالف الثورة الكمالية العلمانية ! ومن ثم يجب منعه !.

وقد لاحظنا أن المحكمة الدستورية العليا فى فرنسا أقرت الحجاب الإسلامى ولم ترفيه تناقضاً مع النظام العام السائد ، وهو حكم معقول ، لكن التابع الأحمق قد يكون ملكياً أكثر من الملك ! أفكان النظام التركى قادراً على منع الراهبات المسيحيات من ارتداء ملابسهن ؟ وهى أقرب ما تكون إلى الحجاب الإسلامى ؟ إنه استأسد على الغافلات المحصنات ؛ من طالبات الجامعات وحدهن !.. وليس فيما قلته جديد يستحق التكرار ، الذى يستحق التكرار والإنكار أن بعض المنقبات كن يشتمن الطالبات المحجبات ويقدحن فى أعراضهن ويزدن الطين بلة !!.

وعندما كنت أدرس فى جامعة الجزائر الإسلامية ، كان الطلاب عن يمينى فى المدرج والطالبات عن يسارى ، ولاحظت أن الوجوم يخيم على البنات بعد أيام قلائل كن يسألننى فيها على استحياء !!.

وعلمت أن الطلاب الذكور هددوهن إذا سألن ! فإن صوت المرأة عورة !! ورددت على ذلك بمنع الأسئلة الشفوية من الجنسين ، وقبول الأسئلة المكتوبة وحدها !! وأكدت ما قررته مراراً أنه لا عورة فى صوت المرأة ولا فى وجهها !..

ثم شعرت بأن مستقبل الإسلام فى مهب الرياح إذا بقى الفكر العفن يحتل آفاق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على النحو الذى ينشره بعض العلماء !!.

إن الإسلام سيحكم عليه بالطرد من كل ميدان ، إذا بقى مصوره يبرزونه فى

تلك المعالم القبيحة التي لا يعرف غيرها الدهماء من المتسبين إلى الإسلام ..
أقول مع أولى الألباب وأهل الذكر : الحرية الدينية حق ! فيجىء مغموص
جهول يقول : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » آية منسوخة ، بطل
حكمها .. !!

أقول لدعاة السلام في العالم : نحن قبلكم ندعو إلى السلام ، ونكره إراقة
الدماء ، وما نخوض حرباً إلا دفاعاً عن عقيدتنا وتأميناً لدعوتنا ، فإذا غلام
طائش يقول : كلا إن نبينا قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة ، وجعل
رزقي تحت ظل رحى .. » !! ..

هذا الغلام ما تدبر القرآن ، ولا عرف مواضع السيف ، إنه يعرف منطق
العصابات !

نقول : الأمر شورى ، ولا يملك أحد الإفتيات على الجماهير ، فيقول :
لا شورى ، الفرعون الحاكم لا تلزمه الشورى ، فهي له معلمة لا ملزمة .. !!
نقول : يجب احترام حقوق الإنسان فيقول : أى إنسان ؟ هذا التعبير
بدعة !!

نقول : إذا تكونت هيئة الأمم على ما يشبه حلف الفضول انتسبنا إليها ؛
لنضبط سيرها ، ونحدد وجهتها ، ونعلى سيرتها ، يقول : هذه دار حرب
وحسب .. ! إلخ .

إن هذه العقليات أنزل رتبة من أن تؤمن على مستقبل شركة مساهمة ، فكيف
يتاح لها التحدث عن دين كبير ورسالة أورثت الإنسانية أرق حضاراتها .. ؟
لكننا نحن المسلمين نعانى من فوضى علمية مخيفة ! ولعل غياب الأزهر عن
مبادئ الثقافة الإسلامية بعض الأسباب في انتشار هذه الفوضى ..

ثم هناك جراءة على شتم رجالنا الكبار ، حتى كادت أذكي مدرسة في
العصر الحديث تخنثي تحت وطأة الإنكار والجحود ، أعنى مدرسة « المنار » التي
صالحت بين السلف والخلف ، والعقل والنقل ، والاجتهاد والتقليد ، ورسمت
أهدافاً واضحة للنهوض بالعقل الإسلامى ، والطبّ لأمة عليّة !!

وإني - رهبة من مستقبل مقلق - أمد يدي لكل من يخالفونني في الرأي ،
حتى نتعاون على حماية الإسلام من الأخطار الأدبية والمادية التي تهدده ..
ليست القصة انتصار مذهب على مذهب من مذاهب الإسلاميين ! إنما
القصة حماية الإسلام من عداوات لم يحمد الزمان ناراها ، عداوات أهل الكتاب
من جانب ، والملاحدة والوثنيين من جانب آخر ..
إن هؤلاء وأولئك امتلكوا من وسائل الإعلام ومن حظوظ المعرفة المادية ما
جرأهم علينا ! وأعانتهم على ذلك أخطاؤنا ، وما أكثرها ، وتهاوننا وما
أسوأه .. !

في علم الكلام

كان فكري سارحاً في شئون مهمة ، وكنت أدعوني هامس الصوت على
الرجاء ، وكنت على يقين من أن الله يسمعي ! بل كنت أشعر أنه لو كان هناك
على بعد مليار سنة ضوئية شخص آخر يصنع صنيعة فإن الله سامعه معي !
إن امتداد الزمان والمكان لا يعني شيئاً بالنسبة له تبارك اسمه ، فما يغيب عنه
شيء في الأرض ولا في السماء .. «إن ربي قريب مجيب»^(١) .
وفجأة تحرك داخل نفسي سؤال متطفل : أهو قريب بذاته أم بصفاته ؟
إن هذا السؤال المتطاوّل هو أثر دراسات وقراءات كثيرة تعرضت لها في حياتي
وتعرض لها أمثالي ! وهو سؤال قد يكون وليد شره عقليّ جامح ، وقد يكون
حديث نفسي طُلِعَ إلى المزيد من المعرفة !
على أية حال لم أرحب بالسؤال ، وتذكرت مثلاً ضررته عن قدرات البشر
العقلية في مقال قديم : قلت : إن ذبابة تطنّ قريباً مني وأنا أكتب ! ترى أتعرف
هذه الذبابة شيئاً عن الكتاب الذي أوْلَفه ؟ بداهة لا .. ما لها وله ؟ كذلك علمي
وعلمي أمثالي بكنهه بديع السماوات والأرض !!

(١) سورة هود : ٦١

حسبى أن أعرف أن الله واسع عليم ، إن أجهزنى العصبية والعقلية لا طاقة لها على ما وراء ذلك !! .

إننى لا أعرف كيف يتحول الخبز الذى أطعمه إلى خلية حية تحسّ داخل بدنى ، قد تكون جزءاً من السمع والبصر ! .

وقررت أن أهمل السؤال المطروح ! إننى وآبائى من سلف وخلف مجمعون على إعظام الله ، وعلى استحقاقه كل كمال « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى »^(١) وما ثارت شبهة فى نفس أحد حول هذه الحقيقة ، فما الذى حدث ؟

الذى حدث أن البعض نظر إلى آيات الصفات ، فأجاب عن السؤال الذى عرض لى بإحدى إجابتين : فإذا قال الله سبحانه : « الرحمن على العرش استوى »^(٢) قال : هذا تعبير مجازى عن انفراد الله بالسلطان المطلق فى ملكوته ، فهو الغالب على أمره ، والقاهر فوق عباده ، وليس الترتب على العرش كما يسبق إلى الأذهان عادة ..

ويقول آخر : كلا ، الآية على ظاهرها الحقيقى ، وهو الجلوس ، ولكنه ليس على ما يفهم الناس ، إنه استواء اختص به الخالق الذى ليس كمثله شئ ...

وكان يمكن أن يقف الخلاف عند مراحل القربة ، وينصرف الفريقان كلاهما إلى ساحة البناء الأخلاقى والاجتماعى والسياسى .. فإن سلفنا الأول من صحابة وتابعين أعرض عن هذه المقولات ، ولم يفكر فيها ، وخلص للتعليم والدعوة فى نطاق الآيات المحكمات ..

لكن أموراً - لا نفصلها هنا - جعلت كلا الفريقين يمضى على وجهه إلى نهاية الطريق .

فإذا القائلون بالمجاز ينتهون إلى ما يشبه التجريد والتعطيل ، وإذا القائلون بالحقيقة يكادون يقعون فيما قرؤوا منه ، من تشبيه .. !! .

(١) سورة طه : ٨ .

(٢) سورة طه : ٥ .

وأمامى كتاب جيد الطبع ردىء المعانى عنوانه : « عقيدة أهل الإيمان فى خلق آدم على صورة الرحمن » .

لقد تساءلت : فما معنى قوله تعالى : « وليس كمثله شىء » ^(١) « إذا كان آدم على صورة ربه !! » .

كلا الفريقين ابتعد عن سلف الأمة ؛ منطقاً ومسلکاً ، ولو أن أمتنا شغلت نفسها بهذا اللون من المعرفة أول تاريخها لبقى الإسلام محصوراً داخل جزيرة العرب ...

ولو سمحنا لهذا الفكر أن ينتعش وتتسع مباحثه فسيفضى على الإسلام فى أنحاء العالم ، ويتعرض لهزائم ماحقة ..

لقد لاحظت أن غلبة الحسّ على بعض الناس تجعله يتخيل أن الله يغادر عرشه هابطاً إلى السماء الدنيا كى يرحم المسترحمين ، ثم يعود مرة ثانية إلى استوائه ، وهذه سذاجة لا يعرفها سلف ولا خلف ..

وإنما دفع إليها ما يحشده البعض من آثار موهمة ؛ لا صلة لها بالعقائد - ولو صحّت - لأن العقائد مبناه على النصوص القطعية المتواترة ...

وقد أنعمت النظر فى الخلاف القديم بين فكر السلف والخلف ، فوجدته أدنى إلى الخلاف اللفظى ١ .

إذ الإجماع منعقد على توحيد الله وتحميد وتمجيده ، ونفى أى شائبة من نقص عن ذاته الأقدس .

وهناك ملحظ ذكرته فى بعض كتبى ؛ أن اللغات من وضع البشر ، اخترعوها للدلالة على ما يألون من أشياء وأشخاص ومعان مأنوسة لديهم .

فاذا نقلنا ألفاظ اللغة للدلالة على ما وراء المادة ؛ وقع تفاوت يجعل الألفاظ أقرب إلى الرمز والجاز ، وذاك سرّ القول بأنه لا يوجد فى الجنة من أحوال الدنيا إلا الأسماء ، لأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ..

(١) سورة الشورى : ١١ .

فإذا تحدث الناس بالسنتهم عن الله ، أو حُدِّثُوا عنه ، ففي نطاق ما أوتوا من قدرات مادية ومعنوية ، والله أكبر ، وهو أجل وأعلى !.

إن عامة المسلمين وخاصتهم متفقون على أن ربهـم « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »^(١) ومتفقون على أن الملائكة والجن والبشر ، والنبات والجماد وكل موجود مخلوق له ؛ نال كينونته لأن الله قال له كن !.

ويتلاشى لفوره عندما يأفل شعاع الإيجاد والإمداد !! ما يمسكه أحد !.

كنت في المرحلة الثانوية من تعليمي أسمع شيخى يقول : نفي المعتزلة الرؤية ؛ لأنها تدل على الجهة ، والجهة تدل على التحيز ، والتحيز يدل على الجسمية ؛ والجسمية تدل على الحدوث ، والله منزّه عن ذلك كله ..

قال شيخى : وهذا كلام لا يلزمنا ، فإن الرؤية التى أثبتّها القرآن للمؤمنين شيء آخر لا يستتبع كل هذه المحاذير .. إن عالم ما وراء المادة ، أو عالم الغيب له سنن أخرى غير ما نألف فوق هذا التراب .. فالقياس باطل !!.

أى أن الخلاف لا معنى له ، فما يثبتّه هذا غير ما ينفيه ذاك ، وقد جاء الأشاعرة يحاولون فضّ هذا الاشتباك ، وكان لهم فكر يصيب ويخطئ ، وليس ما وقعوا فيه من أخطاء أثقل مما وقع فيه غلاة الحنابلة من أوهام رفضها أولو النهى ..

وتوجد اليوم عصابة من المتعلمين تريد أن تسعّر النار ، وأن تصبّ الزيت في القرن الذى خمد لتعيد اشتعاله ..

وتقع هذه المحاولات المجنونة في سنوات عجاف ، يأكل فيها المسلم رغيفه من علم الغرب وعمله ، والمضحك المبكى أن هؤلاء المتعلمين يصنعون المعارك على قضايا الغيوب ، وهم يتسوّلون فتات المعارف الأرضية ممن غلبوهم على أرضهم ، وانفردوا بزمام الحضارة وحدهم ..

إنهم يقاتلون لإثبات أن الله خلق آدم على صورته ، فإذا غلغلت البصر في

(١) سورة الشورى : ١١

شئونهم وجدت أن انتسابهم لآدم هو من ناحية الجسد !! .
أما من ناحية أن الله علّم آدم الأسماء كلها ؛ فالقوم يسمعون عن غزو الفضاء
وتسخير الذرة ، فلا يعرفون قبلاً من دبير ، وإنما ينادون من مكان بعيد !! .
إن الصحوة الإسلامية منتهية إلى الفشل يقيئاً إذا بقى هؤلاء الناس صوت
يُسمَع !! .

الفصل الرابع

توضيح الصورة ومنع الغش

أحياناً يكون الجهاد العلمى أسبق عند الله ، وأجدى على الناس من الجهاد العسكرى ، فإن تصحيح المعرفة ينصف الحقيقة ، ويحصّن النفوس ، ويضبط مسار الأمم إلى أهدافها .

وفى عصرنا هذا راقبت معاهدات ثقافية بين الدول الكبرى والصغرى فشعرت كأن الأمم الغالبة تريد إحكام قبضتها على الأمم المغلوبة بفرض سيطرتها المعنوية على الدراسة والأدب وأنواع العلوم والفنون ، وهى إن أفلحت فى ذلك كتبت هزيمة الأبد على الأمم المغلوبة ...

من أجل ذلك دقت النظر فى المعارف الشائعة بيننا ، والتى تكون شخصيتنا الفردية والاجتماعية ، فإذا لم أجد لأى قضية شاهدين من الكتاب والسنة ، فقدت قيمتها ، وقد أبحث بعد ذلك عن الطريقة التى تسلت بها إلى معارفنا ، فربما وجدت إسرائيليات أو يونانيات ، أو جاهليات عربية قديمة ! .

وقد ينخدع رجال كبار بهذا الدخل ويتورطون فى إقراره ! كما ذكر بعضهم أن عمر كان ينهى عن تعليم النساء الخط (١) ، وهذا أثر منكر ، وقد كانت حفصة ابنته رضى الله عنها كاتبة ، فلم علّمها ، أو تركها تتعلم الخط ؟ إذا كان ذلك لا يسوغ ! ١٩ .

ولم يبق إلا أن يقول أحقق : تعلمت الكتابة فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام نهى عن ذلك ؛ لأن الأمية جزء من غاياته ورسالاته !!

إنني ألفت النظر إلى أن المواريث الشائعة بيننا تتضمن أموراً هي الكفر بعينه ..

لقد اطلعت على مقتطفات من الفتوحات المكية لابن عربي فقلت : كان ينبغي أن تسمى الفتوحات الرومية ! فإن الفاتيكان لا يطمع أن يدسّ بيننا أكثر شراً من هذا اللغو ...

يقول ابن عربي في الباب ٣٣٣ بعد تمهيد طويل : « إن الأصل الساري في بروز أعيان الممكنات هو التثليث ! والواحد لا يكون عنه شيء البتة ! وأول الأعداد الاثنان ، ولا يكون عن الاثنين شيء أصلاً ، ما لم يكن ثالث يربط بينهما ببعض فحينئذ يتكون عنها ما يتكوّن ، فالإيجاد عن الثلاثة والثلاثة أول الأفراد ... » .

لم أقرأ في حياتي أقبح من هذا السخف ، ولا ريب أن الكلام تسويغ ممجوج لفكرة الثلاث المسيحية ، وابن عربي مع عصاهات الباطنية والحشاشين الذين بذرتهم أوروبا في دار الإسلام أيام الحروب الصليبية الأولى ؛ كانوا طلائع هذا الغزو الخسيس ..

من قال : إن الواحد لا يكون منه شيء أصلاً ؟ « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل له مقاليد السموات والأرض .. » وفي دنيا الناس يسأل كل واحد عما يفعل ويترك ، ويتفاوت آحاد البشر في قدراتهم وخبراتهم حتى يقول ابن دريد :

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عني !
ومن قال : إن أول العدد الاثنان ؟ وهل تكوّن الاثنان إلا من ازدواج الواحد ؟ ثم من قال : إن الاثنين لا يكون عنهما شيء أصلاً ؟ وإذا كان هو لم ينشأ من أمه وأبيه معاً فم نشأ ١١٢ .

ولكن ابن عربي يمضي في سخافاته فيقول - عن عقيدة التثليث - : من العابدين من يجمع هذا كله في صورة عبادته وصورة عمله ، فيسرى التثليث في جميع الأمور لوجوده في الأصل !!

ويبلغ ابن عربي قمة التغفيل عندما يقول : إن الله سمي القائل بالتثليث كافرًا
أى سائرًا بيان حقيقة الأمر فقال : «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة»^(١)
فالقائل بالتثليث ستر ما ينبغى أن يكشف صورته ، ولو بين لقال هذا الذى
قلناه ..!!

واكتفى الأحق بذكر الجملة الأولى من الآية ، ولم يُردفها بالجملة التالية :
«وما من إله إلا إله واحد»^(١) وذلك للتبليس المقصود !
هذا الكلام المقبوح موجود فيما يسمى بالتصوف الإسلامى ! وعوام المسلمين
وخواصهم يشعرون بالمصدر النصرانى الواضح لهذا الكلام ..
ومما يلفت النظر أن معهد الدراسات الإسلامية بجامعة السوربون قد اتفق مع
إحدى العواصم العربية على طبع الفتوحات وإخراجها فى بضعة وثلاثين جزءًا^(٢) .
لحساب مَنْ يتم هذا العمل فى هذه الأيام العvisية ؟ على أية حال نحن نريد
العودة بأمثنا إلى ينابيعها العلمية الوثيقة ، ونناشدها ألا تقبل من التوجيهات إلا ما
اعتمد على الوحى الصادق ، ولدينا والله الحمد كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه ، وسنة توافر الحفاظ والفقهاء على ضبطها على نحو لم يقع نظيره
لتراث بشر ..

إنه مع مطالع القرن الخامس عشر تحاول خرافات الكتائين كما تحاول خرافات
الوثنيين أن تشيع بيننا مقالات وأحكامًا تترى بحضارتنا ورسالتنا ، وتضلل
الصحة الإسلامية التى تريد رفع مستوى الجماهير ، ووصل حاضرهم بماضيمهم
الأول ..

ونحن بالمرصاد لهذه المحاولات أيًا كان مصدرها ، بيد أننا نلفت الأنظار إلى
قصة الدبة التى قتلت صاحبها ، فكم يعانى ديننا من ذريات هذا الدب المخلص
الجهول !.. كم نعانى من أنصاف متعلمين لا يتقون الله فى النصف الذى عرفوا

(١) سورة المائدة : ٧٣ .

(٢) صدرت فعلاً ثمانية أجزاء من هذا المؤلف .

ولا في النصف الذي جهلوا ! يريدون بقاء الأمة في ظلام التخلف والهوان .

* * *

الغش الثقافي وباء تعرضت له الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً ، ثم يتصدى له الراسخون في العلم فيكسرون شوكتة ويكشفون حقيقته ، فإما قطعوا ذابره ونجت الأمة منه ! وإما بقيت له ذبول تختفي هنا وهناك ؛ لتنفث شرها بين أولى الغفلة حتى يتيقظ لها العلماء العدول فيتم القضاء عليها ويستريح المسلمون منها .. وتختلف أنواع الغش باختلاف العصور ، ولكنها تصدر عن علة واحدة ، الذبول عن الكتاب الكريم ، والعجز عن تدبره والإحاطة بأحكامه ودلالاته .. قديماً قال ابن عري : إن فرعون تاب وقبل الله توبته ، فمات طاهراً وذهب إلى الله مسلماً !! .

فهل يقول هذا الكلام رجل قرأ قوله تعالى عن فرعون : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورد . وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بشس الرغد المرفود » ! .

هل يتقدم قومه ليسلمهم إلى مالك خازن النار ، ثم يعود مكرماً ليدخل الجنة ؟ !

إن مياه البحر الأحمر والأبيض والأسود لن تطهر فرعون أبداً مهما قال : « آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ... » ^(١) .

وابن عري عابث كذوب ... ولنترك هذا النموذج القديم للغش العلمي ، ولنضرب مثلاً بغش جديد ، رجل يتزعم حركة إسلامية كثيرة الصياح يقول : إن الإسلام يقوم على الحرب الهجومية ، ويعتمد على التوسع العسكري ، ويجعل السيف أساس علاقاته بالآخرين ، ثم يستدل على رأيه الغريب بأن الرسول خرج

(١) سورة يونس : ٩٠ .

من المدينة مغيراً على قافلة قريش ، وكان يقيم بها آمناً ، وما أخرجه إلا التعرض
العسكرى للعدو !!.

وهذا كلام فى غاية الغثاثة والبطلان ، فالمسلمون فى المدينة أُخرجوا من
ديارهم وأموالهم وصودرت عقائدهم وعباداتهم ، واستبيح إخوانهم فى الدين
وأهدرت حقوقهم !.

فكيف يوصف تعرضهم لأعداء الله الذين فعلوا ذلك كله بأنه حرب
هجومية ؟ لم يبق إلا وصفهم بأنهم إرهابيون كما يتهم اليهود الآن العرب ! بعد
ما طردوهم من أرضهم !!.

المصيبة أن بعض المتحدثين فى الإسلام لديهم مقدار هائل من قصر النظر وقلة
الرعى ! والأدهى من ذلك أن يتحول هذا الفكر السقيم إلى مبدأ تؤلف فيه كتب
وتبنى عليه مواقف !.

أكثر هؤلاء لا يعرفون مكانة الأسرة فى المجتمع ، ولا مكانة المرأة فى دعم
الأسرة ، والشائعة الكبرى التى يطلقونها عن الإسلام أنه يحتقر الأنوثة ، ويضنُّ^١
عليها بالحقوق الطبيعية للإنسان السوى ، حتى شاع فى أرجاء الدنيا أن الإسلام
عدو المرأة وظالمها وواضع العقبات فى طريقها إن أرادت ارتقاء ...
ونساء العالم يشعرون كأن الإسلام يكنُّ^٢ لهن البغضاء ، ويرى الموت أستر لهن
من الحياة !.

إن محمداً أرسل رحمة للعالمين ، ونصيب المرأة من هذه الرحمة العامة أن
تنال من العلم ما يرفع مستواها الإنسانى ، وأن يكون لها فى المسجد ما يرفع
مستواها الروحى ، وأن يكون لها من الوعى الاجتماعى ما يعينها على الأمر
بالمعروف والنهى عن المنكر كما افترض ذلك القرآن الكريم ..

أما أن تنشأ فى الحلية كى تكون محظية فحلٍ وحسب ! فذلك منطق حيوانى
ما عرفه سلفنا الأول ، وإن نادى به أناس يدعون السلفية زوراً ...

فى كتابنا الكريم ما يضع العلاقات الإنسانية على دعامة ثابتة من التآخى
والتراحم . ومع أنى فى هذا العصر أكره زواج المسلم من غير مسلمة إلا أنى

لا أستطيع إنكار حكم ثابت في ديني ينشئ علاقة حب ومودة بين مسلم وكتابية تعيش بين أحضانه .. !! .

وليس هنا مكان للإطالة في فهم هذه القضية ، كل ما أريد شرحه أن الله خلقنا شعوبًا وقبائل لتتعارف لا لتتشاكس ، وعندما يقترب بعضنا من بعض نرى الآخرين من شمالكنا ما يحببنا إليهم ، وما يقفهم على كنوز الرحمة والسباحة التي زخر بها ديننا ! .

وذلك ما يزيل السدود أمام إقبالهم عليه وإعجابهم به ! .
والواقع أن فضائل الصحابة والتابعين هي التي أغرت الشعوب باعتناق الإسلام ، بعد ما انكسر الاستعمار الروماني الجاثم على صدورهم .
نعم إن سلفنا فتح البلاد بأخلاقه الدميثة ، ومسالكة الزاكية ، ولم ير في الفاتحين إلا محررين نجدوا إخوانهم المظلومين وكسروا قيودهم وردوا إليهم حرياتهم المسروقة ..

هؤلاء هم سلفنا الذين أغرت أحوالهم بدخول الإسلام ..
أما اليوم فإذا ترى ؟ جهال يهدّدون العلماء ! وأصحاب عُقد يتوعدون أصحاب الفطر السليمة ، وعوامٌ سيوفهم خشبية ينحيفون من فجرّوا الذرة ، وأميون ربما قدروا على فك الخط يهدّدون نساء يحملن أعلى الإجازات الدراسية ..
أعرف أن حضارة أوروبا وأمريكا تحتوى على مبادئ شائنة ، إن مؤرخًا إنكليزيًا مثل «توينبي» حذر قومه من التفسخ والهلاك بهذه المبادئ التي تشيع ! ما لنا ولهذه الهنات ؟ ! .

إننا نحاربها بداهة ، لكننا لا نستبدل جاهلية عربية بجاهلية أوروبية !
كلتاها شر ، وإنما ننشد الإسلام وحده لنضع الطيب مكان الخبيث .
والإسلام لا يعرفه قوم محبسون في سجن التخلف الذي أودعوا فيه من أيام هزائمنا الثقافية والسياسية إلى اليوم ! .

ولن أسأم تكرار هذه الجملة الواعية :
«دين الله أشرف من أن يؤخذ عن أفواه الحمق» .

شُرود عن الصواب

ضرام الشهوات البادى فى الحضارة الغربية لا علاقة له بدين المسيح ، ولا سيرة الحواريين ! إن الأنبياء كلهم - وليس المسيح وحده - دعاة إلى التسامى والاستغفار ، ويستحيل أن يقبلوا الرذيلة أو يهادنوها ...

وما روى من تراخى المسيح فى رجم امرأة متهمة ، فهمه قصار النظر على غير وجهه . إنه ليس إقراراً للجريمة ، ولا استهانة بها ، إنه رحمة بالضعف البشرى ، وإعطاء فرصة للتوبة ، وهو ازدراء لمسالك اليهود الذين ينطون على أمراض نفسية عفنة ، ثم يتظاهرون بالغيرة على صور التدين ، والنقمة على أخطاء العاثرين ...

من أجل ذلك قال للكهنة المراثين : « من كان منكم بلا خطيئة فليقدم لرجمها .. » !!

إن كلمة عيسى تنبجس من نفس الينبوع الذى جعل نبينا عليه الصلاة والسلام يراجع المقر بخطيئته ، ويلقنه العودة عن إقراره !! .
والحق أن هناك جماهير من المتدينين على حظ كبير من تحجر العاطفة والرغبة فى البطش ، والشهامة فى الخطئين ، وهذا كله ناشئ عن اضطراب الصلة بالله ، والفقه فى دينه ...

وعند النظر فى أسباب الفساد الجنسى الذى يسود الغرب ، لا نرى إلا الموارث اليونانية والرومانية التى سادت أوروبا ثم اتسعت دائرتها فى العصور الحديثة ..

لقد كان فلاسفة اليونان نماذج محقورة للانحلال والفسوق ، وكان جبل الأولب الذى تسكنه آلهتهم المزعومة مشحوناً بأنواع الغرام الحرام والمطاردات الهابطة ، ولم يكن الرومان أشرف حالاً ، بل معروف أن الرومان لما تنصروا لم ينتقلوا إلى الدين السماوى المعروف يومئذ ، بل نقلوا هم المسيحية إلى مجتمعهم وصبّوها فى قوالبهم القديمة ، فلم يصلحوا هم بها بل أفسدوا تعاليمها ...
وعندما ملكت الحضارة الحديثة العالم ، وأعانتها تفوقها الصناعى والإدارى

على الانفراد بزمام الدنيا ، نشرت مسالكها الجنسية بين الناس ، وجعلت جاهلية روما وأثينا تسود الأرض ..

وهكذا شاع الدَّنسُ ، ورأينا عروضاً منكراً للجسد البشرى ، وفنوناً من التبرج تتجدد مع اختلاف الليل والنهار ، بل كادت الصلاة الحرام تكون مسالك عادية يُعترف بها ويُستغرب اعتراضها ..

وأعان على قبول هذه الأوضاع أمران : أولهما التفوق العلمى الباهر الذى صاحب حضارة الغرب ، والآخر فقدان بديل عملى محترم تطبقه البلاد الإسلامية ! بديل يتفق مع فطرة الله فى الأنفس ، ووحىه الصادق فى تنظيم المجتمع البشرى وتركيبته ...

بل إن البعض وجد الصورة الغربية أجدر بالبقاء من الصورة الإسلامية وهذا شرود هائل عن الصواب يشترك فى وزره المقلدون للغرب الجاهلون بفهم الإسلام من كتاب الله وسنة رسوله .

إن الصورة التى حُسبت إسلاماً وما هى بإسلام أن المرأة كائن ناقص مُتَّهَمٌ ، يحبس فى البيت محروماً من العلم والارتقاء ، ومن كل نشاط اجتماعى أو سياسى يمس جاضر الإسلام ومستقبله ..

لا ترى أحداً ولا يراها أحد ، لا تعرف طريقاً إلى مسجد أو مدرسة ، لا يسمح لها بعمل ذكىّ جادّ فى أى أفق من آفاق الحياة ، لا مجال لها فى أمر معروف أو نهى عن منكر أو جهاد عن الإسلام حين يغار عليه !! . لا يُسمع شهادتها فى الدماء والأعراض ! ولا تُقبل لها ولاية فى أمر من الأمور !! .

وعند الزواج لا يسمع لها رأى ، وقد تبلغ مرحلة العنوسة ثم سينّ اليأس وأولياؤها يرون أن الكفء - فى نظرهم - لم يتقدم لها ، فتشيخ وتموت عذراء !! .

وعند التأمل نرى تقاليد الرياء تجعل الزواج محنة قاصمة للظهر - والرياء شرك - وقد استقرت هذه التقاليد الجائرة فى أرض الإسلام شرقاً وغرباً فجعلت

الشباب لا يستطيع الحلال إلا بشق الأنفس ...

ولذلك عندما يذهب هؤلاء الشبان إلى أوروبا وأمريكا يتحولون إلى ذئاب مسعورة وراء الشهوات الميسرة ، ومادام باب الحلال قد أحكم رتاجه ؛ فقد تمهّد إلى الحرام ألف طريق !! .

ويظهر أن المرأة – وفق هذه التقاليد الجائرة – يستحيل أن تكون مشرفة على أولادها من ناحية الواجبات المدرسية ، أو مشيرة عليهم برأى سديد ! كيف ؟ والقصور العقلية مفروض عليها ! .

كما يستحيل أن تدرى شيئاً عن قضايا أمتها مع الصهيونية والصليبية ، فإذا كانت جاهلة بشئون أمتها المحلية فكيف تدرك شئونها العالمية ؟ كأن سعة الأفق وحسن التصرف أمسيا وقففا على نساء العالم كله عدا المسلمات المحصورات !! .

النساء في الحضارة الجديدة يغزون الفضاء ؛ ونحن نفقئ بأن صلاتها في بيتها أفضل من الصلاة في مسجد رسول الله ، ولا بأس أن تختار المكان البعيد عن الأضواء !! .

كان يجب على أهل الذكر أن يصحوا من رقادهم بسرعة ، ويواجهوا الحضارة الحديثة بالبديل الإسلامي الصحيح ، حتى يقفوا الفتنة الهاجمة ، وهي فتنة لا يقفها إلا الإسلام المطبق في عهد رسول الله وصحابته لا الإسلام الخارج من أجواف لا تعي ، ولا تحسن الأسوة الحسنة ...

لقد كافأ رسول الله صلى الله عليه وسلم نسوة خرجن وراء الجيش للقيام بخدمات طبية ومدنية ..

وبايع نساء تحت الشجرة ، ومن قبل في العقبة الكبرى ، وسره أن بعضهن قاتل الكفار ..

فلماذا يحرض بعض الشيوخ على تصوير الإسلام سجاناً للمرأة وحسب ؟

الأزمة الموجودة الآن في الأمة الإسلامية أن البعض يريد تخييرها بين أمرين :

إما حبس المرأة في البيت ، وإما إطلاقها في الشارع ، وهو تخيير بين أمرين أحلاهما مر !! .

لماذا لا يعرض البديل الإسلامي ، لا من عصور الانحراف ، ولكن من عصر النبوة والخلافة الراشدة ؟؟

إن الإسلام مهذّبٌ بهزائم مخوفة العواقب أمام الغزو الثقافي والغزو العسكري ، ولن يغني عنه كتاب يقعون على الكتاب والسنة كما يقع الذباب على العسل فتعافه النفوس ..

إن هناك دعاة سوء يُحشرون يوم القيامة فتانين لأنهم يؤذون الله ورسوله بسوء تصويرهم للإسلام في هذه الأيام كأن وظيفتهم الصد عن سبيل الله .

* * *

محنة عبادة الذات

قد يغضب المرء ويشتد غضبه لأنه لا يعرف الحقيقة ، فإذا عرفها هدأ ولان كلامه ! إن الجهل يكن وراء كثير من مساوئ الأخلاق ، وعوج المسالك وانتقاص الآخرين ! .

وعلاج الخلل هنا سهل ، لأنه لا يتطلب إلا تعريف الجاهل وكشف النقاب أمامه عما لا يراه .. المشكلة المحيرة أن يتأدى المرء في خطئه بعد أن استبان له الصواب ! كأنه لم يستفد شيئاً من العلم الذي أتاه .. ! .

يظهر أن بعض الناس يعاني من داء دفين فيه ، لا يشفيه العلم مهما كثر ، بل ربما أضراه ، وزاده انطلاقاً إلى ما يهواه ، ولعل هذا يفسر ما نقرؤه أحياناً من إسفاف لقوم يتمون إلى أوساط علمية كبيرة ! .

في مقال للدكتور عوض منصور طالعت أخباراً مستغربة لأناس مرموقين ثبتت عليهم جرائم علمية لا تليق ، قال :

«ومن المؤلم جداً أن أحد هؤلاء المزورين شاب عرني من الأردن ، واسمه

الدكتور إلياس السبتي (٢٧ عاماً) ، والذي ذكرت عنه مجلة «ساينس» في عددها الصادر في حزيران ١٩٨٠ ، أنه «سطا كالقرصان على سبعة بحوث لغيره ونقلها كلمة كلمة ، ثم نشرها باسمه في مجلات علمية مختلفة» !.

والدكتور السبتي طبيب غادر الأردن عام ١٩٧٧ إلى أمريكا ، وحصل على الدكتوراه من جامعة فرجينيا ، وقد تمكن من نشر ٦٠ بحثاً في ١٩٧٩ وحدها ، وعندما اكتشف أمر بحوثه السبعة المزورة طرد من جامعة فرجينيا ، وطلب إليه الاستقالة من برنامج كان مشرفاً عليه في كلية الطب بجامعة بوسطن .

واعترفت أشهر كليتين للطب في أمريكا وهما (جون هوبكنز وهارفارد) بوقوع تزوير لكثير من نتائج الدراسات الطبية التي قام بها أحد العلماء العاملين فيها !!.

تمكن أحد الأساتذة المميزين من نشر ٤٠ بحثاً تحت اسمه ، مع أن جميع هذه البحوث قام بها زملاؤه في العمل ، لدرجة أنه نشر في إحدى المرات مقالاً باسمه وحده قبل أن ينشره مؤلفه الأصلي !! » .

من قديم قرر المحققون أنه لا تلازم بين المعرفة والفضيلة ، وإن كان العجب لا ينقضي من تورط العارفين في خطايا لا تتوقع منهم !.

عندما انتقل المسلمون من مكة إلى المدينة انتظروا من بني إسرائيل شيئاً من البشاشة والسماح ، فهم أهل كتاب ، وإذا ضنوا بمحبتهم فلن يرضوا بمهادنتهم ! ولكن اليهود كانوا عند أسوأ الظنون ، وكان كيدهم للمسلمين أشد من كيد المشركين لهم .. ونزل القرآن الكريم يصحح للمسلمين مشاعرهم الساذجة «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» (١) ؟ .

عندما تتحرك النفس الإنسانية بالحق وتلدور على محور هواها فلن يحجزها

شيء ...

(١) سورة البقرة : ٧٥ .

كان إبليس يعرف الكثير ، ورأيه في نفسه أنه أحق بالاختيار أو الاستخلاف من آدم .

كان يرى معدنه أصلب ، وطاقته أوسع ، وأنه في أى نزال مع آدم وذريته سوف ينتصر بمكره ودهائه ..

ولذلك قال الله : «أرايتك هذا الذى كرمت علىّ ، لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً» (١) .

وقد ضحك من آدم وأخرجه من الجنة ! ولا يزال يستغفل الكثير من أبنائه ويسدّ عليهم طرق النجاة ..

ونسى إبليس الحقيقة الأولى في علاقة الكائنات كلها برب العزة ! نسي أن الله يقدم عبداً منكسراً يرنو إليه بأمل ، على عبد شامخ ينظر إلى نفسه بإعجاب ! .

نسى أن عاصياً يتوب أحب إلى الله من طائع متكبر .. ! .
إن كلمات آدم وزوجته أمام الله «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» (٢) أكسبتها الرضوان الأعلى ، أما كلمة إبليس «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» (٣) فقد هوت به إلى أسفل سافلين ..
لا قيمة للعالم الواسع إذا لم تصحبه عبودية تامة لله .. أما عبادة الذات فقد تكون شر أنواع الشرك ، ولذلك أجمع علماؤنا على أن معاصي القلوب شر من معاصي الجوارح .

على أن منطق إبليس من أوله إلى آخره ملئ بالإفك والغباء ! إن معدنه ليس أشرف من معدن آدم ، فآدم أوتى علماً عجزت عنه الملائكة ، وهو دون ذلك كثيراً ، وآدم يبنى وينشئ ، أما هو فيهدم ويدمر ، وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم ..

(١) سورة الإسراء : ٦٢ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٣ .

(٣) سورة ص : ٧٦ .

ربما مكث الفلاح عدة شهور في حقله حتى يجعله مهترًا بسنابل القمح ، وقد
يجيء فانتك يشعل النار في الثمار فيأتى في بضع دقائق على الأخضر واليابس فأى
الرجلين أشرف ؟

وشىء آخر لابد من تقريره ، من الذى ألهم الذكىّ ذكاءه ، والعبقريّ
عبقريته ؟ إنه الله ! فكيف يقف الآخذ الملتقى متحديًا للمعطى ولّى النعمة ؟؟ إن
الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم « يختصّ برحمته من يشاء والله ذو
الفضل العظيم » (١) .

وقد هُدى ابن عطاء الله السكندري إلى هذا المعنى عندما قال : « مَنْ
مدحك فإنما مدح مواهب الله عندك ، فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك » .
إن ولدا لآدم عرف الحقيقة التى تاه عنها المتكبر الطائش ، وقد استكبر إبليس
على آدم ثم اشتغل بعد قوّادًا لبعض ذريته ! فما أحقر المصير القريب والبعيد ! .
ومن عجب أن « عبادة الذات » انتقلت من الشيطان الأكبر إلى بعض
المتدينين الذين يدورون حول أنفسهم ، وبدلاً من أن يكونوا الدين من إصلاح
عيوبهم يفسدون هم العبادات بالرياء وإرضاء النفس ، وقد جاء في السنة أن
هؤلاء أول من تسعّر بهم النار يوم القيامة ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ..
رأيت بعض أدعياء التدين فوجدت في ملاحظهم جهامة ، وهبت من شائهم
ريح منفرة واستطالة على الناس بغير شىء ...

الدين تواضع لله ، ودمائة في الأخلاق ، واستغفار للفرد والجماعة ، وافتقار
ظاهر وباطن إلى رحمة الله ، وهؤلاء بقليل من العلم وكثير من الدعوى قطعوا
تسعة أعشار المسافة إلى الجنة ، ثم نظروا للآخرين شراً ..
إن وجدوا خيراً تجاوزوه ، وإن وجدوا شراً ضاعفوه ، أو هم كما قال
الشاعر :

إن يسمعوا رية طاروا بها فرحاً عنى وما سمعوا من صالح دفنوا

(١) سورة آل عمران : ٧٤ .

هل هم مستكبرون بعلم ؟ نظرت في علمهم فرأيت عقولهم صفرًا من علوم الكون والحياة ، وصفرًا كذلك من جملة العلوم الإنسانية ، أما علوم الدين فربما برعوا في زاوية ضيقة من زوايا الفروع الفقهية التي لا ترجح كفة يوم الحساب .. وما وراء ذلك خواء تعصف فيه رياح الوحشة ...
ما أشد بلاء أمتنا بهؤلاء الناس !.

* * *

مكتبة الإسكندرية والغزو الثقافي

في هذه الأيام يستغل الغزو الثقافي الأقمار الصناعية لتسميم أفكارنا وتدويخ أمتنا ، وكان يجب أن تتضافر الجهود لتقوية الدفاع وإحباط الهجوم ، وإذا ما جن مغرور يقول لك : يجب إعلان الحرب على الجَهْمِيَّة !! .
لقد تغير العدو ، وتغير الميدان ، وتغيرت الأساليب ، وأضحت خدمة القرآن والسنة بحاجة إلى فكر معاصر ونظر أبعد ! .
لكن داء أهل الكتاب الأولين تسلل إلى نَفَر من الناس يجمعون بين ضحالة العقل وقساوة القلب ، فلا تسمع منهم إلا هجرًا ولا ترى إلا كبرًا !! .
كنت مع صديق لي أغشى مجلس علم ، فإذا أحد هؤلاء يقول لي : ألا تزالون في الأزهر تدرسون الأديان الثلاثة ؟ يعني مذاهب الفقهاء أبي حنيفة ومالك والشافعي !! فتأملت وجهه وتأملت لحال الأمة ...
إن الصحوحة المعاصرة يجب أن تخلو من هؤلاء حتى تستطيع الانطلاق .

الجامعات الأوروبية والأمريكية تدرس الإسلام دراسة بالغه السوء ، مناهج محورها الجهل المركب ، وأسائده إما يهود رسب في أفئدتهم حقد القرون ، وإما ملاحدة يحاربون الوجود الإلهي الحق ، كأنما يدافعون عن حياتهم ؛ وإما صليبيون بينهم وبين محمد ثأر لا يطفئه إلا الدم ...

أما البحث الحر المحاييد التزيه فلا وجود له ! وفي هذه الأيام يوجد تعاون بين قسم الدراسات الإسلامية بالسوربون ، وبين المسئولين عن العلوم والآداب

والفنون عندنا على إخراج كتاب الفتوحات المكية في بضعة وثلاثين سفرًا في نسخ
أنيقة فاخرة ، لتيسير تداولها بين الناس ، ولنشر فكر ابن عربي الذي تحتاج إليه
أوروبا في هذه الأيام^(١) ...

ورئيس قسم الدراسات الإسلامية في باريس رجل أعيانا ولاؤه للغرب وكرهه
للكتاب والسنة ، ونشاطه المحموم ضد العرب والمسلمين !! .
وقد كشفنا خبيثة الدكتور أركون في كلمات سابقة ، فضحنا فيها مواقفه ضد
الإسلام جملة وتفصيلاً .

والسعي لإحياء أفكار ابن عربي جزء من تضليل أمتنا ، وتعميم الرؤية
أمامها ، أو هو عرض لدين مائع يسوّى بين المتناقضات ، إذ قلب ابن عربي
- كما وصف نفسه - دير لرهبان ، وبيت لنيران ، وكعبة أوثان ، إنه تليث
وتوحيد ونفي وإثبات ...

وماذا تقول في رجل يفسر قوله تعالى : «إن الذين كفروا سواء عليهم
أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»^(٢) (بأن المقصود هم الأولياء الخُلص ، ومعنى
كفروا ستروا محبتهم لله (!) ، وختم الله على قلوبهم فلا يدخلها غيره ، وعلى
سمعهم فلا يسمعون إلا منه ، وعلى أبصارهم فلا يرون إلا نوره ، ولا يؤمنون بك
يا محمد !! .

هذا الكلام الغث هو قرة عين الصليبيين وأمثالهم ، وهو ما يراد الآن نشره
على أوسع نطاق بتعاون بين القاهرة وباريس !! .
إنني أسأل : ما علاقة المجلس الأعلى للعلوم والفنون بكتاب هذا موضوعه ؟
ولماذا لم يقل لرجال السربون : اتصلوا بالأزهر ليرى رأيه !! ؟ .
إن علماء الأزهر في العصر الأيوبي أنكروا تفكير هذا الرجل ، وحكموا

(١) في بيروت مؤسسة تقوم على ترجمة ونشر الأعمال الكاملة لأركون حتى تتوغل الثقافة المغشوشة في
أقطارنا ، وتمنع الاستقرار العلمي ! وهكذا يجد الغناء طريقة للنماء ... !! .

(٢) سورة البقرة : ٦ .

بكفره ، وأودع السجن ليلقى جزاءه ، ولكن أصدقائه نجحوا في تهريبه ...
والذى أذكره أن الملك الكامل - وموقفه من الصليبيين يشبه موقف السادات
من الصهيونية - هو الذى أعان على إطلاق سراحه لبقى مع غيره من زعماء
الباطنية يفتتون الجبهة الداخلية ، وينشرون الخرافات القائلة لعقائدنا وأخلاقنا ،
ويعجزوننا عن مقاومة الغارات السياسية والعسكرية المترددة علينا ...
واليوم - مع اشتداد وطأة الغزو الثقافى - يراد إحياء ابن عربى ، وليكن هذه
المرّة عن طريق المؤسسات العربية بالقاهرة .

إن فرنسا تمكّر بنا ، وإن الدور التبشيري لجامعاتها مستمر وإن بدا فى صور
شئى ، وقد بلغنى أن ساستها الجدد - وإن كانوا اشتراكيين - قالوا : إن ما أعطاه
« ديجول » للعرب عقب هزيمته فى الجزائر ، سوف نسترده بطريق الغزو الثقافى
اللين الخادع ا .

فهل نستيقظ قبل فوات الأوان لمواجهة هذا الغزو فى كل ميدان .. ؟
إن تتابع هزائمنا الثقافية يجعلنى أتشاءم من نتائج المعركة الدائرة الآن بين
الإسلام والمهاجمين عليه والمشوّهين لسمعته ا فدوائر المعارف المؤلفة فى الغرب
تنسج الأكاذيب عن تاريخنا وديننا ، وعقائدنا وتعاليمنا .. ولا يزال نفر من علماء
الدين غرقى فى خلافاتهم التافهة لا يتيقظون للدفاع عن دينهم المهدّد وسمعته
المجرّحة ...

ماذا تقول إذا قرأت فى دائرة المعارف الفرنسية للعلامة « لاروس » : « إن
محمدًا كان كاردينالاً يطمح إلى تولى منصب الباباوية ، فلما عجز عن تحقيق رغبته
اختلق دينًا جديدًا يشبع به أطماعه فى الرياسة .. » ١٢ .

إذا كان هذا كلام علمائهم فماذا تنتظر من الجهال ؟
من أجل ذلك اعترانى تفكير عميق عندما علمت أن الجهود دائبة لإعادة بناء
مكتبة الإسكندرية ..

إننى - من معرفتى بدينى - أحترم مصادر المعرفة ، وأرحب ببناء المكتبات ،
وأسعى إلى حراستها وتحليدها ، وأقدر الجهود التى تبذل فى ذلك .

وليس يعينى طراز المباني ونوع الهندسة إن الذى أهتم به هو الكتب التى ستعرض على القارئ ، لقد سمعت أن المكتبة سوف تصور الثقافة السائدة فى البحر المتوسط .. حسناً ، فى شمال هذا البحر اليونان والرومان ، واللاتين فى فرنسا وإسبانيا ، وفى جنوبه المغرب الكبير ومصر ، وفى شرقه فلسطين المحتلة ولبنان المحتل ، والشام وتركيا العلمائتان ...

ولقد قامت المكتبة القديمة وبادت ولا صلة لها بيهودية ولا نصرانية ولا إسلام ، كانت تمثل الفكر السائد فى عصرها الأول ، فهل ستكون المكتبة الحديثة إنسانية عامة تعرض علوم الكون والحياة ، والتقدم الباهر الذى بلغه عصرنا الحاضر فى الكشف المعجبة لأسرار هذا العالم وقواه ؟ ليكن ! .. ولعل ذلك يرضينا جميعاً .

إن الذى أحذر منه أن تكون المكتبة جسراً لفلسفات بالية ، وتعصباً وضيقاً لماض كان الأوروبيون فيه لا يمثلون شيئاً ذا بال من خصائص الإنسانية الرفيعة ، ويريدون اليوم أن يستأنفوا جحودهم لنا واجترأهم علينا .. وما سمعته عن أجنحة المكتبة المقترحة يثير شكوكاً كثيرة ..

إن الإسلام اليوم دين جريح ، تنتمى إليه شعوب أغلبها من العالم الثالث ، ولا يساوى تخلفها المادى إلا تخلفها المعنوى ، وإذا كانت الأسفار التى تملأ الدواليب والرفوف من أنواع دوائر المعارف الأوروبية الحالية ، فمن الخير ألا تقوم هذه المكتبة ...

أعلم مقدماً ما سيقال عن ثمانية قرون من تاريخ الإسلام فى الأندلس ، وأعلم مقدماً ما سيقال عن تاريخ الإسلام فى وادى النيل والشمال الإفريقى كله ، وأعلم أن هناك جهوداً رهيبية لإحياء حزازات عرقية ضد رسالة محمد ، والكثرة الكبرى من السكان الذين اعتنقوها ..

ومن ثم فإننى أطالب بأن يكون تمثيل الإسلام عادلاً وواضحاً عند تأسيس مكتبة تصور ثقافة البحر المتوسط على اختلاف العصور ، إننا يستحيل أن نهان الغزو الثقافى فى أية صورة يبدو فيها .

شعاع من عظمة الله

مصنع السيارات في أوروبا وأمريكا يخرج السيارة قوية الآلات أنيقة المظهر ،
ثم تنقطع صلته بها بعد بيعها ، فليس يدري مَنْ راكمها ؟ ولا كم ميلاً قطعت ؟
ولا أين تنطلق أو تتوقف ؟ لقد صنعها وغابت عنه وغاب عنها ...
هل العالم كله - وهو صنع الله الذي أنقذ كل شيء - يسير على هذا الغرار ؟
اكتسب وجوده من خالقه ثم سار وحده مستقلاً بنفسه ؟ كلا كلا !! .
إن الإشراف الأعلى يكتنف حركاته وسكناته من جميع جهاته ، وقد اتفق
المؤمنون على أن الكون يستمد بقاءه ونظامه لحظة فلحظة من رب العالمين .
فالقمر يدور حول الأرض ليست له عيون يبصر بها المسار ، ولا به خزانات
وقود يقطع بها الطريق ، إنما يشرق ويغرب بهداية خالقه ..
والأرض التي نحيا فوقها مهاد جدير بالدراسة بدءاً من قشرتها اليابسة إلى
مركزها الحافل بالمواد المصهورة والسوائل الحارقة ، إن العلم الإلهي يخترق أعماها
ويضبط كل ذرة فيها لو شاء زلزلها فهلكنا ، أو ثبّتها فبقينا ..
وفي القشرة الأرضية ألوف من أنواع النبات بين أزهار وحشائش وحبوب ،
كل نبتة فيها تحت سمع الخالق وبصره منذ وُضِعَت البذرة إلى أن تم الحصاد ،
وكذلك سائر الأحياء ..
وإلى هذا يشير القرآن الكريم «إليه يُرَدُّ علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من
أكمائها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . ويوم يناديهم : أين شركائي ؟
قالوا : آذانك ، ما منا من شهيد»^(١) .
إن بيوتنا نضاء من تيار كهربى يحيى من خارجها ، وقد قرر العلماء أن وجود
العالم ليس من ذاته ، وإنما هو مفاض عليه من البديع الأعلى ، «إن الله يمسك
السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه
كان حليماً غفوراً» .

(١) سورة فصلت : ٤٧ .

أعرف أنه ليس في هذا الكلام جديد ، وما أحسب مسلماً يمارى فيه ! لكن بعض الناس تساءل : كيف يدير الله العالم ؟ كيف يدبّر أمره ؟ كيف يُضحك ويُبكي ويميت ويحيي ؟ كيف تتعلق صفاته بالمجرات الكبيرة في الوقت نفسه الذي تتعلق فيه بالذرات التي لا تكاد تبين ؟

إنه من الممكن أن أحيا دون الاشتغال بهذه الأسئلة ! فأنا أحيا دون أن أعرف سر الروح السارية في أوصالي ، وأحيا دون أن أعرف سر الضوء الذي يغمر الآفاق ! هذه أسئلة يدفع إليها الفضول والتطاول ..

والذين اشتغلوا بها وبنوا عليها نتائج مهمة انتهوا إلى متناقضات ، فمنهم من دان بوحدة الوجود ، وظن علاقة الله بالكون كعلاقة الروح بالجسد وهذا جنون ! وقع فيه بعض المتصوفة ..

ومنهم من ألغى قانون السببية ، وظن أن الإيمان لا يصح أو لا يتم إلا إذا قلت في كل شيء الفاعل هو الله !.

فإن أفهمته أن هناك شبكة من الأسباب ينتظم بها الوجود ، قد تكون غطاء للقدرة العليا ، ولكن القادر الأعلى قد ناط بها الحياة والموت ، والحركة والسكون ، ظن بك الظنون ...

إن القرآن الكريم تحدث عن الأسباب التي تكمن وراء ما نرى وما لا نرى من الموجودات ! يقول تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حَبًّا ونباتًا وجنات ألفافا » . ويقول : « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون » .

وقد تقرر في تجاربنا أن الماء يروى ، وأن النار تحرق ، وأن السكين يقطع وأنه أشاب الصغير وأفنى الكبير كثر الغداة ومَرَّ العشي !.

وقد نسب القرآن الكريم الأعمال الإلهية إلى الأشياء التي لا تعي ، « كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا .. » وقال العلماء : إن هذا على سبيل المجاز والفاعل الحقيقي هو الله سبحانه ، والأسباب كثيرة ومعقدة ومتراكبة ، ونحن ننسب النتائج إليها من باب الإلف والحس ، فلا بد في الذرية من زواج ، ولكن

ما يصنع الزوجان ؟ إنهما عند التأمل لا يخلقان شيئاً ! وهل التراب والماء حول بذرة القمح يصنعان السكر والنشا والعناصر الأخرى في حبة القمح ؟
إنه في ذراع من الأرض تنبت شجيرات متجاورة للورد والنعناع والقرنفل والجرجير ! ما الذى هدى التراب إلى التفاعل مع كل شجيرة حتى تنضج وفق خصائصها وطعومها وروائحها ؟

الواقع أن غشاء الأسباب قد يرقّ جدّاً أمام بعض العيون فلا ترى إلا الصفات الإلهية ، وقد يغلظ أمام عيون أخرى فلا ترى إلا الأسباب الحسية ... وبعد أن تؤمن بأن الله خالق كل شيء عبّر عما ترى بما تريد فلا حرج .. وقد تمهّلت كثيراً في تصديق ناظم العقائد عندنا :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة فذاك بدعى فلا تلتفت
وربما قال بعضهم : إن الجاذبية الأرضية بطبيعتها تضمّ الأشخاص والأشياء إلى هذا الكوكب ! وتستردّ ما يحاول الإفلات منه فتسقطه !
لا حرج عليك أن تقول هذا مادمت مؤمناً بقوله تعالى : «ألم نجعل الأرض كفاً ؟ أحياء وأمواتاً ؟ هذا الكفت وهو الجذب والضمّ من صنع الله وحده ، وقانون الجاذبية تصوير له ، فإذا نسبت إليه ما يقع فلا حرج والتعبير مجازى .. وقانون الأجسام الطافية ثابت ، إنه معرفة لبعض خصائص الماء في حمل الأوزان والأحجام ، وهو من دلائل القدرة العليا «ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام» تستطيع أن تنسب سبب السفن إلى السبب أو إلى خالق السبب ، متنقلاً بين الحقيقة والمجاز ، والمهم اليقين بعمل الله «الذى خلق فسوّى والذى قدر فهدى»^(١) .

قال لى أحد التلامذة : لا مجاز في القرآن ! فقلت له : أين الأغلال في أعناق الكافرين الذين قال القرآن عنهم : «إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى

(١) سورة الأعراف : (٢ - ٣) .

الأذقان فهم مقمحون»؟^(١) وأين السدود التي تحيط بهم من خلف ومن أمام في قوله سبحانه : «وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم ، فهم لا يبصرون»^(٢) ؟

يا بني إن المجاز موجود في الكتاب والسنة ؛ وآداب العرب ، بل موجود في السنة الناس كلهم من عجم وعرب ..

الغريب أن الطالب شرع يقاوم بما لا يُفهم فانصرفت عنه حتى لا يهتمنى بالكفر ، وما أيسر ذلك على بعض الناس !.

إن عمل القدرة العليا متنوع وراء صنوف الخلق ، إن هذه القدرة وراء العقل المفكر ، ووراء الغريزة المتهاجة ، ووراء النبات الذى يشق التربة صعدًا ، ووراء الجهاد الذى لا يتحرك إلا أن يحركه الآخرون ..

وبعض الناس يقول : مادامت القدرة وراء الشجر والحجر فهما سواء !! ومادامت وراء البشر والبقر فهما - فى فقدان الإرادة المستقلة - سواء !!.

وهذا فكر مردود ... فإن الله وزع الخصائص على صنوف الخلق ، وهدى كل نوع إلى أداء وظيفته ، وجعل الإنسان مسئولاً برأسه عن نفسه ، ولم يجعل الحيوان كذلك .

والإنسان بطبيعته طُلعةٌ إلى استكشاف المجهول ، ويود لو يعرف كيف تتفاوت القدرة ، وتتفاوت الأقدار وراء أنواع المخلوقات ، فهل جهازه العقلى يقدر على اكتناه ذلك ؟

لقد حاول إبراهيم عليه السلام أن يعرف شيئًا من ذلك عندما قال لله : «ربّ أرنى كيف تحيى الموتى» ؟

فم أجيب ؟ لقد رأى بالفعل أن الله أحى الموتى ؛ إذ عادت الطيور المذبوحة إلى الحياة مرة ثانية ! فهل عرف : كيف ؟ إن ذلك فوق طاقتنا .

(١) سورة يس : ٨ .

(٢) سورة يس : ٩ .

إننا نحن البشر خلقنا لأداء رسالة كبيرة على ظهر الأرض ، ومُنحنا حرية الحركة يمنة ويسرة ، وقيل لكل امرئ أنت صانع مستقبلك ، إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهل يستطيع نابغة أو بليد أن يعرف كيف يتم التنسيق بين عملنا المستقل ، وإشراف الله على حياتنا ؟ وإدارته لأجهزتنا ؟ ما يستطيع اكتناه ذلك بشر وإن كان حقاً ، وعجزنا عن ذلك لا يعنى أن الحجر والبشر سواء في الوجود والوظيفة والغاية المرسومة ..

وفي ذلك يقول أبو حنيفة رضى الله عنه : « هذه مسألة قد استعصت على الناس فأنى يطبقونها ؟ هذه مسألة مُقَفَّلَةٌ قد ضل مفتاحها ، فإن وجد مفتاحها علم ما فيها ! ولن يفتح إلا بمخبر من الله يأتى بما عنده . ويأتى ببينة وبرهان . وقد قال القوم من أهل الجدل (*) في هذه المسألة : أما علمتم أن الناظر في القدر كالناظر في شعاع الشمس كلما ازداد نظراً ازداد حيرة !! » .

ويقول أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة : لقد اندفع العلماء في هذه الحومة من الجدل ، وتباينت أقوالهم ، واختلفوا ، وكان اختلافهم في أمر فيه متسع للخلاف ، ولم يكن في أمر معروف من الدين بالضرورة ، إنما كان خلافاً فلسفياً على هامش الاعتقاد وليس في لَبِّه ، وهو على أى حال اختلاف يضل السارى فيه ، ولا يجد علماً من أعلام الهداية ينتهى عنده .

ولقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإيمان بالقدر خيره وشره ، وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى : « كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس » .

وكان الصحابة يؤمنون بقدرة الله تعالى ، وبأنه خالق كل شيء ، ويؤمنون بالقدر ولا يخوضون فيه ، بل إذا جاء القدر أمسكوا ، ولكن الذين يريدون أن يثيروا الحيرة الفكرية بين المسلمين كانوا ولا يزالون يثيرون الكلام في القضاء والقدر ، وصلته بالتكاليف والثواب والعقاب ، ولقد سأل بعض الناس الإمام

(*) بعد ما أعياهم البحث .

علیّ بن أبی طالب رضی الله عنه : عن القضاء والقدر وصلته بالجزاء ، فأجابه علیّ بما یزیل الشبهة ، من غیر خوض ، ثم ختم كلامه بقوله : «إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف تيسيراً ، ولم يُعَصَّ مغلوباً ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم یخلق السموات والأرض وما بینها باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فویل للذين كفروا من النار» .

وإن الذى يستخلص من كلام الإمام علیّ بن أبی طالب الذى نقلناه آنفاً : أن علينا أن نطیع الله تعالى فيما أمرنا به ، وأن نجتنب ما نهانا عنه ، وحسبنا فى ذلك أننا نعلم ونحسّ ونشعر بأننا مختارون فيما نفعل ، وأننا فى استطاعتنا أن نفعل ، وآلا نفعل ، وأنه یكفى ذلك لنشعر بما یجب علينا وما لا یصح لنا ، إن الاشتغال عن ذلك بتعرّف أمر مُغْلَق ، قد ضاع مفتاحه لا یجدى فتیلاً .

ولقد قال فى ذلك الإمام الصادق رضی الله عنه : «إن الله تعالى أراد بنا شیئاً ، وأراد منا شیئاً ، فما أرادنا بطواه عنا ، وما أرادنا منا أظهره لنا ، فما بالنا نشغل بما أرادنا عما أرادنا مِنّا ؟

فهو رضی الله عنه ینتدّ بالذين ینصرفون عن التكليف إلى الكلام فيما كتبه الله علينا من خیر أو شر ، وإن العصاة هم الذين یبرّون عصیانهم بما كتبه الله تعالى ، ومنهم الذين یثیرون هذه القضية ، لیضعفوا العزائم عن العمل ... لقد صور الأشعريّ المسئولية الإنسانية عن العمل بكلمة «الكسب والاكتساب» وصورها المعتزلة بكلمة «خلق الأفعال» .

ویقول المشیر أحمد عزت فى كتابه «الدين والعلم» : إن هذه العناوین الكلامية تختلف ألفاظها ، وتتقارب دلالتها ، ولا معنى للانقسام حولها والتنازع بالألقاب ..

والرجل صادق فى حسه ، وما كان ینبغى أن تتألف فرق لخلافات شكلية فى أغلبها ...

وإن كنا نلاحظ أن الأشاعرة أكثر مع الله أدباً ، فهم یثبتون له وصف الحكمة ، ولا یقولون یجب علیه فعل الصلاح والأصلح ، ویفردونه بصفة

الخلق ، ولا يقولون عن الإنسان إنه خالق أفعاله ، وإن كان مسئولاً عنها ...
ويظهر أن تأثر المعتزلة بفلسفة الإغريق وراء هذا الشطط ، وليت المسلمين ما
قرؤوا هذه الفلسفة ولا صححوا لها ترجمة ، إن إثمها أكبر من نفعها .. ومن الخير
أن نعود إلى ينبوع القرآن نستقي منه ونستفيد ، فذاك أولى وأصحّ ...

ليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم

دُخِرَ يوم الحساب أن الله ورسوله أحب إليّ مما سواهما لقد تسلل شعاع من
عظمة الله إلى نفسى ، فأبصرت قصدى ، وأوتيتُ رُشدى ، ورجوت غفران الله
لخطيئى وعمدى !! .

إن هناك سؤالاً لا بد أن يواجهه كل إنسان ! أأكون مخيأه لنفسه أم لربه ؟ فمن
أسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن قرر أن يكرس
عمره لإشباع لباناته وإدراك مآربه فقد خاب وخسر ...

إن إمام الأنبياء استقبل هذا التوجيه الإلهى وعمل به ، وهو « قل : إن
صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت
وأنا أول المسلمين » .

ومن أجل ذلك أخبرنا عليه الصلاة والسلام أن أول ثلاثة تُسعر بهم النار -
ونعوذ بالله من الخذلان - قارئ ومجاهد ومتصدق - وهم بعلمهم الخفية يعكرون
رونق الدين ويضللون سيرته ..

ودورانهم حول أنفسهم يزيّن لهم ظنون السوء بالآخرين ، والظعن فى
أحوالهم وأعمالهم ..

ومن رعوس هؤلاء قتلة عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، فقد اتهموهم بما
هم منه براء ثم استباحوا دماءهم ، وكانت جرائعهم عليهم بالغة ، ما احترموا
شيخوخة ولا سابقة ولا علماً ، ولهم فى ذلك سلف سيئ ! الجهول الذى قال
لرسول الله : اعدل فهذه قسمة ما أريد بها وجه الله ! إنه يريد أن يعلم إمام
الخليقة ، فكيف يقسم ولا يظلم !! .

الإسلام معرفة حسنة لله وانقياد تام لأحكامه ، وافتقار حقيقى لعطائه وتوفيقه ، وانسلاخ عن الأثرة والكبر ، ونظر منصف عطوف إلى عباد الله فلا قسوة ولا جبروت !.

وقد عشت بين المتدينين من هواة ومحترفين ؛ فرأيت عددًا منهم ينسى الأصول ويبالغ في الفروع ، وينفى وراء كلمة الإسلام صلفًا يثير الدهشة ، وهو يرى القشة عند غيره ويذهل عن الخشبة في عينه ..!!.

كان ابن ملجم يرى عليًا جديرًا بالقتل ! أما هو فمن أهل الفردوس الأعلى !!.

وفي تدبّري للقرآن الكريم والسنة الشريفة رأيت الإسلام يبنى الشخصية الإنسانية على سلامة الفطرة وأصالة الفكر ، فمن فسدت فطرته وغامت فكرته هبطت عبادته ، فما تساوى عند الله شيئًا ، «وما يذكّر إلا أولو الأبواب» .

وعلى هذه الأسس يقوم الإصلاح الحقيقى للنفس البشرية .
أنا لا أنتمى إلى فرقة من الفرق ولا أتعصب لمذهب من المذاهب ، وإنما أنظر بأدب وتواضع إلى المذاهب الإسلامية كلها ، مدارس المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين والفلاسفة والمتكلمين والمتصوفين ... وأبحث عن الحق بتجرد .

وفي مجال إصلاح النفس انتفعت برجلين من مشارب مختلفة ، أولهما ابن قيم الجوزية ، والآخر ابن عطاء الله السكندرى ، وما ألزم أحدهما برأى ، فإن الجامع الأول والأخير بين المسلمين أجمعين هو كتاب الله تعالى .. ثم من استبطن هذا القرآن خلقا له ، وبلغ الأوج في هداية الناس به وتربيتهم بحكمته .. المثل الكامل لسائر البشر محمد بن عبد الله ..

وعصرنا الحاضر أحوج العصور إلى الحكمة القرآنية والسيرة النبوية في التهذيب وجهاد النفس والهجرة إلى الله من عالم الشهوات الجلية والخفية ...

ألا فلنعلم أن من عمى عن وجه الله ، واستيقظ من نومه ليتحرك حول نفسه وأهوائه ليس للآخرة في وعيه حساب فهو هالك ، «إن الذين لا يرجون لقاءنا

ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون .

وذكر الله أكبر من أن يكون حركة شفتين ، إنه يقظة قلب ورؤية آيات ، ونصح خالص وهضم للنفس وإعظام لله وحده ...

من وثق بما في أيدي الناس وارتاب فيما بيد الله كيف يكون مؤمناً ؟
من أحبّ أحداً أكثر من حبه لله كيف يكون مؤمناً ؟ «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله» .

من لم يخامر قلبه وجل من الله ، وإنما يخاف فقط فوت منفعة أو وقوع ضرر كيف يكون مؤمناً ؟ ألا يدري قوله تعالى : «اعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه» وقوله : «وإياي فارهبون» ؟

إن الإسلام ينشعب شعبتين : إحداهما تمس القلب لتنشئ فيه مشاعر الرغبة والرغبة ، والصبر والشكر ، والتوكل والحب ، إلى آخر ما أفاض المتصوفة في شرحه ، وامتلات كتبه به ، وفي طليعتها كتابات ابن عطاء الله وابن القيم وغيرهما من السابقين واللاحقين ...

والشعبة الأخرى تتصل بالعقل لتغرس فيه عقائد وأحكاماً شتى ، وقد غصت كتب الفقهاء والمتكلمين بهذا النوع من المعارف المهمة .. وما تغني شعبة عن أخرى .

بيد أني لاحظت أن العوام لهم اهتمامات مثيرة ، فهم يكثرثون لوضع اليد في الصلاة ، أ تكون تحت العنق أم فوق الصدر أم على السرة ! . أكثر مما يكثرثون لفريضة الخشوع ، أو لضرورة تدبّر ما يتلى من قرآن ...

إن المراسم الظاهرة تعنيهم ، وقد يتناولون على الأئمة لاختلافهم في هذه الهيات ، وهذا داء قديم حاول ابن تيمية علاجه في كتابه ، «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ، كما حاول أبو حامد الغزالي ذلك في كتابه : «فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة» .

إن التدين الصوري وراءه أمداد دافقة من القصور العقلي والغرور الأعشى ،

وقد يدفع إلى اقتراح ردائل منكورة ، وقد جاءني أحد تلامذتي بشكوى جديدة بالتأمل ، قال لى : إنه كتب دفاعاً عن كتابي الأخير «السنة النبوية» ونشره ، ففصلته المؤسسة التي يعمل فيها ..

وقرأت الدفاع فوجدت الرجل يقول لخصومي : إذا كان قد ساءكم هذا الكتاب ، فهناك عشرات من مؤلفاته تستدعي الرضا ، على نحو ما قال أبو الطيب :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن ألوف
لقد التحق الموظف المفصول بعمل آخر اتصل به رزقه ا.

وتحدثت مع صديق لى فى القضية كلها فكانت إجابته : لقد نفيت أن وجه المرأة وصوتها عورة ، وأبجت لها ولاية الأعمال الإدارية والسياسية ، فأنت جدير بالنفى من الأرض على الأقل ..

قلت : أهذا دين ؟ قال : سيتحالفون مع الشيطان ضدك !!

قلت مرة أخرى : أهذا هو الدين ؟

كانت نبوءة الرجل صادقة ، وكنت أيضاً صادقاً عندما ساءت ظنوني بعبيد المراسم والأشكال ..

إنه لابد من عمل يقوم به المرء داخل نفسه حتى تصلح ! عمل مرهق جاد يكسر الرغبة الجائعة ، ويخضع الإنسان لوصايا الرحمن ! « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » (١) .

وأشكال العبادات لاتصنع ذلك التغيير الحاسم .. إذا لم تمنح الصلوات الحسد والحقد من نفسك ، فلا صلاة لك ، السجود الحقيقي ليس انطواء الجسم أمام الله بل هو انقياد القلب لهداياته ووصاياه .

الخيطة المعقّدة لاينحلّ ويسترسل إلا بفكّ عقده عقدة عقدة ، ولا تفيد في ذلك تغطية ولا تحلية ، والنفس المعقدة لا تعود لفطرتها ولا تستقيم مع سجيّتها إلا بعد ذهاب عللها ، وعودة العافية إليها ...

فإذا كانت العبادات استعانة بالله على بلوغ هذا الهدف ، وإذا قبلها الله ، وأعان الضارع في ساحته فأصلح نفسه ، وأقام عوجه . فالعبادة صحيحة مقبولة ، وإلا .. فالوضع لم يتغير ..

إنني أراقب نفسي وأراقب من حولى فأرى أن بيننا وبين الصلاح الحق بُعْدًا ، سببه أننا قد نعرف الدواء ولا نحسن التداوى ولا نصبر على مطالبه ..

وهناك من يجهل أنه مريض ، ويقاوم من يطلبون له الشفاء بل قد يزعم أنه هو الطبيب الخبير بكل شيء !

فلنعد مرارا إلى فهم الآيات الكريمة « ونفس وماسّواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » (٢) .

إنني لا أستطيع الفصل بين تقوى الله وحسن الخلق ! ربما عاملنى شخص ما بلطف ، ونظر إلىّ بوجه طليق ، وهذا شيء أحمد له ..

لكن ما العمل إذا كان هذا الشخص لا يذكر الله عهدا ، ولا يشكر له نعمة ، ولا يدين له بولاء ؟ هل أعدّ هذا الشخص فاضلا لأنه أحسن معاملتى على حين أساء معاملته ربه ؟

(٢) سورة الشمس : (٧ - ١٠) .

(١) سورة النازعات : (٣٧ - ٤١) .

أعرف أن الحضارة الحديثة أغفلت الجانب الإلهي وأسقطته من كل حساب ،
لكن هذا المسلك من أوزارها لا من مناقبها ..

الإنسان الخيّر لا ينقسم على نفسه فيكون طيباً هنا وخبيثاً هناك بل تسود خلاله
صبغة واحدة ووجهة ثابتة ..

نحن نعدّ أعداء المجتمع البشري مجرمين لأنهم يعتدون وينحرفون والقرآن الكريم
يثبت الصفة نفسها على من يخاصم الله ويلحد في دينه « ومن أظلم ممن ذُكِّرَ بآيات
ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون » (١) .

وعندما نسمع نصيح لقمان لابنه ، نراه يمزج بين حسن معاملة الله وحسن
معاملة الناس « يا بني أقم الصلاة ، وامر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على
ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصغر خدك للناس ، ولا تمتش في
الأرض مراحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور » (٢) .

إنها سفالة بعيدة القرار أن يكفر امرؤ بالله ويعالنج بحربه ، ثم ينتظر من الناس
التقدير لأنه ابتسم لهم بعدما تجّههم لسيده ! ما يقبل ذلك أحد !

ومعنى الإيمان بالله أن أكون أهلاً لمعرفته وجدير بالانتماء إليه ، ولا يصلح
لذلك إلا من هذب نفسه ، وصان مسلكه ، إنك لا ترشح نفسك لصحبة كبير
إلا إذا أصلحت هيئتك ، وزكيت سيرتك ، فكيف يتمي إلى الله مُسِفٌّ في
أحواله ، مسيء في أعماله ، مريب في خلاله !؟

الواقع أن بعض المنتسبين إلى الدين يُنْفَرُونَ منه بما يلاحظ عليهم من انحلال
وهبوط .. والتدين الفاسد عدوان مضاعف على الدين الحق ، وهو جريمة ارتكبتها
أمتنا في العصر الأخير .

لابد من جهاد دائم للنفس حتى تبرأ من رذائل الأثرة والهوى والعدوان ..
وأى دين يبقى مع بقاء هذه الآفات !؟
يقول الله تعالى : « وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ » (٣) ولا حرج في دفاع المرء عن

(٣) سورة النساء : ١٢٨ .

(١) سورة السجدة : ٢٢ .

(٢) سورة لقمان : (١٧-١٨) .

مصالحه ، أما أن يخرج من بيته كما يخرج السبع من غابه ، لاهمّ له إلا أن يفترس ويغتال فهذه وحشية ، الحيوان لا يفكر إلا في نفسه وأولاده . وبعض الناس ينطلقون في الشوارع لامتلاكهم إلا هذه الفكرة ، فهم ينتقلون من منحدر إلى منحدر ..

وبعض آخر مشغول بهدم الآخرين ، والبحث عن عيوبهم . والتسلى بالآلامهم .. ولا أدري لماذا يتخيل بعض الناس أنه لا يبنى نفسه إلا إذا هدم غيره ١١٢

وهناك باحثون عن اللذة ، يمدون أعينهم إلى المكشوف والمستور من العورات ، وقد حسبوا أن من حقهم إشباع شهواتهم لأن الكبت لا يجوز ، وحبس الرغبة المحرمة من وصايا الأديان البالية !
وهناك متملقون يقبعون تحت أقدام السادة معلنين الطاعة ومنتظرين الأوامر يمدحوا هذا ويشتموا ذاك .

إن فقدان التربية السليمة ، والتدين الحق جعل الدنيا جحيا ، وجعل العلاقات البشرية في الحضيض ..

والحل الفد أن نعود إلى حقيقة الدين ، فنوثق علاقاتنا بربنا ، ونحسن الصلاة له والخشوع بين يديه ، ونجعل علاقاتنا بالناس محكومة بمعالم التقوى وخشية الله والتأهب للقائه ..

إن الدين في الغرب نهج لخدمة الرجل الأبيض ، واستغلال ثروات الأرض ، ونسيان الدار الآخرة ، وقد لفحتنا ألسنة من هذه النار المندلعة ، فلنعد بالدين إلى حقيقته ، ولنجعله ربانية طاهرة ، وأخوة مواسية ، وصالحات مبرورة « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور »^(١)

وهناك أمر أجدني مسوقا إليه وأنا أئأف لما عرامتنا ، وهو أمر قد يبدو

(١) سورة لقمان : ٢٢ .

علميا ، ولكنه عندى من صميم الأخلاق ، ودعائم التربية ..

* * *

الحضارة لا تبني بخصام الكون

يستحيل أن تقوم حضارة إسلامية تخصم الكون وتجهل مفاتيحه ، أو تخصم الإنسان وتجاهى فطرته ، لأن القرآن الكريم يبنى الإيمان على فهم الكون ودراسة الإنسان .

ورجال محمد عندما بنوا لكتابهم دولة ، كانوا يسبحون فى بحر الحياة ، ويتعاملون بذكاء مع تياراته ومدّه وجزره ، أو بتعبير الدكتور « لويس عوض » كانوا علمانيين خبراء بالمادة والمجتمع وشئون الحياة كلها .

سئل الدكتور لويس : هل يحافظ الإسلام حتى يومنا هذا على دعوته الشاملة ؟ فأجاب : كلا ، وإذا كان الإسلام قديما قد استطاع التغلب على بيزنطة فلأنه كان ديناً علمانياً أكثر من الدين المسيحى فى القرن السابع ، كان ديناً معنياً بأمور الحياة ، كما كان معنياً بالغيبيات والروحانيات ! على حين كان نظام بيزنطة روحانياً مغرقاً فى الغيبيات ..

ثم قال الدكتور : ويبدو أن ما تحلم به الجماعات الإسلامية هو الإسلام البيزنطى !

ولست بصدد التعليق الموسع على كلام لويس عوض ، وإنما يهمنى الإشارة إلى أن التربية الإسلامية الصحيحة تقوم على فقه واسع فى الحياة والأحياء ، فى الأرض والسماء ، فى كل ما يؤثر فىنا ونؤثر فيه ، حتى لكأن ذلك كله ديننا وديننا ، وأولانا وآخرانا .. ثم تسخير ما بلغناه بعد ذلك لإرضاء ربنا وكسب آخرتنا ، وفق الآية المعروفة « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »^(١) .

(١) سورة القصص : ٨٣ .

يستحيل أن يكون الجهل بالحياة ديناً ، أو أن يكون الفشل فيها تقوى !
املك الدنيا بذكاء واقتدار ثم وجهها لإعلاء كلمة الله ، وإعزاز الإيمان ورفع
رأيته ..

إن من يملك صفراً في شئون الدنيا لن يكون إلا صفراً في شئون الآخرة ، وقد
رأيت أقواماً لا قدم لهم في آفاق المعرفة يريدون الحديث عن الله ودينه ، فاستغربت
جراتهم وقلت : « الرحمن فاسأل به خبيراً » (١) .
كيف يعرف الله أو يعرف الناس به جاهل بالعالم وما فيه ، وبالتاريخ ومباهجه
ومآسيه ..

إن القرآن كتاب لا يرتفع إلى مستواه رجل عادي ، ومحمد لا يستطيع التأسي به
إلا إنسان في عقله نور وفي قلبه نور .
لا يمكن بناء قاعدة للتربية حتى نحدد أولاً موقفنا من الدنيا . أنعيش لها أم
لدار التي بعدها ؟ أم للآثنتين معا ؟

إن الحضارة الحديثة انطلقت من قاعدة مهّدها عصر الإحياء من خمسة
قرون ، قاعدة بشرية عقلانية ، تدرس السموات والأرض وما بينهما ،
وتستكشف أسرار المادة ، ثم تجعل ثمرات الدرس والكشف لخدمة الإنسان !
هل للدين موضع في هذه الدراسات الجاذبة للدعوى ؟ كلا ، لقد وقعت
عداوة دامية خسيصة بين العلم والكنيسة . جعلت العلماء يعتقدون أن الدين
مرادف للجهالة والجمود ، وأن رجاله أوثان حية رديئة ينبغي الخلاص منها ..
فأين الإسلام عندئذ ؟ لقد انتحر المسلمون في الأندلس ، وقضى عليهم
العنف السياسي والترف الاجتماعي وانشغال العلماء بقضايا جزئية ومسائل جدلية !
لم يكن الأندلسيون في النصف الثاني من تاريخهم نماذج مقبولة للإسلام ، بل
كانوا ينفرون منه ، وفقدوا فقداناً تاماً خصائص الدعوة والدعاة ..
وهذا البلاء انتقل من الشرق الإسلامي إلى المغرب ، فإن فساد السياسة

(١) سورة الفرقان : ٥٩ .

والاقتصاد والعمران تكاثرت جرائمه ، وتنامت نتائجه حتى قضى التتار على الخلافة المعتلة ، ثم قضى الصليبيون من بعد على الدويلات الإسلامية في الأندلس ، والتي كان شغلها الشاغل التنازع على السلطة والثروة ..

صحيح أن الأتراك رفعوا راية الخلافة ، واستطاعوا في زحف باهر أن يخترقوا شرق أوروبا حتى النمسا ، لكن الأتراك كانوا قوة عسكرية ، ولم يكونوا فجرا ثقافيا جديدا ، ولو صحبهم جهاز للتربية والتعليم ، والبلاغ المبين لكان لهم في الأقطار المفتوحة شأن آخر !!

إنهم رفضوا أن يتعربوا كما رفض العرب أن يؤثروا على أنفسهم ، وأن يتركوا السلطان لغيرهم ، فكان التوسع الإسلامي خاليا من بذور الحضارة الأولى ، ومن أسباب الحياة الصحيحة ، فسرعان ما انهار ، وانهار العالم الإسلامي بعده ، وأصبح أثرا بعد عين !

أما الأوروبيون ، فبعيدا عن الدين قرروا حرياتهم السياسية ، ووضعوا « الماچناكارتا » بعد قتل الملك المستبد - حدث ذلك في إنجلترا -

واشتعلت الثورة الفرنسية ، وكانت هي الأخرى كافرة بالدين ، ووضعت لأصحابها نظاما آخر ، وكانت ثورة تتسم بالبطش وتسرف في الفتك ..

ثم جاءت الثورة الحمراء مصحوبة بسيول من الدماء ، وألوان من الوحشية ، وقد هدمت الكنائس بعدما فرغت من أهلها ، أما المساجد فقد دفنت أهلها فيها ، ومصابب الإسلام في الاتحاد السوفيتي يحتاج إلى دراسات واسعة !!

المهم بعد هذه النظرة الخاطفة أن حضارة الغرب قامت من قرون على الكفر بالله ، وإن كانت قد انتفعت ببعض الخلفات الإسلامية والإنسانية في نهوضها ..

بيد أن شيئا مثيرا قد حدث مع بدايات القرن الأخير ، فإن الصليبية لعقت جراحها ، وأخذت تقترب من المنتصر ، تتوَدَّدُ إليه ، وتعرض عونها عليه ، وكذلك فعلت الصهيونية ، واصطلح الجميع على إحراج الرسالة الخاتمة ، والاستيلاء على ميراثها الضخم ، وقد بدأ لكل عين أنه ميراث لاصحاب له ، أو بتعبير آخر لاحارس له !!

وشعر أتباع محمد بحرب الإبادة تقترب منهم ، ونيات الغدر والفتك تلمح
كيانهم ..

واستيقظت نوازع الحياة في الأمة المنكوبة ، وشرع المدافعون في ميادين العلم
والتربية ، والاقتصاد وال عمران ، يتنادون لإنقاذ الرسالة التي أحدق بها العدو من
كل ناحية ...

إن البلاء شديد ، ولكن طريق الخلاص منه واضح ، وبقدر ماثوب إلى
رشدنا ونستمسك بكتابتنا تقوى الحصون ، ويتراجع العادون ..
والأساس تربية صالحة على نحو ما فعل سلفنا الأولون ، فما معالم هذه التربية ؟
التكليف حتى قيام الساعة :

التربية عمل يستغرق العمر كله ، منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل ، ومن
الخطأ تصور أنها بناء يتطلب بضعة شهور أو بضعة سنين يعقبه استرخاء واسترخاء .
المؤمن مع نفسه كقائد السيارة يظل يقظا طول الطريق ، وإلا فقد يهلك في ساعة
إغفاء ..

وقد ألفنا في حياتنا أن نجعل طلب العلم مراحل ، وأن نمنح الدارسين إجازات
أوشهادات تدل على ما نالوا منه ... فهل التربية كذلك ؟ لا ! إن الأقساط التي
ننالها من الاكتمال النفسي لم توضع لها سلام واضحة ، ولم ترصد لها علامات ،
يبدو لأن علم ذلك عند الله وحده أولا ، ولأن التربية ليست مناهج موقوتة ،
يقاس تحصيلنا فيها حيناً بعد حين ..

إن المرء يجاهد نفسه بالغدو والآصال ، سائرا إلى ربه بثبات ، والسائر إلى الله
يترضاه بفعل ما أمر وترك مانهياً ، ولا يزال سائرا يطوى مراحل حياته . حتى إذا
قارب النهاية قيل فيه : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ،
ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون »^(١) .

لقد طابت نفسه كما يطيب الثمر على أغصانه ، ثم يعىء الحصاد في إبانه ،

(١) سورة النحل : ٣٢ .

فإذا نفس تهبأت لسماع النداء الأخير « يأتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى »^(١) .

وتتناول التربية الإنسان من عدة نواح : الأولى شعوره بنفسه - أعنى عبادة الذات - فالشعور الإيجابى بالذات يكاد يكون حجر الزاوية عند بعض الناس ، وهو أساس الفخر والكبر وحب الظهور ، وطلب الثناء والانسحاق مع مطالب الرياء ، وهو مصدر الحقد والحسد والعداوات الممتدة ظاهرة وباطنه ..

والواقع أن الإنسان عندما يدور حول نفسه وحدها ، لا يصلح لشيء ولا يصلح به شيء ، ولعل ذلك سر اتفاق العلماء على أن أعمال القلوب أهم من أعمال الجوارح . وأن معاصي القلوب أخطر من أنواع العوج الأخرى ..

ولن ينجو المرء من هذا الداء إلا إذا وثق روابطه بالله ، وصفى نيته معه ، وحرص على ابتغاء وجهه وانتظار ما عنده .. وجعل هضم النفس ، واحتقار العاجلة أغلب على سيرته ، وأوضح فى شتى معاملاته ..

ويختلف حب الناس للشهوات اختلافا واسعا ، نعم إنهم متفقون على إجابة غرائزهم البدنية ، بيد أنى لاحظت أن هناك من يحب الطعام ، وهناك من يحب النساء ، وهناك من يحب المال ، وهناك من يحب الشهرة ، وقد يضحي بشهوة فى سبيل أخرى آثر لديه !

والتربية الصحيحة تستبقي من الشهوات القدر الذى تقوم به الحياة ، وتراقب بجذر ما فوق ذلك . وفى تراثنا الدينى معالم مشرقة لهذا المنهاج الذى ينشئ النفوس إنشاء على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ..

وقد تأملت فى التراث الإنسانى الخصب ، الجامع بين الدين والفلسفة والأدب ، فلم أجد أغنى ولا أدق ولا أرق من الثروة التربوية التى تركها محمد عليه الصلاة والسلام .

هناك عدة آلاف من الأحاديث المقبولة ، وهناك معالم سيرة إنسانية طهور ،

(١) سورة الفجر : (٢٧ - ٣٠) .

تسبح في فلك لا يسفّ أبداً ، قد يهوى النجم ولكن محمداً يستحيل أن يهوى ...
 وطريق الاكتمال والتسامي هو التزام هذه الأسوة ، والاستمداد الدائم منها .
 ويتطلب ذلك نوعاً من المعاناة والمجاهدة ، يعجز عنها إلا من عصم الله ..
 إن التربية ليست وضع البذور في أرض على رجا مطريجيء أو لا يجيء ، ولا
 جهد وراء ذلك ، كلا ، إنها بذر وسقى وتعهّد ، ومطاردة للحشرات والأوبئة ،
 ومتابعة صاحبة حتى أوان النضج ..
 والمربون هم البيت - وأساسه المرأة - والمدرسة والمسجد ، والشارع والدولة ،
 بما ملكته في العصور الأخيرة من قدرات اقتصادية وثقافية وإعلامية ..
 والحق أن الصحابة والتابعين كانوا نتاج تربية نبوية مباشرة ، جعلت منهم
 الجيل الذي حوّل الحضارة الإنسانية من حال إلى حال ..
 وأشعر اليوم بشيء من الأسى واليأس لأننا لانجمع من عناصر التربية ما يجعل
 أمتنا تنبت في مغارسها ، وتجدي على رسالتها .. ذاك في وقت تعربد فيه شياطين
 الإنس والجن ، ويكاد الهوى ينفرد بزمام العالم أجمع ..
 لا بأس أن أقسم الأخلاق إلى قسمين : أخلاق ربانية وأخلاق إنسانية ،
 ولأرجئ الحديث الآن في القسم الثاني مع أن كليهما ضروري لصدق الإيمان
 واكتماله ..

المؤمن الناضج الاعتقاد يتجاوب مع قول الرجل الصالح : « وأفوض أمري
 إلى الله إن الله بصير بالعباد »^(١) فمن نصب قواده من التفويض إلى الله فقد
 الأخلاق الربانية ..

والمؤمن الناضج الاعتقاد يتبع هودا وهو يقول لقومه : « إني توكلت على الله
 ربي وربكم ، مامن دابة إلا هو أخذ بناصيتها »^(٢) فمن خلا قلبه من هذا التوكل
 فقد فقد دعامة من معالم الربانية ، وانطلق في الحياة محصوراً داخل نفسه .. !
 والمؤمن الناضج الاعتقاد يقتنع بقول الله له : « وإن يمسك الله بضرب فلا

(١) سورة غافر ٤٤ .

(٢) سورة هود : ٥٦ .

كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير» ^(١) فمن حسب أن أحدا يكشف ضره بعيدا عن الله ، أو أن ذا سلطان يسوق إليه الخير بعيدا عن الله ، فقد تجرد من الأخلاق الربانية !

والمؤمن يكتفى بنظر الله إليه ، ورقابته عليه ، ويعى بعمق قول الله : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحد » ^(٢) فمن رفق وجها آخر ، وأمل الخير عنده فقد عرّى عمله عن الإخلاص ، وفقد الأخلاق الربانية ...

وعلماء القلوب شحنوا كتبهم بهذه المعاني ، لأنهم موقنون بأن معاصي القلوب أخطر من معاصي الجوارح ، فهذه المعاصي القلبية سرطان يأتي على الإيمان من القواعد ..

الخلاف الفقهي ليس معصية :

ولقد لاحظت - واستغفري وأستعيز به - أن عددا من قادة الثقافة ورجال السياسة ، مبتلون بهذا السرطان ، وأن عبادة الذات والتفوق في مطامعها يسيطران عليهم ..

ويشاركون في هذا البلاء أذئاب يطئون حول مآربهم ومجالسهم طنين الدباب ..

أمراض القلوب لا الخلاف الفقهي أخطر شيء على الدنيا والدين معاً .
ما الخلاف الفقهي ؟ إنه كالخلاف بين المحافظين والعمال في إنجلترا ، أو كالخلاف بين الجمهوريين والديمقراطيين في أميركا .. هؤلاء الناس متفقون على الأصول الرئيسية والأهداف العامة ، وربما تفاوتت أنظارتهم في الترتيبات الداخلية لنظام البيت ..

(١) سورة الأنعام : ١٧ .

(٢) سورة الكهف : ١١٠ .

أما في أمتنا فقد رأيت الرعاع يبنون العلالى على هذا الخلاف ، ويخرجون منه بنتائج مدمرة ..

لنفرض أن رجلا يتبع أبا حنيفة ولا يتبع ابن حزم ، أو بالعكس ! ما علاقة هذا بالقرب من الله أو البعد عنه ؟ وما صلة هذا بالفسوق أو التقوى ؟ هذا خلاف يحكم فيه بالخطأ أو الصواب ، إنه خلاف عقلى فى نطاق محدّد ، ومن السفه ربطه بحقيقة الدين أو وحدة الأمة ..

فلو تصورت أن مخالفا لابن حزم - أيام سلطانه - وشى به إلى الصليبيين كى يبطشوا به ، فأنا أعدّ الواشى مرتدّا ، أو هو من سلالة أبى لؤلؤة أو ابن ملجم .. ومثله فى الزيغ من يفضلون أن تحكم أفغانستان الشيوعية ولا يحكمها أبو حنيفة ، أو من يسوون بين الشيوعيين والأحناف ..

ويوجد متدينون فى عصرنا ينحدرون إلى هذا الدرك من الغباء أو الحقد ، وقد آذوا لله ورسوله بهذا الفكر الوضعى ، وذلك سر حملتى عليهم وضيق بهم .. إن الخلاف الفقهى فى ديننا - إذا استوفى شرائطه العلمية والخلقية - لا يسمّى معصية أبداً ، بل كل مجتهد مأجور بإجماع الأمة ...

والذين يتذرعون بالخلاف فى الفروع للغمز واللمز ، والتزريق والتفريق جديرون بالتأديب ..

ولا أصدق أن رجلا مؤمنا استجمع الأخلاق الربانية يسفّ إلى هذا المستوى ...

ونتحدث الآن عن الأخلاق الإنسانية كالصدق والأمانة والوفاء والشرف .. إلخ وإنما سميتها كذلك لأنها عامة تشمل المسلمين وغيرهم .

وأضداد هذه الأخلاق هى أركان النفاق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من خصال النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

والغريب أن الفجور فى الخصومة ، والعبث بالعقود والعهود ، والاستهانة

بالكلمة ، والإضاعة للأمانات ، كلها تكاد تكون عادات مألوفة بين الكثيرين ، وإن المسلمين لا يلتزمون بما ورثوا من دين في ميادين الأخلاق عامة إلا من عصم الله ..

على حين نجد أتباع ملل أخرى يتحرّون في معاملاتهم ومسالكتهم مكارم الأخلاق ، ويترقّعون عن الفوضى والإسفاف والتسيّب !
وقد قلت : إنني نظرت في تراث العظماء ، فلم أجد أغنى ولا أذكى ولا أوسع ، ولا أرفع مما تركه محمد في ميدان الأخلاق ، فما الذي باعد الأمة عن تراثها وزحزحها عن قواعدها ؟..

إن الخلق العظيم لأمة ما نتاج جملة من العناصر المتكاملة ، تلتقى فيها العقائد والعبادات والأحوال الاقتصادية والسياسية ...
ثم إن الخلق ليس قراءة ورقة ولا سماع درس ، إنه صناعة شاقة ، وتجارب متكررة ، وتكلف مستمر ينتهي بأن يكون ملكة قائمة وصبغة ثابتة .
وقد لاحظت أن جهودا شيطانية بذلت ، ليكون الإيمان عقيا ، بالتأويل والتعطيل المتعمّدين ..

فقد يكون الإيمان عند البعض كلمة فقط لاعمل معها ! وقد يكون العمل نافلة يزدان بها وقد يستغنى عنها .. وصور العبادات تؤلّف أسفار في ضبطها ، أما جوهرها الباطن فقلما يُكثّر به .
وقد نشأت عن ذلك مفارقات رجحت كِفّة المجتمعات الكافرة ، وهوت بكفة المجتمعات المؤمنة ! فقول الزور في ديننا يعادل الشرك : « اجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور » (١) .

وقول الزور كبيرة في قضية صغيرة بين رجلين أو امرأتين ولكننا في العالم العربي مثلا نصنع انتخابات مزوّرة يجهاز يشترك فيه عشرات الألوف من الناس ، وتتواصى الأطراف المعنيّة بقبول نتائجها ، وتسكت الجماهير الغفيرة مُعْضِيَةً أو عاجزة ...

(١) سورة الحج : ٣٠ .

وهذا الوضع لاتعرفه أمم علمانية ، تحتقر الزور ، وتحترم الحق ، وتنظر إلى الكلمة المنطوقة على أنها رباط خطير ، وكأنها هي التي نفذت قول القرآن الكريم : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون »^(١) .

إننا فقراء إلى الأخلاق الربانية والأخلاق الإنسانية على سواء ...
وقد أدركتُ ظهرى لمتدينين قصّروا ثيابهم وتمنّوا الموت الزؤام لمن يخالفهم في أن لحم الجزور ينقص الوضوء ، وأن شهادة المرأة لا تقبل في الحدود والقصاص ... إلخ

من الأخلاق الربانية والإنسانية بنيت الأمة الإسلامية ، والبناء باق مابقيت هذه الأخلاق ، فإذا هت تصدع الصرح كله ، وتعرض للضياع .

إن العقائد هي التي تصنع المثل العليا ، والمثل العليا هي التي تهيمن على السلوك وتوجهه ، والعقائد طور للنفس الإنسانية ينقلها من الميوعة إلى الثبات والصلابة ، والأخلاق هي القوالب التي تصاغ فيها حركات المرء وسكناته ، ويستحيل أن يتوفر الاحتراف لأمة لم تستقر عقائدها وأخلاقها ...

وقد شرحنا في كتبنا الأخرى الإعجاز المحمدي في تكوين العرب وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، إن هذه السياسة التربوية التي رسمها أمير الأنبياء لاتزال وحدها القديرة على إعادة البناء المتصدع ، وإنقاذ أمة كبيرة من مهاوى الفناء والهزيمة

(١) سورة النحل : ١٠٥ .

الفصل السادس

لمحة عن الابتداء

نحن نستعيد بالله من الشيطان الرجيم عندما نقرأ القرآن الكريم ! لماذا ؟ لأن القرآن كشافٌ بعيد السَّنا شديد الألق يهْدِي للتي هي أقوم ، ويعصم من الزنح والزلل !

والشيطان حريص كل الحرص على أن يسير الإنسان في دروب الحياة لا نور معه ، ولا حصانة له ، لعلَّه يتردَّى فلا يقوم ، أو يتيه فلا يصل ! من هنا يجب أن يصرف الإنسان عن التلاوة ، ويحرمه بركات الوحي ، فإذا قاومه وبدأ يتلو هجم عليه بالوساوس والهواجس حتى يقرأ بلا تدبُّر ولا انعاظ ! ومن الناس من يباشر التلاوة وقلبه مسروق ومشاعره مُعطلة ، وليس أولئك عباد الرحمن ، فإن الله وصف عباد الرحمن بقوله : « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يحزوا عليها صما وعميانا » (١) .

لذلك وجب علينا قبل أن نقرأ القرآن أن نستعيد بالله من الشيطان الرجيم . حتى نحسن الفهم والتزكية !

وجمهور المسلمين ضمَّ إلى الاستعاذة التسمية ، وليس في ذلك حرج ! فالتلاوة أمر ذوبال ، إنها ليست مطالعة صحيفة من الصحف أو كتاب من الكتب ! والبدء باسم الله يتمشَّى مع الحديث الشائع ! قال بعض قصار العقول : بل البسملة بدعة لا تجوز ! قلت : إذا كان الدليل

(١) سورة الفرقان : ٧٣ .

العام يتناول مسلكا فلا مجال لنسبتي إلى الابتداع ، إذا لم تفعل فدعني أفعل ، ولا تثريب عليّ ولا ألومك على سكوتك !

وتذكرت أن رجلا من الصحابة اخترع صيغة من الأدب العالى فى الثناء على الله ، سمعها النبىّ صلى الله عليه وسلم فسّر بها ونالت رضاه .
أخرج الطبرانى بسنده أن النبىّ عليه الصلاة والسلام مرّ على أعرابيّ وهو يدعو فى صلاته يقول : « يامن لاتراه العيون ، ولا تحالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولا تغيره الحوادث ، ولا يئشنى الدوائر ، يعلم مثاقيل الجبال ، ومكايل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ، لاتوارى سماء منه سماء ، ولا أرض أرضا ، ولا بحر مافى قعره ، ولا جبل مافى وعره ، اجعل خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوما ألقاك فيه » .

فوكّل رسول الله بالأعرابيّ رجلا ، وقال : إذا صلى فأتنى به ، وكان قد أهدى بعض الذهب إلى رسول الله ، فلما جاء الأعرابى وهب له الذهب ، وقال له : تدرى لم وهبت لك ؟ قال الأعرابى : للرحم التى بينى وبينك ! قال الرسول الكريم : إن للرحم حقا ، ولكنى وهبت لك الذهب لحسن ثنائك على الله !! .
الواقع أن مديح الأعرابى لله قطعة من الأدب العالى يعجز عن مثلها المهرة فى فن القول ، وهى جديرة بتكريم الرسول لها ! وهى ناضجة من قلب أشرق عليه أضواء المعرفة الإلهية ومشاعر الذكر والشكر ، أى أنها متسقة مع الأدلة العامة فى ديننا ..

ولو سمعها بعض الأجلاف لقال هذه بدعة ، كما يصف بالابتداع بدء التلاوة باسم الله ، وختمها بتصديق الله ..
ونزيد الحكم وضوحا فنقول :

إن حماية الدين من البدع المحدثّة فرض لازم ، حتى يبقى على أصله السماوى وصلاحيته المطلقة ، فإن بلاء الدين كله جاء من أصحاب الفكر القاصر والقصد المائل والطبع الغالى !

ونحن نعلن حرباً شعواء على الغش الثقافي في ميدان التدين مستصحبين في هذه الحرب قول الرسول الكريم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » .

ومن الفقهاء الذين برزوا في هذا الميدان أبو إسحاق الشاطبي ، وأظنه واضع هذه القاعدة : « ما تركه النبي عليه الصلاة والسلام مع وجود الداعي وانتفاء المانع فتركه سنة وفعله بدعة » . وهي قاعدة جليئة تحمي الإسلام من تقاليد رديئة ، اختلقها المسلمون في مناسبات كثيرة ، وحسبها العامة ديناً وماهى بدين !

ونحن نحترم هذه القاعدة مع إضافة وجيزة تشرحها ! هناك أدلة عامة في الدين يجب النزول عندها ، بيد أن صورها تتجدد على اختلاف الليل والنهار كفعل الخير مثلاً - وهناك أمر به - وكالتواصى بالحق والصبر ، والتعاون على البر والتقوى ، والجهد بالنفس والمال واللسان ... إلخ .

إن صور الطاعات هنا تكثر وتتغير ، فهل تدخل في باب الابتداع ؟ كلا ! لكن ما الضابط الذي نحترز به من البدع ؟

الخوف هو تحويل الصورة التي يقوم بها امرؤ ما ، إلى قانون عام يُحمد فاعله ويُذم تاركه ، وكأنما هو وحى من عند الله ...

سئلت عن التلاوة الجماعية للقرآن الكريم في بعض مساجد المغرب ..؟ فقلت : لا آمر بها ولا أنهي عنها ، والأحب إليّ أن أقرأ وحدي ، وليس لمن يفعلها أن يشد الناس إليها ، أو يلوم من تخلف عنها ...

وسئلت عن شيخ ينصح تلامذته ومريديه بالمحافظة على الوضوء وتجديده كلما انتقض ، قائلاً : إن الشعور بالطهارة الحسية يعين على الطهارة الروحية ، ويبعث على التسامى ! فقلت : لم يرد أمر بذلك ، وللصفاء الروحي طرق شتى ، قد يكون من بينها أن يجدد المسلم وضوءه كلما أحدث ..

على أن عدّ ذلك قانوناً عاماً ملزماً لا أصل له ..

إن الغلو في الدين قد ينتقل من الفرع إلى الأصل ، ومن الجزئيات إلى الكلّيات ، وهو علة ما وقع في أديان سبقت ، وشردها عن الصراط المستقيم ، قال

تعالى : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا ، وضلّوا عن سواء السبيل » ^(١) .
والبدع تعرض للناس في مجال العبادات التي لا مجال فيها للفكر البشري لأن مبنائها على التوقف حتى يأذن الله ..

أما الوسائل الحرة لما أمرنا به من جهاد علمي أو مدني أو عسكري ، فلا صلة لها بته ببدعة ولا سنة ، وقد تكلفنا الظروف باختراع أمور لاعهد بها للتبيين الأولين !
كغزو الفضاء والسفر إلى القمر أو المريخ ووصف هذه الأمور بأنها بدعة لا يجوز ولا نقبله من أحد .

(١) سورة المائدة : ٧٧ .

الفصل السابع

إعادة كتابة التاريخ

هناك بواعث مُلحّة على إعادة كتابة التاريخ الإسلامى حتى القرن الخامس عشر للهجرة يتعاون فيها جملة من العلماء الثقات والمحققين المهرة ...

إن المآخذ كثيرة على السرد التاريخى الشائع بيننا ، وهى مآخذ تجعل هذا التاريخ لا يخدم الشخصية الإسلامية ، ولا يحقق المنافع المرجوة منه تربويا وسياسيا ..

وأول ما نلاحظه أنه - من ناحية الكم - ناقص ، فالمسلمون خمس العالم تقريبا ، وقد دخلت فى دين الله أجناس شتى ، فمع العرب الترك والفرس والأكراد ، والهنود والزنوج ، وأجيال من الصين والمغول والأندونوسيين والماليزيين ، وهى أجناس تنتشر بين المحيط الهادى والهندى والأطلسى ..

ثم هناك جماعات غفيرة فى طول أوروبا وعرضها ، وأخرى فى الأمريكتين ! والتاريخ الذى يدرس هو لجماعة محدودة من المسلمين تسكن ما يسمى الآن الشرق الأوسط ، يهتم فيه العرب بأنفسهم وحدها !

وإذا اتسعت هذه الدراسة قليلا تناولت ما يمتّ إليهم بسبب قريب ، أما إخوة العقيدة المنتشرون فى المشارق والمغارب فإن الحديث عنهم من الفضول ، وربما لا يقع لهم ذكر عن غفلة أو عن عمد ..

ومع نجاح الغزو الثقافى فى تمزيق أوصال الإسلام وتشتيت أمته ، أمسى المسلم فى مصر مثلاً لا يدرى أو لا يكتثر بما يقع لإخوانه المؤمنين بعيدا عن أرضه ...

وقد رأيت البانيا - وأكثر من تسعة أعشارها مسلمون - يفترسها الإلحاد ولا يسمع لشكايتها أحد ..

ورأيت المسلمين في الفلبين - وعددهم أكثر من بضع دول عربية - تستهلكهم الفتن ولا يهب لنجدتهم أحد ...

وعندما سقطت راية الخلافة عن أدرنة لم يبكها إلا شوقي الشاعر :

يا أخت أندلس عليك سلام ! هوت الخلافة عنك والإسلام !

مثل مابكي المتنبي أبا شعجاع فاتكا ، أو مثل مابكي ابن الرومي ابنه !!

الفجيعة لا تزيد عن ذلك !!

لقد أضحى أمر الأمة فرطاً ، وأضحى تناصرهم المكتوب حلماً ، ويكتب

التاريخ الآن كتابة طائشة ، لاتمثل الإسلام لامكانا ولازمانا ولاحقيقة ..

وأذكر أني اشتبكت في جدال حاد مع أحد السفراء الذي أنكر علىّ وصفي

لصلاح الدين الأيوبي بأنه كردى !

إنه مسكين يريد تكذيب الواقع التاريخي ! وضحكت وأنا أذكر وصفا آخر

للسلطان « قطر » قاهر التتار ، فقد افتتح مسجده في مصر على أنه من قادة القومية

العربية !!

على العرب الذين حملوا راية الإسلام أن يدركوا أن العروبة ليست دماً .

وإنما هي لسان ، وأن الولاء ليس لأنسابهم ، وإنما هو للدين الجامع ، وأن

التاريخ الإسلامي إذا بدأ بالجزيرة حيث هبط الوحي - فإن دائرته تمتد مع

خطوط الطول والعرض إلى ما شاء الله ، وأنه مع اندياح هذه الدائرة تذوب

عصبية كثيرة فلا يبقى التفاف إلا حول الوحي ، ولاتبقى راية إلا راية التوحيد ..

ومن ثم فنحن لا نقبل تاريخاً للإسلام وأمتة يتجاهل هذه الحقائق ..

وإذا كان التاريخ الشائع الآن منقوصاً من ناحية « الكم » فهو منقوص

كذلك من ناحية « الكيف » ! ولا يزال التلامذة في المدارس يقرؤون أن بغداد

عاصمة الخلافة العباسية سقطت في أيدي التتار وحدهم ، وأن هذا الجنس

الفوضوى أغار على قاعدة الإسلام بدوافعه الخاصة .

وما يدرسه التلاميذ غلط كبير ، والأوروبيون يدرسون ما وقع في دار الإسلام على أنه غارة مغولية صليبية ، قام فيها التتار بالدور الذى تقرر عليهم ، وقام الصليبيون بدور مماثل ...

وقد كان رسل الكنيسة الغربية ناشطين داخل دولة الخلافة وحولها والمسلمون نيام !

ومعروف أن القائد العام التتارى كان نصرانيا ، وأن زوجة هولاء كانت نصرانية .. وأن الأقليات الدينية كانت تشعر بما وراء الأكمة ، وقد تحركت عند اقتحام التتار المدينة المنكوبة ، وسجل ابن كثير في البداية والنهاية شتماتها وفرحتها ، وكان رحمه الله لا يدرى السبب !!

في عصرنا الحاضر يؤخر نشر الوثائق العسكرية والسياسية سنين تبلغ الثلاثين ، ثم تذاع ولا يبقى سر !! فما الذى يجعل تاريخنا باقيا على قصوره سبعة قرون ؟ ندرسه للطلاب على نحو غير صحيح ؟

لقد قرأت عن فضل الحملة الفرنسية على مصر ! وقرأت عن فضل الاحتلال الانكليزى لمصر ! ورأيت صحائف ملأى بالزور عن حقب شتى ... وأحسب أنه لابد من إعادة كتابة التاريخ على نحو سليم ، نبدأ كتابة ما تجاوزناه ، ونعيد تصحيح ما غلطنا فيه ...

وما خلا قرن من شاهد صدق ! وما تغيب الحقيقة عن باحثين عنها ! المهم أن نستدرك ما فاتنا ، وأن نستنقذ الحقائق من الأتربة التى أهيلت فوقها ، وألا ندع المبطلين يفرضون علينا أغراضهم السيئة .. إن آثار التاريخ فى صناعة الأجيال المقبلة لا يمكن إنكارها ، فهل نترك تراثنا وأبناءنا للخراصين والحاquدين ؟؟

المؤرخ المسلم يجب أن يعرف طبيعة الإسلام ووظيفة الدولة التى تقوم باسمه .. إن وظيفتها أكبر من توفير الطعام للجمهور أو العمل على رفع مستوى المعيشة ...

إن لها رسالة أكبر من ذلك وأسمى ! يجب أن تحمى الإسلام من أعداء

يتربصون به ، وأن تزيج العوائق من طريق دعوته فلا تصادَر ولا يقف مسيرتها
الفتانون ...

كأن للناس ثأراً عند حملة التوحيد ، فهم لا يفتنون يطلبونها به ! أو كما
وصف الكتاب الصادق : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن
استطاعوا » .

فهل وعى ذلك الحكام المسلمون ؟ أم أن كثيراً منهم اتخذ الحكم مغنماً وأخلد إلى
الأرض ؟

على المؤرخ المسلم أن يحدّد موقف كل حاكم من واجبات دينه ، وهل أحسن
إعداد الأمة لحمل رسالتها أم لا ؟
ومعروف أنه وراء كل هزيمة فادحة أخطاء خفيّة أو جليّة فشّت في الأمة ،
وأذهبت ريجها ، فهل بحثت هذه الأخطاء ، وتمّ التنبيه إليها والتحذير منها ؟ أم
سجلت أخبار المد والجزر والهزيمة والنصر كما تسجل وكالات الأنباء خبراً عن
عارضة أزياء أو مباراة شطرنج ! !

ليس هولاءكو وحده :

كتب الدكتور أحمد صبحي منصور هذا الفصل النفيس في النقد الذاتي
للتاريخ الإسلامي ، ننقله عنه مقدرين للفكر الذكيّ الذي أملاه .
« من بين عشرات السفاحين الذين أهلكوا الحرث والنسل يتمتع « هولاءكو »
بمكانة خاصة في تاريخنا الإسلامي والعربي ، فهو السفاح الذي أطاح بالدولة
العباسية ، والذي قتل في بغداد سنة ٦٥٦ هـ ما يقرب من ٢ مليون نسمة .
إنه سجل دموي يستحق عليه هولاءكو - بلا شك - كراهيتنا واحتقارنا ،
ولكن المسئولية لا يتحملها هولاءكو وحده .. !

اللوم ينبغي أولاً أن يوجه إلى أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي ، الذي
حمل أمانة المسلمين ففرط فيها ، والذي مازال بعضنا يذرف الدموع حزناً عليه .

وعلى الخلافة العباسية التي تمثل حتى الآن حلما من أحلام اليقظة لدى بعض الناس في عصرنا ...

وقد وصفه المؤرخ ابن طباطبا بقوله : « كان مستضعف الرأي ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بالمملكة ، مطموعا فيه ، وكان زمانه ينقضى في سماع الأغاني والتفرج على المساخر .. وكان أصحابه مستولين عليه ، وكلهم جهال من أراذل العوام » .

وقد يقال : إن المؤرخ ابن طباطبا كان شيعي المذهب ، يتحامل على الخليفة المستعصم المشهور بتعصبه لأهل السنة ، إلا أن مؤرخا سنيا موثوقا فيه مثل ابن كثير يتفق مع ابن طباطبا في رأيه يقول عنه : « كان محبا لجمع المال ، ومن ذلك أنه استحلّ الوديعة التي استودعها إياه الناصر داود المعظم ، وكانت قيمتها نحو من مائة ألف دينار ، فاستقبح هذا من مثل الخليفة »

وأدى نهم الخليفة بالمال وحرصه عليه إلى أن عرض الخلافة للخطر حين هدهدها المغول ، إذ إنه قطع عن الجنود أرزاقهم في وقت هو أحوج ما يكون إليهم فيه .

يقول ابن كثير إنه : « صرف الجيوش ، ومنع عنهم أرزاقهم حتى كانوا يتسولون على أبواب المساجد وفي الأسواق ... وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله » .

على أن شح الخليفة المستعصم بالأموال على الجند في وقت حاجته لهم يقابله في الناحية الأخرى إسرافه الشديد في الإنفاق على خدمه وأتباعه من الظلمة الذين يأكلون أموال الناس ، وكان أولئك الخدم من الجهال وأراذل العامة والمماليك الذين صعد بهم الزمن الرديء ، في عصر انحلال الدولة العباسية ، فاحتكروا الثروة بينما عاش العلماء والأشراف يتضورون جوعا .

ولنضرب أمثلة تاريخية على ماجرى في أواخر الدولة العباسية ، حين أغدقت الأموال على الخدم فأصبحوا أعجوبة في الثراء ، ومنهم :

١ - علاء الدين الطبرسي الظاهري ، كان دخله من أملاكه نحو ٣٠٠ ألف

دينار ، وكانت له دار لم يكن ببغداد مثلها ، وحين تزوج دفع صداقا قدره ٢٠ ألف دينار .. ووهب له الخليفة المستنصر ليلة زفافه ١٠٠ ألف دينار ، وألحقه بأكابر الدولة ، ومنحه صنيعة كانت تدرّ له دخلا يزيد على ٢٠٠ ألف دينار سنويا .

٢ - مجاهد الدويدار ، قيل عن أملاكه : إنها كانت « مما يتعذر ضبطه على الحساب » ... وفي ليلة زفافه حصل على هدايا من الجواهر والذهب ما يزيد على ٣٠٠ ألف دينار وفي صباح زواجه أنعم عليه الخليفة المستعصم بـ ٣٠٠ ألف دينار ، وكان إيراده السنوي من مزارعه وأملاكه أكثر من ٥٠٠ ألف دينار .

٣ - عبد الغنى بن فاخر ، شيخ الفراشين في قصر الخلافة ، كانت داره تشمل عدة حجرات ، وفي كل حجرة جارية وخادمة وخدام . ثم رتب لكل جارية عملا ، فواحدة لطعامه ، وأخرى لشرايه ، وأخرى لفراشه ، وأخرى غسالة ، وأخرى طبخة ، ...

وفي المقابل كان أعظم العلماء وقتها لا يتقاضى أحدهم أكثر من ١٢ دينارا شهريا فحسب !! وذلك هو المرتب الذي كان يأخذه علماء المدرسة المستنصرية !!

وابن القوطى وابن الساعى أشهر مؤرخى هذا العصر كان كلاهما يأخذ راتبا شهريا قدره عشرة دنانير !! فأين أولئك من شيخ الفراشين في قصر الخليفة !! وفي ذلك الوضع المقلوب لابد أن تكتمل الصورة المقيتة لأى امبراطورية على وشك السقوط بغض النظر عن اللافته التى ترفعها ، سواء كانت امبراطورية فارسية ، أو بيزنطية أو رومانية أو عباسية ، لابد أن تتفشى الرشوة ، وتكثر مصادرة الأموال ، وتتفاقم الاضطرابات الداخلية . مع الانحلال الخلقى ، والانشغال بالتوافه عن الخطر الذى يدق الأبواب .

يقول الغسانى صاحب كتاب «العسجد المسبوك» ، يصف السلطة العباسية فى أواخر أيامها : « واهتموا بالإقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر فى المصالح

الكلية ، واشتغلوا بما لا يحوز من الأمور الدنيوية ، واشتد ظلم العمال - أى الحكام - ، واشتغلوا بتحصيل الأموال . والمملك قد يدوم مع الكفر ، ولكن لا يدوم مع الظلم » .

صدق يا غسانى : الملك قد يدوم مع الكفر لكن لا يدوم مع الظلم .. .
فالقاعدة الإلهية تقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، ولا يمكن أن يحل التدمير إلا إذا استشرى الظلم « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »
ولكن أمير المؤمنين المستعصم العباسى لم يستوعب الدرس ، ولم يعرف أن عقوبة الفساد مستمرة ، وإن تنوعت أساليبها ..

وقد رأى الخليفة المستعصم بنفسه طرفا من ذلك قبل أن يقتله المغول رفسا بأقدامهم .. ١١٠٠

يقول الهمداني فى كتابه : « جامع التواريخ » إن هولاكو بعد أن اقتحم بغداد ، دخل قصر الخلافة ، وأشار بإحضار الخليفة المستعصم وقال له : « أنت مضيف ونحن الضيوف .. فهيا أحضر ما يليق بنا .. فأحضر الخليفة وهو يرتعد من الخوف صناديق المجوهرات والنقائس ، فلم يلتفت إليها هولاكو ، ومنحها للحاضرين ، وقال للخليفة : إن الأموال التى تملكها على وجه الأرض ظاهرة ، وهى ملك لعبيدنا ، لكن اذكر ما تملكه من الدفائن ، ماهى وأين توجد ؟ » .
فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب فى ساحة القصر ، فحفروا الأرض حتى وجدوه ، كان مليئا بالذهب الأحمر ، وكان كله سبائك ، تزن الواحدة مائة مثقال » .

واستحق الخليفة احتقار هولاكو السفاح الدموى ، إذ تعجب هولاكو ، كيف يكون للخليفة كل هذه الكنوز ثم يبخل على الجنود بأرزاقهم !!
ولم ينس هولاكو أن يذكر ذلك فى منشوره الذى أرسله إلى حاكم دمشق ، ينذره بالتسليم ، ويخوفه من مصير الخليفة العباسى وما حدث لبغداد ، ويقول فيه عن الخليفة المستعصم : « واستحضرنا خليفته وسألناه عن كلمات فكذب ، فواقعه

الندم ، واستوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفسه
خسيسة ، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال ..»
وقد أورد المقرئى خطاب هولاء بالتفصيل ...

ونعود إلى الهمداني وهو يروى ذلك اللقاء بين هولاء والخليفة في قصر
الخلافة فيقول : « إن هولاء أمر بإحصاء نساء الخليفة ، فبلغن سبعمائة زوجة
وسرية وألف خادمة !!

وتضرع له الخليفة قائلاً : « مُنَّ علىَّ بأهل حرمي اللائي لم تطلع عليهن
الشمس والقمر ..»

يقول الهمداني : « وقصارى القول ، إن كل ما كان الخلفاء العباسيون قد
جمعوه خلال خمسة قرون ، وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على
جبل » .

وبسبب ذلك الكم الهائل من الكنوز التي ورثها هولاء من الخليفة
العباسي ، فإنه صهرها جميعاً في سبائك وأقام لها قلعة محكمة في أذربيجان .
لقد كان هولاء - ذلك الهمجي السفاح - يعي تماماً أنه عقاب إلهي
للخلافة العباسية والحكام الظلمة في المنطقة ، وحرص على إبراز هذا المعنى في
رسائله إلى الحكام ، يقول في رسالته إلى حاكم دمشق : « إنا قد فتحنا بغداد
بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها ، وأسرنا سكانها ..

ويقول في رسالته إلى السلطان قطز في مصر : « .. يعلم الملك المظفر قطز وسائر
أمرء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وماحولها .. أنا نحن جند الله في أرضه ،
خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه .. فإنكم « أكلتم الحرام ، ولا
تعفون عن كلام ، وختمتم العهود والإيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، وقد
ثبت عندكم أنا نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة » .

وربما استفاد السلطان قطز من هذه الرسالة ، فكفَّ المالك عن الظلم ،
واستعاد شعوره الديني ..

وفي غمرة عين جالوت ، حين أوشك جنوده على الفرار صرخ « وا إسلاماه »

وَأَلْقَى بِخَوْذَتِهِ ، وَنَزَلَ لِلْمَعْرَكَةِ بِنَفْسِهِ .. فَكَانَ الْإِنْتِصَارُ ..
هكذا تقوم الدول وتنهار ، وأساس الانهيار يبدأ من الداخل ، وقد يأتي تدخل خارجي ليعجل بالسقوط ولكن يظل الانهيار الداخلي هو بداية النهاية وعاملها الأكبر ..

ويأتي الانهيار الداخلي حين تتكون طبقة مترفة تتحكم في الثروة ، وفي الجماهير ، فتتشر الظلم والانحلال وتحيل حياة الأكثرية إلى جحيم تهون فيه الحياة ، وتتضاءل فيه الفوارق بين الحياة والموت .

والقرآن الكريم يضع العلاج في تشريعاته الاقتصادية التي تمنع تركيز المال في يد فئة واحدة .

ويأمر في الوقت نفسه بالزكاة والإنفاق في سبيل الله ، بل يأتي الأمر أحياناً في صورة التهديد كقوله تعالى : « وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ » .

ومعناه أنه إذا لم يكن هناك إنفاق في سبيل الله فالتهلكة هي المقابل ، وإذا كان هناك إنفاق في سبيل الله فلا مجال إذن لتركز المال في طبقة قليلة العدد يتحول ثراؤها إلى ترف ..

ويقول تعالى مهتداً المسلمين في عصر الرسول : « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَنَكُمْ مِنْ يَبْخُلُ ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » .
لقد أساء المستعصم في تعامله مع خدمه وأتباعه ، فأغدق عليهم في المناسبات بمئات الألوف من الدنانير ، في وقت يتصوّر فيه العلماء والشرفاء جوعاً ..
أبعد هذا نظل نلعن هولاء وحده « !! ؟

لحساب من هذا ؟

لقد شكوت في بعض كتبي من أنه لم ينعقد عندنا مجمع ولا مؤتمر يتساءل : لماذا أذن الله بطرد العرب من الأندلس ؟ لماذا دمر زلزال الحروب الصليبية بيت المقدس في

القرن الخامس ، ومن قبل ومن بعد دمر حواضر زاهرة ، وأخرس منائرهما ؟
 في فوضى التعليم الديني عندنا تتقدم قضية : هل لمس المرأة ينقض الوضوء على
 قضية : هل الشورى تلزم الحاكم أم لا ؟ !!

وهذه انتكاسة عقلية ، وخلقية لا يقبل فيها عزاء !
 وقد تأملت في أسباب سجن ابن تيمية فوجدته متبها برفض الطلاق البدعي ،
 وإسقاط القضاء عمن ترك صلاة عمدا .. وغير ذلك من قضايا فرعية ! هل هذا
 مرتبط الفرس في التربية الدينية ؟ وهل المؤرخ المسلم يقف ساكنا أمام هذه النقائص
 المذهلة ؟

إن العالم يحث خطاه نحو مستقبل تستبحر فيه المعارف الكونية ، وتتنافس فيه الملل
 والنحل على تطويع كل القوى لخدمتها ، وإذا بقي العقل الإسلامي سجين هذا القصور
 فلا يلوم المسلمون إلا أنفسهم ، إذا فاتهم القطار ، وباءوا بنحسار الدنيا والآخرة !
 إن التاريخ هو الوالد الذي يقص تجاربه على أبنائه ليضمن لهم مستقبلهم ، فليكن
 الوالد حكيمًا ذكيًا ، حتى تجدى عظته ...

والحكم في الإسلام عبادة رفيعة الثواب ، والحكام العدول أول ظافر بالرضوان
 الأعلى ، وأول مستظل بعرش الرحمن يوم الحر والزحام !
 لكن هذا النوع - في تاريخنا - قليل ! لأن الرياسة شهوة عند كثيرين يسعون
 لتحقيقها بالعرق والدم ! فإذا ظفروا بمجدهم الشخصي حافظوا عليه بالنفس
 والنفيس ، وأظن هؤلاء هم الذين عنتهم الآية : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين
 لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .

والقلة الصالحة من الحكام هي التي أجدت على الإسلام ، ووسعت رقعته في
 العالمين . وطليعة أولئك الساسة الكبار الخلفاء الراشدون الأربعة ، وهناك ملوك
 ورؤساء على امتداد تاريخنا كله ابتدلوا أنفسهم لله وللأمة ، وذهبوا إلى الله راضين
 مرضيين . !

وحياة الإسلام الكبار لم يلقوا الترجمة الصحيحة لأعمالهم ، بل تناثرت هنا وهناك
 دون ضابط !

وأحيانا أرمق ما كتب عن دولة الخلافة ، فأجد إبرازاً للسلبيات وإخفاء للمحامد والأجناد ، وكأنما كان التأريخ للفتن وحدها !!
 أجل ! ما كان حقه أن يوضع في الهامش كتب بالثلث ، وجعل عنواناً ، ومُنِحَ الصدارة ! أما الخير الكثير لسلفنا الأول فكأنما وُضِعَتْ فوقه حجب ..
 عندما كنت أقرأ أنباء المسلمين في أذربيجان ، وهم يقاومون الضغط الروسى ، ويحاولون النجاة بدينهم ، ذكرت أن هذه البقاع تمَّ فتحها أيام الخليفة الثالث ، هى وأقطار أخرى يتكوّن منها جنوب الاتحاد السوفيتى !
 إن تلامذتنا لا يعرفون هذا ، ولا رسمت لهم خريطة تجلوا أمامهم هذه الأعماء !
 الذى دُرِّس لهم بعض الأكاذيب المفتراة على عثمان !! ومحاباته لنفر من عشيرته !
 كان المفروض فى تدريس رسالة ضخمة أن تذكر المبادئ والتطبيقات التى نهض بها جيل الصحابة الأوائل ، وغيرَ بها وجه الأرض !
 وخرج بها العرب من أكوام الجاهلية الأولى يحملون كتاباً أشرقت به الظلمات ، ونشأت عنه حضارة ازدانت بها الأرض ألف سنة ...
 لقد كان ذلك عمل الخلفاء الأربعة الكبار ...
 إن معرفة هذا العمل بتفصيل أجدى - فى ميدان السياسة والتربية - من حديث الجمل وصفين وبقية السلبيات التى رسبت فى الأذهان ، واختفى غيرها مما كان يجب أن يشرح ويجلد !!
 لا أريد إنكار أخطائنا ، وإنما أريد ألا تعدو وضعها الثانوى بعد بيان ما أدينا للدين والدنيا !
 لحساب مَنْ يتم هذا الغمط ؟!

محنة بيت المقدس :

كانت المحنة الأولى لبيت المقدس أوائل القرن الخامس الهجرى ، وظلت نحو تسعين سنة ، حتى حرر المدينة المنكوبة صلاح الدين ، وغسل الأرض من أدران الوحوش الذين استباحوها ، واقترفوا فيها مآسى تقشع لها الجلود !

لكن يظهر أن التطهير الذي قام به الحاكم المسلم لم يكن كاملا ! فإن الصليبيين القدامى استجلبوا أعدادا كثيفة من إخوانهم آثرت البقاء على الأرض الإسلامية ظافرة بحرية العقيدة ، مستريحة إلى ما نالت من أمان ! وفي ظني أن هذا لون من الاستعمار الاستيطاني خطير العواقب ، لأنه يترىص بالمسلمين النوائب حتى إذا اكفهر الأفق كشف عن سخائمه !

ولذلك عندما سقطت بغداد تحرك هؤلاء حركة غادرة تستحق الدراسة . يقول الذهبي في كتابه : « دول الإسلام » عن أحداث سنة ٦٥٨ أى بعد سنتين اثنتين من سقوط الخلافة العباسية : « وشمخت النصارى بدمشق ، ورفعوا الصليب في البلد ، وألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت !! ونقضوا العهد ، وذلك في الثاني والعشرين من رمضان ، وصاحوا ظهر الدين الصحيح دين المسيح !

ثم وصلت العساكر المصرية إلى الشام ، وقصدتهم عساكر هولاء كواكبوهم « كتبغا » - وهو مسيحي - ووقع الاشتباك في عين جالوت ، فنصر الله دينه وانهزمت التتار ، وقتل قائدهم ! وجاء الخبر إلى دمشق في الليل ، فوقع القتل والنهب في النصارى ، وأحرقت كنيستهم العظمى ... »

إنني برغمي أقص هذه الأنباء المؤسفة ، لكن ماذا أصنع وأنا أرى جيش لبنان الجنوبي يحرس مستعمرات اليهود ، وأتذكر مصارع العرب المدحورين في مخيمى « صبرا وشاتيلا » وهم يقتلون ركلا بالأقدام من أبناء الصليبيين القدامى ، الذين لم يرحموا هزائمهم وتشردهم ونكباتهم المتتابعة ...

ثم تجيء في هذا العصر أحداث لبنان ، ويقدم الرؤساء العرب اتفاق الطائف على أساس أن يرأس الدولة مسيحي عربي يتعاون المسلمون معه تعاوناً شريفاً ! وهيئات أن يقع الصلح ! المطلوب نظام سياسى يتعاون مع إسرائيل على نحو العروبة والإسلام ، ويتسع به الجرح في كيان الأمة التي دوختها الفتوق والخروق ! مأساة الحاضر صورة من مأساة الماضي ، فهل من رجل يصرخ :

وا إسلاماه ... ليستبقى في كياننا الحياة ؟

إن محمدا عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين ، وما كان الإسلام نزعة قومية ولا تفوقا جنسيا ، ولكن الذي وقع أن الرومان كانوا يحكمون الشمال الإفريقي كله ، كما كانوا يحكمون الأناضول والشام وشمال الجزيرة العربية ...

وقد حرر الإسلام هذه الأقطار كلها ، ووضع عنها قيود الاستبداد الروماني ، فنظر الروم إلى الإسلام نظرة اللص إلى الشرطي الذي جرده من غنائمه ، وقلم أظافره ، وألزمه حدود الأدب !

ولم يكن الرومان نصارى مخلصين ، بل إن جبروتهم وطغيانهم يجعلانهم أبعد الناس عن عيسى بن مريم !

وقد تربصوا وراء جدودهم مكتفين بحروب محدودة حتى سنحت لهم الفرصة قبيل القرن الخامس الهجري ، فقاموا بغارات رهيبة اشتركت فيها أوربا كلها ، وعقدوا اتفاقا مع المغول ليهاجموا على شرق العالم الإسلامي ، بعد أن اقتحم الصليبيون غربة ، ودارت رحى الحرب نحو ثلاثة قرون ، هلك فيها من عباد الله من هلك ، ودُمّر من البلاد مادّرا !

وشاء الله أن يتراجع السيل الحقود ، فحرر المسلمون كل شبر من أرضهم ، ثم تولى قيادة المسلمين الأتراك العثمانيون ، فأسقطوا عاصمة الروم ، وبلغوا في زحفهم « فيينا » .

وبقيت الحروب مستعرة قرونا أخرى ، ثم انهزم الأتراك لأسباب لا مجال لذكرها ، وكانت هزيمة مهينة شنعاء سقط العالم الإسلامي كله على إثرها سقوطا لا بد من شرحه .

فإن روسيا وحدها استولت على جنوب المحيط المتجمد الشمالي حتى المحيط الهادى إلى أطراف الهند والصين ، أى ضعف مساحتها عدة مرات ، وبذلك ضاعت سيبيريا والتركستان ومنغوليا والأورال والقرم حتى شواطئ البحر الأسود ! وسقط الشمال الإفريقي ووادي النيل ، ووسط القارة السوداء في يد الإنجليز والفرنسيين ، ومضت هاتان الدولتان ومعها هولندا . فاستولوا جميعا على الهند ،

والهند الصينية ، وأندونيسيا وجزر الفلبين ، وسائر الجزر الواقعة في المحيط الهندي ...

ومما يلفت النظر أن الانكليز لما أسقطوا دولة الإسلام في الهند سلموا السلطة للهندوك على أساس أن الوثنية أولى بالبقاء من الإسلام ! وهو الرأي الذي شهد اليهود به لما سئلوا قديما : هل الوثنية أفضل من دين محمد ؟ فقالوا للعباد الأصنام : دينكم أفضل !

ونزل قوله تعالى تعقيا على هذه الفتوى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلا »^(١) !

إن العالم الإسلامي اليوم ممزق ماديا ومعنويا ، وكتابة تاريخه تحتاج إلى جماعة أولى عزم شديد ، فهل يجود الزمان بهؤلاء ؟

ويجب أن نضم إلى مصادرنا التاريخية الموروثة مالدی غيرنا من مصادر تشرح وجهة نظره وتوضح موقفه منا ، إننا - إن فعلنا - واجدون مايفضح السرائر ، ويكشف الخبايا ، ويحدد موقف غيرنا منا ، وهو موقف لم يحاولوا تغطيته يوما من الأيام .

ملف الغرب والإسلام :

أوروبا وأمريكا تكرهان الإسلام ، ما قصرت إحداها في هضم قضاياءه وتجاوز حقوقه ! وفي سباق الأحقاد التي يواجهها ديننا الصامد نرى فرنسا تمتاز بتبشير واسع الخيلة ، واستشراف خبيث القصد ، وسياسة شديدة الفتك !

في الحرب العالمية الأولى سلخ لواء « الإسكندرون » من سوريا ، ومنحتها تركيا الحديثة مكافأة لها على علمانيتها ، وسلخت محافظتين أخريين من الجنوب ومنحتها جبل لبنان الصغير ليتكون لبنان كبير تحت سلطة اختيرت بعناية كي تمحو العروبة

(١) سورة النساء : ٥١ .

والإسلام ، وتجعل الكثرة الإسلامية تافهة ضائعة ...
وقد استقلت الجزائر المسلمة بعد حرب زهقت فيها أرواح مليون ونصف من
البشر ، وقناطر من الأموال التي ضاعت في قتال قذر ...
ومع ذلك فإن ناسا كثيرين في فرنسا يريدون استئناف المعارك واستبقاء
الإجرام ، ويمهدون لذلك نفسيا واجتماعيا ...
وقد انفجر الغضب على الإسلام وأتباعه يوم ارتدت ثلاث فتيات زيا إسلاميا
محتشما ، وقال كثير من المسئولين : هذا تحداً للحضارة الفرنسية !
وكان غليان الرأي العام مثيرا للعجب ، يصفه رجاء جارودي قائلا : « إن ما
حدث هو في رأي لحظة جنون جماعي ! لو رآها أحد سكان المريخ لشعر
بالدهشة ! بل إن فيلب جوازليس رئيس وزراء إسبانيا صرح في التلفاز بأنه
مندعش لما يجري في فرنسا حول مشكلة ارتداء الحجاب الإسلامي ، إذ كيف
تستطيع ثلاث فتيات يرتدين هذا الحجاب أن يعرضن للخطر الهوية الثقافية
الفرنسية ، والحقيقة - والكلام لجارودي فيما نظن - أن الهوية الثقافية لفرنسا
تتعرض للخطر من الأفلام الأمريكية الهابطة التي تستورد من الولايات
المتحدة » !

أنا شخصيا أتساءل : إن الشبه قريب جدا بين الحجاب الإسلامي وملابس
الراهبات المسيحيات ، فما الذي أثار الذعر والتوجس لأن تلميذات آثرن الاحتشام
والتقوى ، وارتدين مايردّ عنهن الأعين الجريئة والحائنة ؟
لأريب أن هناك حساسية بالغة ضد كل ما يقترب من الإسلام أو يقرب من
معامله وشعائره ...

ولفرنسا عدة إذاعات تشتغل بالتبشير وتغزو أجواء المغرب الكبير ، وتبذل
جهود الجبارة لضرب الإسلام في مقاتله !!

والغزو الثقافي الجديد يقوم على شعبتين : إحياء النزعة البربرية كي تقاوم
الإسلام وتمنع صحوته ، وكذلك إنشاء نزعة جديدة عنوانها : ثقافة البحر
المتوسط ، كي تقطع الشعوب المطلّة على هذا البحر من عالمها الإسلامي الرحب

إلى عالم آخر تهى روابطه بالإسلام تاريخيا واجتماعيا ، لعله في نهاية المطاف يرتد على عقبيه ! وينسى رسالته وحضارته ..

ذاك مايقع في غرب البحر المتوسط . أما في شرقه فثم أمر آخر هو قاصمة الظهر ، وكارثة الدهر ، هو الاستعداد الحار الجارف لإقامة إسرائيل الكبرى ! وإسرائيل الكبرى غاية دينية مقررة لدى اليهود والنصارى على سواء ،

اليهود ينتظرون مسيحهم - أو مسيخهم الدجال - كما نسميه نحن . ليحكم بهم العالم ، ويقم دولة الشعب المختار ، والنصارى ينتظرون نزول عيسى بن مريم بعد تجميع اليهود في فلسطين ليدين المسكونة كلها ، وينصّر اليهود طوعا أو كرها ، ويحكم العالم وهو جالس على يمين الرب !!

ومعنى إقامة إسرائيل الكبرى ضياع ست دول عربية تقع في المجال الحيوى لإسرائيل بين الفرات والنيل : هى مصر والعراق والسعودية ، والأردن وسوريا ولبنان ، بعد التهام فلسطين كلها بداهة !

والأصوليون المسيحيون يعتقدون هذه العقيدة ، وبينهم ريجان وكارتر ، وبوش الذى أعلن سعادته ببدء الخروج الكبير ، خروج اليهود الروس وتوطينهم هناك ، إن هذا المسلك دلالة تقوى وإيمان واستجابة لأمر الله !!

ومنذ زحف اليهود إلى أرض الميعاد والإسلاميون يلحظون أن إسرائيل تخاربا يجنود من الدول الشيوعية ، وأسلحة من الدول الرأسمالية ! ولايزال الوضع كما كان مستودعات الرجال تفتح من روسيا وأوروبا الشرقية ، وخزائن للسلاح والمال تدفق من الغرب الصليبي .

إن الكل اصطلاح علينا ، كى يقيم ملكه على أنقاضنا ...
لم ينس موسى ديان التاريخ الذى مضى عندما قال عشية انتصاره على عبد الناصر سنة ١٩٦٧ : لقد ثأرنا لليهود المدينة وخير !

ولم ينس مارشال اللبى التاريخ الذى مضى عندما دخل القدس سنة ١٩١٨ فقال : الآن انتهت الحروب الصليبية ...

وقد لخص وليم جيفور بلجراف الهدف من هذه الحروب كلها عندما قال :

عندما يخفى القرآن ، وتخفى مكة من بلاد العرب - يعنى الكعبة - عندئذ يستطيع
العربى أن يتدرج فى طريق الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه « !!
أى حضارة يريد ؟ حضارة الايدز والشذوذ والضغائن ...
إننى لا أخاف هؤلاء جميعا ، إننى أخاف أن يذكر الآخرون باطلهم ،
وننسى نحن حقنا وتاريخنا ورسالتنا ، ونشتغل برفع مستوى المعيشة على حين يشتغل
غيرنا بتغليب كفته وإعلاء ملته ...

الفصل الثامن

على هامش التفسير

دروس التفسير التي تلقيناها في الأزهر لستين سنة خلت ، كانت تطبيقاً لقواعد اللغة والبلاغة ، فما يعيها ويرع فيها إلا متمكن من النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ..

خذ مثلاً قوله تعالى : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين »^(١) .

الجهد المبذول كله حول هذه الأسئلة : ما اسم كان في الآية الكريمة ؟ وما خبر أن ؟ وما أنواع التوكيد في قول الكافرين ؟ وما سر الفصل بين جملة قال الكافرون ، والجملة التي سبقتها ؟ وكيف تعرب أن أنذر الناس ؟

ولاريب أن معنى الآية يظهر مع هذه الأجوبة كلها ، بل ما يستطيع إيضاحه إلا العارف بهذه الأسرار اللغوية ، ولكن الحصيلة الأخيرة درس في النحو والبلاغة ! كنا إذاً مررنا بآية « يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي »^(٢) كان علينا اكتشاف المجاز ، وإجراء الاستعارة الموجودة ، وبيان من أى نوع هى من أنواع الاستعارة ؟

وهكذا كنا نعيش مع التفسير البياني للقرآن الكريم ..

(١) سورة يونس : ٢ .

(٢) سورة هود : ٤٤ .

فإذا جئنا إلى التفسير الفقهي أخذنا وجهة فنية أخرى : نخذ مثلاً قوله تعالى :
« الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما
آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا
جناح عليهما فيما افتدت به ... »^(١) . إلخ .

إن التساؤل هنا عن مكان الطلقة الثالثة ؟ وعن مكان الخلع في الآية ؟ وهل
الخلع طلاق أم فسخ لعقد الزواج الأصلي ؟ وهل يعوز الفداء بأكثر من المهر ؟ وهل
الطلاق المقرون بالعدد يعتبر مرة واحدة - كما يرى ابن تيمية - ؟ وهل العقد المجرد
يسيح عودة المطلقة إلى زوجها الأول - كما يرى ابن المسيب وابن جبير - أم أن النكاح
حقيقة في العقد والوطء معا ؟ وهل تتولى المرأة عقدها ، كما هو ظاهر اللفظ ، أم
لابد من ولي ؟

وهكذا يتحول التفسير إلى درس في الفقه المقارن ويستخلص كل منا المعنى
الذي يرضاه !

ورحم الله من علمونا اللغة العربية والفقه الإسلامي ، وهم يفسرون القرآن
الكريم ، لقد أفدنا منهم كثيراً ، وكل ما أريد بيانه أن علوم اللغة والفقه وسائل
لتقرير المعنى المراد ، وسائل لابد منها ، فما يحسن التفسير إلا من وعاهها ..
ولكن الوسائل لا تتحول إلى غايات ، ومن الممكن بعد شرحها أن نفتح
القلوب بالمعاني النائية للوحي الإلهي ، وكيف يهدي الله الناس إلى الحق بما شرع من
أحكام ..

يستطيع المفسر الموفق أن يشرح سنن الله في الإيلاف والاختلاف ، والحب
والكره ، وتقوى الله على الحالين وأن يشرح آثار التزق في هدم البيوت ، ومعنى
اعتداء حدود الله ، وضرورة التماسك أمام إلحاح المشاعر النائرة .
إن الوسائل البلاغية والأحكام الفقهية جزء من السياق المحكم للتربية القرآنية
المنشودة ، ولا يجوز كما قلنا أن تتحول الوسائل إلى غايات .

(١) سورة البقرة : ٢٢٩ .

وهناك تفسير صوفي يعتمد على الأذواق الخاصة ، وهذه الأذواق بعضها ممجوج وبعضها سائغ ، وأرى استبعاد هذا اللون من التفسير عن الميدان العلمى . وقد تقبل منه إشارات أونكت خلال التفسيرات العادية ، وقد يتحول التصوف إلى فلسفة فلا ترى والحالة هذه إلا ظلمات بعضها فوق بعض . وللزحشرى تفسير يعد إماما فى التفسير الببانى للقرآن الكريم ، ولولا آراؤه الاعتزالية المنحرفة لكانت له مكانة لاتدانى ! وقد جاء النسفى فسطا على هذا التفسير ، وصادره لحساب أهل السنة - أعنى الأشاعرة - وكان تفسير النسفى مقورا علينا فى مراحل الدراسة الثانوية ، فإذا أشكلت علينا عبارة رجعنا إلى الزحشرى لنستبينها !! غفر الله للجميع .

أما التفسير الكلامى فهو بلاشك تفسير ذكى متعمق ، ونموذجه الأعلى فى تفسير الفخر الرازى ، وهو يتطرق إلى ألوان شتى من المعانى والأغراض ، ويعطى قارئه صورة للفكر الإسلامى خلال قرون طوال ..

وأنا ممن يضيّقون بعلم الكلام خصوصا قضاياه الفلسفية المشتبكة بفكر الإغريق ، بيد أننى أؤثر الإنصاف ولا أطوح بالخير كله لما يقع من هنات .. وكتب المفسرين ملأى بمعارف جيدة يحتاج إليها طلاب العلم ، على أن يكون معهم خبير ماهر يُجَنِّبُهُم المزالق والأوهام ..

بقى التفسير الأثرى ، وهو تفسير أصاب حظا من رواج فى الأيام الأخيرة ، ذلك أن أحقّ من يفسر كلام الله هو نبيه ، ثم علماء الصحابة ...

وتفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسنن الثابتة نور على نور ، وعلماء هذا المنهج الطبرى وابن كثير ، وقد أعجبنى من الخازن أنه عندما يفسر آية يورد الأحاديث المناسبة منسوبة إلى كتبها ، ولولا ولع الرجل بالأساطير والإسرائيليات لكان تفسيره ممتازا ..

ونحن مضطرون إلى ذكر مآخذ على التفسير الأثرى كان ينبغى أن يتزده عنها ...

* * *

المفسرون : أخطاء وخطايا !

القرآن الكريم أصدق ما بقى على ظهر الأرض من مواريث السماء ! إن اليقين يحف كلماته حرفا حرفا ، وتم الوعد الإلهى بحفظه ، فهو منذ نزل إلى اليوم مصون « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »^(١) .

وكان يجب على مفسرى القرآن بالأثر أن يتجاوبوا مع هذه الحقيقة ، وأن يحبوا تفاسيرهم كل ما فيه ريبة ، وأن يلتزموا بما وضعه الأولون من شروط الصحة والقبول ، فإن هذه الشروط جديرة بالاحترام كله .

إذا خالف الثقة من هو أوثق منه عَدَدْنَا حديثه شاذا ورفضناه ، فإذا كان المخالف ضعيفا وروى ما لا يعرفه الثقات فحديثه منكر أو متروك !

فلماذا يكثر فى التفسير الأثرى الشاذ والمتروك والمنكر ؟

بل كيف تُروى حكايات هى السخف بعينه ، يطبق المسلمون على إنكارها واستبعادها ، ومع ذلك تبقى مكتوبة يقرؤها ضعاف العقول فيضطربون لها ؟

انظر ما كتبه الخازن تفسيرا لقوله تعالى : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة »^(٢) ... قال :
اختلف العلماء فى وجه نصبه فحكى عن عائشة وأبان عن عثمان أنه غلط من الكتاب ، ينبغى أن يكتب « والمقيمون » ! قال عثمان : إن فى المصحف لحنا ستقيمه العرب بالسنتهم^(٣) ، فقليل له : أفلا تغيره ؟ قال : دعوه ، فإنه لا يخل حراما ولا يجرم حلالا !!!

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) سورة النساء : ١٦٢ .

(٣) نقلنا فى كتابنا « علل وأدوية » رأيا لحفى ناصف إمام اللغة فى القرن الماضى . أن هذا الأثر - على تفاهته - يمكن حمله على كتابة المصحف بالإملاء الذى لا يزال ثابته فيه . فهو يخالف الإملاء العادى . وقد استبقاه عثمان وغيره كما جاء . لأنه لا يخل حراما ولا يجرم حلالا . محافظة على الأصل المنقول ... وهو فهم أشرف من غيره .

وذهب عامة الصحابة وسائر العلماء ومن بعدهم إلى أنه لفظ صحيح ليس فيه خطأ من كاتب ولا غيره .

وأجيب عما روى عن عائشة وعثمان وأبان ، بأن هذا بعيد جدا ، لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والفصاحة ، فكيف يتركون في كتاب الله لنا يصلحه غيرهم ؟ لا ينبغي أن ينسب هذا إليهم !

وقال ابن الأنباري : ماروى عن عثمان لا يصلح لأنه غير متصل ^(١) - طعن في السند - !! ومحال أن يؤثر عثمان شيئا فاسدا ليصلحه غيره ، ولأن القرآن منقول بالتواتر ، فكيف يمكن وجود اللحن فيه ؟!

قد يقال : إن تفسير الخازن مشحون بالترهات والإسرائيليات ! وأن الثقة به مهترة .. ووقوع هذه الهنات فيه - وإن كان مستهجنا - لا يجوز أن يكون مثار شكوى عامة !!

أقول : هذا صحيح ، لكن تسلل ذلك السخف إلى تفسير محترم كالقرطبي يسوّغ غضبي ، إن الخرافة انتقلت من الشام إلى الأندلس بسهولة ! وإن كان المفسر الكبير قد أثبتّها ثم عقّب عليها بقول القشيري : هذا مسلك باطل ، لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة في اللغة فلا يظن بهم أنهم يدرجون في القرآن ما لم ينزل !!

وليت القرطبي ماذكر ولا نكر ، لعل ازدراءه للقضية كلها يجعله يكتفي بهذا الردّ الخافت ، وإلا فهو يدري أن النقل الشفوي المتواتر هو أساس ثبوت القرآن ، وأن الكتابة أداة تسجيل وحسب ، وأن الحفاظ عن ظهر قلب كانوا جيشا كثيف العدد ، وأن الحكايات المتلصصة حول هذه الحقيقة لاتساوى قلامة ظفر ، ولو نقلت في بعض كتب النوادر !!

وهناك رواية لأحمد في مسنده نقلها ابن كثير في تفسيره - وهو مصدر من

(١) لنفرض أن السند متصل فما قيمته مع متن فاسد ؟ إن الذين ينحسرون في السند ويعمون عن المتن لا ثقة بهم .

مصادر التفسير الأثرى - جاء فيها عن زرّ : قال لى أبيّ بن كعب : كأين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كأي تعدّها ؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية ! فقال : قط ، لقد رأيتها وأنها لتعادل سورة البقرة ... إلخ .
وهذا كلام سقيم ، فإن الله لا ينزل وحيا يملاً أربعين صفحة ثم ينخسه أو يحدف منه أربعاً وثلاثين ويستبقى ست صفحات وحسب !!
وهذا هزل ما كان ليروى ! والمسند قد ترى فيه الأحاديث الواهية والموضوعات المرفوضة .

وأنبه إلى أن ما يتصل بالقرآن لا يتحمل هذه الحكايات المنكرة ..
وفى المسند حديث عن الأحرف السبعة يثير الضحك ، وقد رفضته الجماهير بداهة ، ومع ذلك فإن النوى فى شرحه لصحيح مسلم ذكر أن من الحروف السبعة أن تضع حكماً عليها مكان سميماً بصيراً ، ما لم تضع آية رحمة مكان آية عذاب !!
وهذه حكاية فى غاية الغثاثة وما كان يجوز أن تذكر أو تنقل لكذبها ...
على أن هذه الموضوعات كلها تلاشت أمام حشود التواتر التى أحاطت بالوحى الخاتم ، وتجاوزها العلماء بازدياد ، ومعارضنا لها إلا لثلفت النظر إلى متحدثين فى الإسلام بضاعتهم النقل الذى لا وعى معه .
وحبذا لو ألفت الأزهر لجأنا علمية لتنقية التفاسير من أمثال هذه القمامات الفكرية ، فهى بإجماع المسلمين مرفوضة ...

التفسير الموضوعى قبل الموضوعى :

التفسير الموضوعى لابد منه قبل الشروع فى التفسير الموضوعى ، فإنه فهم جيد للآية أو لجملة الآيات التى تتناول قضية واحدة !!
ويتعاون التفسير البلاغى والفقهى وغيرهما على توضيح الرؤية ، وتحديد المعنى ، ويطلق التفسير الموضوعى على نوعين جديدين من خدمة الكتاب العزيز : أولهما تتبع قضية ما فى القرآن كله ، وشرحها على ضوء الوحي النازل خلال ربع قرن تقريباً ...
والآخر النظر المتغلغل فى السورة الواحدة لمعرفة المحور الذى تدور عليه ، والخيوط

الخفية التي تجعل أولها تمهيدا لآخرها ، وآخرها تصديقا لأولها ، أو بتعبير سريع تكوين صورة عاجلة للملامح السورة كلها ..

ولعل أفضل نموذج لهذا التفسير ما قدمه الشيخ محمد عبد الله دراز من تفسير لسورة البقرة في كتابه النبأ العظيم ، فقد ضم معاني السورة في باقة واحدة متكاملة تجعلك بنظرة ذكية تدرك أبعادها . وإذا تم ذلك في أطول سور القرآن الكريم فكيف بغيرها ...؟

أما التفسير الموضوعي الأول فإن الشيخ محمود شلتوت عرض نماذج له في كتابات شتى ، والرجل له بصيرة حادة في التفسير تدل على رسوخ قدمه . وأرى أن التفسير الموضوعي بشقيه جدير بعناية الأمة ، فإن المستقبل له ، ولعله في عصرنا أقدر على خدمة الإسلام وإبراز أهدافه ... وقد عنّ لي أن أتبع معنى واحدا في كتاب الله ، وأرصد مواقعه في شتى سور القرآن فعدت بحصيلة حسنة ..

نحن نشعر بأن الخاطئين يحسون الندم يوم القيامة على ما اقترفوا من آثام ، ويضمون إلى هذا الندم أُمْنِيَّةً يستحيل تحقيقها ، هي أن يعودوا مرة أخرى إلى الحياة الأولى كي يحسنوا بدل ما أساءوا .

أى أنهم يطلبون ملحقا للامتحان الذى سقطوا فيه ، وهيات ! كم مرة تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم ؟ فلأنظر في المصحف الشريف حسب ترتيب السور ..

(١) في سورة البقرة يغتاظ الأتباع من تنكر السادة لهم يوم الحساب فيقولون : « لو أن لناكرة ففتبراً منهم كما تبرؤوا منا .. كذلك يرهم الله أعمالهم حسرات عليهم ... » الآية : ١٦٧ .

(٢) في سورة الأنعام يتمنى المشركون لو عادوا ليصدقوا بما كانوا به في الدنيا مكذبين « ولو ترى إذا وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نُرَدُّ ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » الآية : ٣٧ .

(٣) في سورة الأعراف يبين الله أن القرآن الكريم حوى من النذر ما يبعث على

الارعاء ، ويسوق إلى الهدى ، ولكن الناس صدّوا عنه ، وعندما يصدّهم الوعيد الذى استحقّقوا به يطلبون النجاة « يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ... » الآية : ٥٣ .

(٤) ويتضح ما يطلبون في سورة إبراهيم عندما يصبح الظلمة : « ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال » الآية : ٤٤ .

(٥) ويحيى هذا المعنى في خلاصة وجيزة في صدر سورة الحجر ، « ربّما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل » الآية : ٢ . أما سورة المؤمنون ففيها تفصيل يظهر في موضعين :

(٦) ضراعة الكافر أن يرجع إلى الحياة ليصلح ما أفسد « رب ارجعون لعلّي أعمل صالحا فيما تركت . كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » سورة المؤمنون : ١٠٠ .

(٧) والموضع الآخر في دعاء أهل النار عندما يحيط بهم العذاب ويصرخون من شدة الألم « ربنا غلبت علينا شقوتنا ، وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسئوا فيها ولا تكلمون^(١) .. »

(٨) أما في سورة الفرقان فإن الذكرى تبدو في مسالك متناثرة تخامر الكافر عن الأيام التي خلت ، فهو يقول آسفا : « ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا .. ياويلتنا ليتنى لم اتّخذ فلانا خليلا ، لقد أضلّنى عن الذكر بعد إذ جاءنى^(٢) ... » لقد فات الأوان ولات ساعة مندم .

(٩) وفي سورة الشعراء ينظر المشركون إلى آلهتهم وسادتهم في جهنم يتعذبون معهم ، لقد استوى الجرمون في سوء العقبى ، عندئذ يقول الأذباب المخدوعون « تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا الجرّمون ،

(٢) سورة الفرقان : ٢٧ - ٢٩ .

(١) المؤمنون : (١٠٦ - ١٠٧) .

فأنا من شافعين ، ولاصديق حميم ، فلو أن لناكرة فنكون من المؤمنين^(١) »
وهيات ، لعودة لاستئناف حياة أرشد ..

(١٠) وفي سورة السجدة يصرح المجرمون بأمنيتهم ويسألون الله أن يمنحهم فرصة أخرى « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون^(٢) » ونلاحظ أن السكوت هو الجواب ، كأنهم أحقر من أن ينتظروا ردًا ، وهذا إيلاام أوجع ...

(١١) أما في فاطر فقد سمعوا إجابة توجب الحسرة ، وتضاعف العذاب « وهم يصطرخون فيها ، ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ، فذوقوا فما للظالمين نصير^(٣) »

(١٢) ونلاحظ في سورة الزمر أن الله يحذر عباده من التعرض لهذه المواقف اليايسة ، ولذلك يدعوهم إلى التوبة هنا ، قبل أن يصحوا هناك على غد قائم يستحيل معه استدراك مافات « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ، وإن كنت لمن الساخرين ، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين^(٤) » .

لماذا شغلت نفسى بهذا الإحصاء ؟ لأن المسلمين وقر في نفوسهم نوع من الجبرية التي أفقدتهم الرشد ، فحسبوا أنهم مسيروا لاختيرون ، منساقون لاقادرون أحرار ..

هل يجرؤ أحدهم يوم القيامة على اللجوء إلى هذا الكذب ؟
إن أمتنا استنامت في هذه الحياة لأفكار جعلتها تحيا في غيبوبة مهلكة ، ولن

(١) سورة الشعراء : ٩٧ - ١٠٢ .

(٢) سورة السجدة : ١٢ .

(٣) سورة فاطر : ٣٧ .

(٤) الزمر : (٥٦ - ٥٨) .

تصح لها دنيا ولا دين إلا إذا عقلت كتابها وصححت موقفها منه .
ومن الممكن استخراج قضايا كلية وجزئية من القرآن الكريم ، على النحو السهل
الذى سقناه هنا ، ولن يعطيك القرآن بعضه إلا إذا أعطيته كلك .

نموذج من سورة الطلاق :

هذا تفسير موضوعى لسورة الطلاق ، يقوم على الوحدة المعنوية بين أجزاء
السورة كلها ، وعلى تكامل الآيات وتماسك سياقها فى إبراز حقيقة معينة وليس فى
السورة حكم فقهي من اجتهادى الخاص ، وإنما اخترت من اجتهادات الأقدمين
ما يناسب هذا التفسير وما يوافق رأى .. ولن شاء مخالفى فلست مكبراً أحدٍ على
وجهة نظر لى .

فى صدر السورة نداء للنبي عليه الصلاة والسلام لأنه قائد الأمة وإمام الهدى !
ومناداة الرسول فى شأن يشيع بين أفراد الأمة كلها يشير إلى أن الأمر مهم ، وأنه
يخرج من النطاق الفردى الخاص إلى النطاق الجماعى العام ..
والواقع أن الطلاق يتجاوز الرجل الذى أوقعه ، إلى امرأته ، وأولادها
وأسرتيها ، فلا بد من وضع ضوابط له حتى لا يكون صدور به بإرادة مفردة باباً إلى
الطيش والتظالم ..

ومن هنا حدد الشارع له وقتاً معيناً ، فلا يجوز فى أثناء الحيض والنفاس ،
ولا يجوز بعد طهر مسّ امرأته فيه ، وينبغى أن يحضره شاهدان ، وعلى الزوجة إذا
سمعت الطلاق ، تبقى فى بيت الزوجية ، فليس ماسمته إجهازاً على الحياة الزوجية
وإنما هو إنذار بالقضاء عليها ، وبقاؤها حيث هى مطلوب ، فقد تستأنف هذه
الحياة مع تغير الظروف التى دفعت إلى الطلاق .

إن ثورات الغضب قد تتلاشى وتتغلب بواعث الوثام خلال شهرين أو ثلاثة ،
وذاك معنى الآية الأولى « يأياها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا
العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن ، إلا أن يأتين
بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى

لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا» .

وقد لاحظت أن الإيمان بالغيوب والانبعاث عن تقوى الله تكرر خلال الآيات والأحكام الفقهية ، حتى يمكن تفريغ الأزمان العائلية الباعثة على الشقاق بالاعتماد على الله ومغالبة الأمر الواقع « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » .

وذكر الوحي الكريم تفصيلات للإنفاق في السراء والضراء وبيانا للحالات الإرضاع وغيرها ، وبدا من الإرشاد الإلهي أن الله سبحانه لا يريد أن يتحول الطلاق إلى كارثة اجتماعية كالحمة ، وألا يفقد المسلمون أديهم وتواصلهم مع هذه المحنة ..

ومع ذلك كله فإن الطلاق كما مارسه المسلمون اقترن بمآس كئيبة ، فمن الناحية الفقهية وقع الاعتراف بالطلاق البدعي ، وانتشر الحلف بالطلاق ، كما انتشر تعليقه على التوافة المحقرة ، وسطرت في كتب الفقه نوادر لوقوع الطلاق تستدعي العجب . ولا يزال الأوروبيون ينظرون إلى سهولة الطلاق وميوعة حدوده عندنا نظرة إنكار ، وهي ميوعة اختلقها الناس ولا يعرفها الإسلام ...!

ويكاد يستحيل أن تسمع امرأة الطلاق وتبقى في البيت ، كما يكاد يندر وقوع الطلاق داخل النطاق الذي رسمته السنة النبوية من طهر ، واعتزال ، وإشهاد ... والفقهاء المتربصون بمصير الأسرة المرحبون بتمزيق عراها لأنفه الأسباب والأقوال لاحصر لهم ...

وقد أضر ذلك إضرارا بليغا بسمعة الإسلام وانتشار رسالته ، واستغله أعداؤه استغلالا واسعا .. ولذلك فأنا أنظر إلى النصف الثاني من السورة على أنه امتداد وتكميل لنصفها الأول ، وتحذير لأمتنا من العبث بأحكام الطلاق !

ويبدأ ذلك بقوله تعالى : « وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا ، فذاقت وبال أمرها .. » إلخ .

وليتدبر القارئ قوله تعالى في أحكام الطلاق : « ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » وقوله بعد ذلك : « وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسله .. » .

إن السياق متماسك ، ولفظ الأمر واحد ، ولا يجوز لأمة شرفها الله بالوحي والهدى أن تفرط وتعبث ، وتجعل نظام الأسرة في مجتمعتها لغوا !!...
كما لا يجوز أن تبعثر العقبات في طريق الدعوة وانتشار الرسالة بسوء تطبيقها للإسلام وسوء تنفيذها لأحكامه !
وأخيرا تختم السورة بهذه الآية الدالة على أن الله خلق الكون لنعرفه ، وأنزل الوحي لتتبعه ، وبين الكون الدال على الله بصحته ، والوحي الهادر بنطقه يعرف المسلمون طريقهم « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » .
هذه سورة الطلاق أدعو كل مسلم لقراءتها مرة أخرى ، على ضوء ما شرحت لعله واجد فيها ما يهدى ويحذى ...

في ميدان الفقه

عندما أرى بين الفقهاء خلافا في قضية ما ، أنظر إلى أدلتهم نظرة محايدة ثم أرجح ما يقع في نفسي أن دليله أقوى ! غير ضائق بوجهة النظر الأخرى أو معترضا الآخذ بها ..
ومع النظر في الدليل أهتم اهتماما شديدا بأمرين : ما الأيسر على الناس ؟ وما الأقرب إلى مصلحة الدعوة الإسلامية في بلد ما أو في عصر ما ؟
وعندما أستبين الأيسر الذى لا حرج فيه أفق به ! وقد اتهمنى البعض بتتبع الرخص ، فلم أبال التهمة ! وقلت : بل أنا أولى بالسنة الشريفة « ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثما ! فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه » ذلك وقد قال الله تعالى : « ما جعل عليكم في الدين من حرج »^(١) .
أما مصلحة الدعوة الإسلامية فتحتاج إلى شيء من الشرح ، فإن المسلمين في

(١) سورة الحج : ٧٨ .

الأعصار الأخيرة شغلتهم شئونهم الداخلية فلم يَعْنِهِمْ عرض الإسلام على شعوب الأرض كما أمرهم الله تعالى !

ولم يُرَوْا الناس من أنفسهم وأحوالهم ما يغرى بالاتباع ويبعث على الإعجاب ! بل ربما التزموا - في الفروع - بأقوال تصرف الناس عن الأصول وتبغض إليهم الدين كله ...

وقد شاع في جنوب آسيا أن الإسلام يأخذ الزكاة من المزارعين الفقراء ويترك المزارعين الأغنياء ، لأن الأولين يزرعون القمح والشعير ، والآخريين يزرعون البن والشاي والمطاط والكاكاو ، وسائر المحاصيل التي تدر على أصحابها الذهب ! وليس في هذه الزروع زكاة عند بعض الأئمة ... !

وأبو حنيفة الذي يوجب الزكاة في كل الزروع بغض عند بعض المغفلين ! فلا يجوز اتباع مذهبه

إنني أدرس البيئات الأجنبية ، ومهمتي الأولى غرس الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتعريف الناس بأركان الرسالة التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فإذا كان النساء سوافر مافكرت قط في إلباسهن النقاب لا أولاً ولا آخراً .

وإذا كن في نصرايتهن يذهبن إلى الكنائس فلن أفكر أبداً في منعهن المساجد ! مهما جادل أصحاب الرءوس العفنة ، ورموني بالسوء !

وذاك ماجعلني - وأنا أعرض الإسلام - أضرب عن ذكر أن المرأة والحمار والكلب الأسود تقطع الصلاة ، وقد تساءلت في حيرة : ما القاسم المشترك بين هذه الأصناف الثلاثة ؟ وتابعت جمهرة العلماء في محو هذا الحكم من فروع العبادات !

إن اختلاف وجهات النظر - كما أسلفت - مأنوس في تراثنا ، مقبول في مسالكنا ، مأجور عند الله سبحانه خطأ كان أو صواباً ، فلا مساع لجعله حجر عثرة في طريق الدعوة أو طريق المصلحة !! وإن كان عويل الصغار يشتد كلما رأوا ما ألفوه مؤخرًا أو مهجوراً ..

وقد اخترت القول بأن دية الرجل والمرأة سواء ، وتابعت في هذا شيوخي الذين

تلقيت العلم عنهم ، أمثال محمد أبو زهرة ، ومحمود شلتوت ومحمد حسنين مخلوف وغيرهم ..

كان رائدى فى هذا الاختيار دحض القول بأن الإسلام يحتقر المرأة ويرخص دمها .

وبعض المسلمين يعتقد هذه الفكرة السخيفة ، ويضع العراقيلى أمام الرحمة العامة التى بعث بها محمد للعالمين ، بل يجعل الإسلام سجانا للمرأة ماحقا لإنسانيتها ...

قال الشيخ عبد القادر العمارى فى تأكيد المائلة بين دية الرجل والمرأة : إن الله سبحانه يقول : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليا حكيما » (١) .

لم يذكر القرآن هنا أن دية المرأة على النصف من دية الرجل ، الآية عامة فى فى الرجل والمرأة ، وليس هناك مخصص لهذا العموم ، لا آية قرآنية ولا حديث نبوى صحيح ، لذلك يجب أن يبقى العموم على عمومه . بل يؤكد ذلك ماجاء فى حديث عمرو بن حزم فى أوله : « فى النفس المؤمنة مئة من الإبل » وكلمة نفس تطلق على الذكر والأنثى ، كما أن الرجل يقتل بالمرأة ، فتعين أن تكون ديتها كديته . وكتاب عمرو بن حزم الذى تضمن أن دية المرأة على النصف من دية الرجل فيه نظر ، لأن الجملة فى بعض الراويات وليس فى كل الراويات . ثم هو حديث لم يبلغ من قوة السند ما يمكن به تخصيص عموم القرآن الكريم .

والمفاوطة بين دية الرجل ودية المرأة ، وجراحة الرجل وجراحة المرأة أدت إلى أحكام تثير الضحك : فقد روى مالك عن ربيعة بن عبد الرحمن أنه قال لسعيد بن

(١) سورة النساء : ٩٢ .

المسيب : كم في إصبع المرأة ؟ - من العوض إذا أصيبت - قال : عشر من الإبل !
 قال : قلت : كم في الإصبعين ؟ قال : عشرون من الإبل ! قلت : كم في ثلاث
 أصابع ؟ قال : ثلاثون من الإبل ! قلت : كم في أربع أصابع ؟ قال : عشرون من
 الإبل !! قلت أحين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها ! - يعني الدية -
 فقال له سعيد : أعراقى أنت ؟ يعني هل أنت من مدرسة الرأي التي يقودها أبو حنيفة
 في العراق ؟ قال ربيعة : بل عالم مثبت ، أو جاهل متعلم !! قال : هذه السنة
 يا ابن أخي !!

والعلماء على أن السنة المقصودة هنا هي عمل أهل المدينة !! وليست السنة
 الثابتة بالنقل الواضح الثابت عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ...
 واعتراض ربيعة قائم لاريب فيه ، وإجابة سعيد لا تهدم منه لبنة ، ولا فكك منه
 إلا بالتسوية بين دية الرجل ودية المرأة في النفس وفي الجروح .. والرأي السديد ليس
 تهمة توجه إلى الأحناف ، والآثار الواهية لا تعترض الأدلة العقلية .
 ويسرني أن أثبت هنا نقلا مطولا للشيخ العلامة يوسف القرضاوى شرح فيه
 طبيعة الخلاف الفقهي وآثاره ، لعل أولى الألباب وأصحاب المقاصد الشريفة
 ينتفعون به ، ولا يجعلون من اشتجار الآراء فرقة وتمزيق لأمة عانت من الانقسام
 دهرًا ، وأحذق بها الأعداء ييغون الإجهاز عليها ...

لا إنكار في المسائل الاجتهادية :

قال الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى : مما يقرب المسافة بين الداعين إلى
 الإسلام ، في الأمور الخلافية ، تجب القطع في المسائل الاجتهادية التي تحتل وجهين
 أو رأيين أو أكثر ، وكذلك تجب الإنكار فيها على الآخرين ، ولهذا قرر علماءنا : أنه لا
 إنكار من أحد على أحد في المسائل الاجتهادية ، فالجتهاد لا ينكر على مجتهد مثله ،
 والمقلد لا ينكر على مقلد مثله كذلك بله أن ينكر على مجتهد .

فأجاب : الحمد لله ، مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه ولم يهجر ، ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه ، وإذا كان في المسألة قولان : فإن كان الإنسان يظهر له رجحان أحد القولين عمل به ، وإلا قلّد بعض العلماء الذين يعتمد عليهم في بيان أرجح القولين ، والله أعلم .

وسئل في مقام آخر - رحمه الله - : عمن ولى أمرا من أمور المسلمين ومذهبه لايحوز « شركة الأبدان » فهل يجوز له منع الناس من العمل بها ؟

فأجاب : ليس له منع الناس من مثل ذلك ، ولا من نظائره ، مما يسوغ فيه الاجتهاد ، وليس معه بالمنع نص من كتاب ولا سنة ولا إجماع ، ولا ماهو في معنى ذلك ، ولا سيما وأكثر العلماء على جواز مثل ذلك ، وهو مما يعمل به عامة المسلمين في عامة الأمصار .

وهذا كما أن الحاكم ليس له أن ينقض حكم غيره في مثل هذه المسائل ، ولا للعالم والمفتي أن يلزم الناس باتباعه في مثل هذه المسائل .

ولهذا لما استشار الرشيد مالكا أن يعمل الناس على « موطئه » في مثل هذه المسائل ، منعه من ذلك ، وقال : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار ، وقد أخذ كل قوم من العلم ما بلغهم . وصنف رجل كتابا في الاختلاف ، فقال أحمد : لا تسمه « كتاب الاختلاف » ولكن سمه « كتاب السنة » .

ولهذا كان بعض العلماء يقول : إجماعهم حجة قاطعة ، واختلافهم رحمة واسعة ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : مايسرني أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا ، لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالا ، وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة . وكذلك قال غير مالك من الأئمة : ليس للفقهاء أن يحمل الناس على مذهبه .

ولهذا قال العلماء المصنفون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصحاب الشافعي وغيره : إن مثل هذه المسائل الاجتهادية لا تنكر باليد ، وليس لأحد أن يلزم الناس باتباعه فيها ، ولكن يتكلم فيها بالحجج العلمية ، فمن تبين له صحة أحد

القولين تبعه ، ومن قلد أهل القول الآخر فلا إنكار عليه .
ونظائر هذه المسائل كثيرة مثل : تنازع الناس في بيع الباقل الأخضر في قشريه ، وفي بيع المقائى جملة واحدة ، وبيع المعاطاة والسلم الحال ، واستعمال الماء الكثير بعد وقوع النجاسة فيه إذا لم تغيره ، والتوضؤ من مس الذكر والنساء ، وخروج النجاسات من غير السبيلين ، والفقهية وترك الوضوء من ذلك ، والقراءة بالبسمة سرا أو وجهرا وترك ذلك ، وتنجيس بول مايؤكل لحمه ، وروثه ، أو القول بطهارة ذلك ، وبيع الأعيان الغائبة بالصفة وترك ذلك ، والتميم بضربة أو ضربتين إلى الكوعين أو المرفقين ، والتميم لكل صلاة أو لوقت كل صلاة أو والاكتفاء بتميم واحد ، وقبول شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض أو المنع من قبول شهادتهم .

وهذا هو موقف الصحابة من القضايا الاجتهادية التي تقبل أكثر من فهم وأكثر من تفسير .

روى أن عمر رضى الله عنه قضى في المسألة المعروفة « بالمسألة الحجرية » في الميراث بعدم التشريك بين الإخوة الأشقاء والإخوة لأُم ، ثم رفعت إليه مرة أخرى فقضى فيها بالتشريك ، فقليل له : إنك لم تشرك بينهم عام كذا وكذا ، فقال عمر : تلك على ما قضينا يومئذ ، وهذه على ما قضينا اليوم .

وهذا فسر ابن القيم قول عمر في كتابه إلى أبي موسى الأشعري : « ولا يمنعك قضاء قضيت به اليوم ، فراجع فيه رأيك ، وهُدِيت فيه لرشدك ، أن تراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم ، لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التماذى في الباطل » .
وروى أن عمر لقي رجلا فقال : ما صنعت - يعنى في مسألة كانت معروضة للفصل فيها - فقال الرجل : قضى علىَّ وزيد بكذا .. فقال عمر : لو كنت أنا لقضيت بكذا ، قال الرجل : فما يمنعك والأمر إليك ؟ قال : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لفعلت ، ولكنى أردك إلى رأى ، والرأى مشترك .

ومما يساعد على التسامح وتبادل العذر فيما اختلف فيه : الاطلاع على

اختلاف العلماء ، ليعرف منه تعدد المذاهب ، وتنوع المآخذ والمشارب ، وأن لكل منهم وجهته وأدلته التي يستند إليها ، ويقول عليها ، وكلهم يغترف من بحر الشريعة وما أوسعها .

ومن أجل ذلك أكد علماؤنا فيما أكدوه وجوب العلم باختلاف الفقهاء كوجوب العلم بما أجمعوا عليه ، فإن اختلافهم رحمة واتفاقهم حجة . وفي هذا قالوا : من لم يعرف اختلاف الفقهاء فليس بعالم . من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم أنفه رائحة الفقه .

ينهون عن التقليد ... ويقلدون !

وآفة كثير من الدخلاء على العلم أنهم لا يعرفون إلا رأيا واحدا ووجهة واحدة ، أخذوا عن شيخ واحد أو انحصروا في مدرسة واحدة ، ولم يتبحروا لأنفسهم أن يسمعو رأيا آخر ، أو يناقشوا وجهة مخالفة ، أو يميلوا أنظارهم في أفكار المدارس الأخرى .

والعجيب في أمر هؤلاء أنهم ينهون عن التقليد ، وهم في الواقع مقلدون ، رفضوا تقليد الأئمة القدامى وقلدوا بعض المعاصرين ، وأنهم ينكرون المذاهب ، وقد جعلوا من آرائهم مذهبا خامسا ، يقاتلون دونه وينكرون من خالفه ! وأنهم ينكرون علم الكلام القديم وما فيه من جدليات وتزييدات ، وقد أنشئوا بأقاويلهم علم كلام جديدا ، لايهتم بغرس اليقين في القلوب بقدر ما يغرس في القلوب حب الجدل في أمور العقيدة .

إن موقف هؤلاء من الحقيقة موقف العميان من الفيل في القصة الهندية المشهورة ، فهم لا يعرفون إلا ما وقعت عليه أيديهم ، ولو وسعوا آفاقهم لعرفوا أن الأمر يتسع لأكثر من رأى وأن الآراء المتعددة يمكن أن تتعايش وإن اختلفت وتعارضت ، المهم هو الإنصاف وترك التعصب ، والاستماع إلى الآخرين ، فقد يكونون أصوب قولاً وأصح فهماً .

وكم من دارس منصف رجع عن تعصبه وغلوئه حين عرف أن في المسائل أقوالا عدة لعلماء معتبرين .

خذ مثلاً قضية رمى الجمار في الحج ، وما قاله بعضهم من أن مَنْ رمى الجمار قبل الزوال فحجه باطل لأنه خالف السنة .

قال جابر : رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر ضحى ، ورمى بعد ذلك بعد الزوال . وعن وبرة قال : سألت ابن عمر رضى الله عنهما : متى أرمى الجمار ؟ قال : إذا رمى إمامك فارمه ، فأعدت عليه المسألة قال : كنا نتحين فإذا زالت الشمس رمينا .

قال في (الفتح) : وفيه دليل على أن السنة أن يرمى الجمار - في غير يوم الأضحى - بعد الزوال ، وبه قال الجمهور .

وخالف فيه عطاء وطاووس فقالا : يجوز قبل الزوال مطلقاً ، ورخص الحنفية في الرمي قبل الزوال ، في يوم النحر أى يوم النزول من منى ، وكذلك روى عن إسحاق .

وهذه هي المسألة التي اختلف فيها الشيخ عبد الله بن زيد المحمود مع علماء الرياض ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وكتب فيها رسالة : «يسر الإسلام» ، واشتد المشايخ هناك في الرد عليه ، مع أن جواب ابن عمر لمن سأل - رغم تشدده في الاتباع - يدل على سهولة الأمر عنده ، وحسب المسلم في ذلك أن يتبع أمير الحجيج قَدَم أو آخر .

وقد اختلف الفقهاء في حكم الرمي نفسه ، كما في (الفتح) : فالجمهور على أنه واجب يجبر تركه بدم .

وعند المالكية أنه سنة مؤكدة ، وعندهم رواية أن رمى جمرة العقبة ركن يبطل الحج بتركه . ومقابله قول بعضهم : إنما شرع الرمي حفظاً للتكبير ، فإن تركه وكبر أجزأه ، حكاه ابن جرير عن عائشة وغيرها .

ويقول بعض الإخوة : إن الرأي الذي ينفرد به فقيه أو اثنان خلافاً للجمهور الأمة ، يجب ألا يعتد به ولا يعول عليه .

وقال غيرهم : إن ماخالف المذاهب الأربعة التي تلقى الأمة بالقبول يجب أن يرفض ولا يقام له اعتبار .

والحق أن هذا كله لا يقوم عليه دليل من كتاب أو سنة .
 فالإجماع الذى هو حجة - على ما قيل فيه - هو اتفاق جميع المجتهدين على حكم شرعى ، ولم يقل أحد ، إنه اتفاق الأكثرية أو الجمهور ، فالأمر ليس أمر تصويت بالعدد .
 صحيح أن رأى الجمهور وزنا يجعلنا نمنع النظر فيما خالفه ولا نخرج عنه إلا لاعتبارات أقوى منه ، ولكنه ليس معصوما على كل حال .
 وكم من صحابي انفرد عن سائر الصحابة برأى لم يوافق عليه سائرهم ولا يضره ذلك .
 وكم من فقهاء التابعين من كان له رأى خالفه آراء الآخرين ، ولم يسقط ذلك قوله ، فالمدار على الحجة لاعلى الكثرة .
 وكم من الأئمة الأربعة من انفرد عن الثلاثة بآراء وأقوال مضى عليها أتباع مذهبه مؤيدين ومصححين .
 ومذهب أحمد بن حنبل وهو المذهب المشهور باتباع الأثر ، قد عرف بـ (مفرداته) التى نظمها من نظم . وألف فيها من ألف ، وغدا من المعروف المؤلف أن يقرأ الباحث فيه هذه العبارة « وهذا من مفردات المذهب » .
 والمذاهب الأربعة - على ما لها من اعتبار وتقدير لدى جمهور الأمة - ليست حجة فى دين الله ، إنما الحجة ما تستند إليه من أدلة شرعية منقولة أو معقولة . وما يقال عن بعض الآراء : إنها شاذة أو مهجورة أو ضعيفة ، فهذا لا يؤخذ على إطلاقه وعمومه ، فكم من رأى مهجور أصبح مشهورا ، وكم من قول ضعيف فى عصر جاء من قواه ونصره ، وكم من قول شاذ فى وقت هب الله له من عرف به وصححه ، وأقام عليه الأدلة حتى غدا هو عمدة الفتوى .
 وحسبنا هنا آراء شيخ الإسلام ابن تيمية التى لقي من أجلها مالمقى فى حياته ، وظلت بعد وفاته قرونا ، وظل من العلماء من يعتبرها خرقا للإجماع ، حتى جاء عصرنا الذى وجد فيها سفينة الإنقاذ للأسرة المسلمة من الانهيار والدمار .

* * *

الفصل التاسع

على هامش السنة

ظهرت الكتب الستة التي جمعت جمهرة الأحاديث النبوية في أوائل القرن الثالث ، وتلمح ذلك في تواريخ أصحابها وهم رجال مهرة في هذا الفن ، ولا يمكن إنكار جهدهم وعطائهم ..

عاش البخارى بين عامى ١٩٤ - ٢٥٦ ، وعاش مسلم بين عامى ٢٠٤ - ٢٦١ ، وعاش النسائى بين عامى ٢١٥ - ٣٠٣ ، وعاش أبو داود بين عامى ٢٠٢ - ٢٧٥ ، وعاش الترمذى بين عامى ٢٠٩ - ٢٧٠ ، وعاش ابن ماجه بين عامى ٢٠٧ - ٢٧٣ .

كانت أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم متداولة بين الناس خلال القرنين السابقين ، بعضها مكتوب وبعضها مسطور ، وربما اختلط الصحيح والسقيم على العامة ، فكان العلماء يشرحون للناس أمر دينهم ، وينقون منابعه جهد طاقتهم .. ومعروف أن أبا حنيفة في العراق ، ومالكا في الحجاز أسسوا مدارس فقهية لها وزنها بين المجاهير ، تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يوجد في تاريخ الإسلام من تمرد على أن السنة ضميمه محترمة إلى القرآن الكريم ، وقد يثور نزاع حول حديث ما من حيث نسبته إلى صاحب الرسالة وهذا النزاع لا يمس الأساس الراسخ أن كتاب الله وسنة رسوله هما يتابع الإسلام ومعالم الأسرة الحسنة .. وقد لاحظ العلماء تفاوتاً بين طرق الإثبات عند أصحاب الكتب الستة ، إنهم جميعاً وجدوا أنفسهم أمام تراث كبير ، فكيف ينتقون منه ما يطمثون إلى صحة نسبته إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

كان البخارى ، رحمه الله ، أشد الأئمة تحرياً للصدق وضبطاً له ، وقد اشترط لقبول الرواية ثبوت التلاقي بين الراويين - بعد ثبوت المعاصرة طبعاً - وقد دَوَّن صحيحه بعد غربة رائعة لما وجدته شائعا ...

وفى صحيح البخارى قريب من ٢٦٠٠ حديث عدا المكرر .. وكان مسلم أقل تشدداً فاكتفى بثبوت المعاصرة ، ولم يبحث عن ثبوت اللقى ، كأنه افترض وقوعه أو وقوع مايسد مسدّه وعدد أحاديثه أكبر .. أما بقية الكتب الستة ففيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع - أحيانا - .

وهى فى نظرى أدق من مسند أحمد الذى جمع قرابة ثلاثين ألف حديث ، لا أشك فى أن بعضها لا أصل له .. وظاهر أن هؤلاء الأئمة نظروا فيما تجمع لديهم أواخر القرن الثانى الهجرى ، وظاهر كذلك أن البخارى تحرى ودقق ، وأن ابن حنبل تساهل عندما دَوَّن ... ربما أثبت غير البخارى ما تجاوزه البخارى ، وربما أثبت البخارى أحاديث تجاوزها مالك وأبو حنيفة فى القرن الثانى ، وقد عاشا فيه قبل أن يظهر البخارى . فمالك بن أنس يقرر فى مذهبه الفقهى أن ريق الكلب وعرقه طاهران ، ويستدل على ذلك بما ثبت فى باب « الصيد بالكلب المعلم » ، ويقول تعالى : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهم مما علمكم الله ، فكلوا مما أسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله إن الله سريع الحساب »^(١) . وأبو حنيفة يقرر أن المسلم إذا قتل حراً أو عبداً ، ذكراً أو أنثى ، مؤمناً أو كافراً ، قتل فيه ، وقوفاً عند ظاهر الآيتين « النفس بالنفس »^(٢) ، « وأن احكم بينهم بما أنزل الله »^(٣) .

(١) سورة المائدة : ٤ .

(٢) سورة المائدة : ٤٥ .

(٣) سورة المائدة : ٤٩ .

هل يفهم من ذلك أحد أن مالكا وأبا حنيفة يرفضان السنة مصدراً للأحكام ؟ لأن هناك أحاديث وردت تخالف قولها ؟ لا يقول ذلك عاقل ، كما أن البخارى لايتهم بخصومه السنة لأنه اكتفى بألفين وعدة مئات ، وترك الباقي من المرويات الكثيرة الموجودة أمامه وهى ألوف ، بل قيل : مئات الألوف .

إن لإثبات الحديث شروطاً فى المتن والسنة ، قد يختلف فيها العلماء ولاستفادة الحكم من الكتاب والسنة ! معاً قدراتٌ ذهنية وخلقية لاتتوافر لكل أحد . والاتفاق قائم بين السلف والخلف على أن تراث النبى عليه الصلاة والسلام ، ينضاف إلى الكتاب الكريم فى شرح الإسلام وبيان تعاليمه ..

والمشكلة التى نواجهها فى عصرنا الحاضر أناس خاصمو أئمة الفقه ، وقالوا : نرفض التقليد المذهبي ، ثم أعملوا عقولهم فيما يتداولون من أحاديث ، ووصلوا إلى أفهام ينكرها القرآن ، ويرفضها الأئمة القدامى ، ويستنكرها أصحاب الفطر السليمة ، فإذا حاكمتهم إلى المقررات الدينية الثابتة ، قالوا لك فى غلظة وجفاء : إنك تنكر السنة وتخاصم الرسول !..

الحق أننا نواجه أزمة أخلاق إلى جانب أزمة الثقافة .. قفلة البضاعة من العلم محنة ، فإذا انضم إليها حب التطاول على الناس ، وتلمس العيوب للأبرياء زادت المصيبة ...

على أن الإنكار والإثبات للمرويات ليس كلاً مباحاً ، كما أن تقرير شريعة الله فى العلاقات الفردية والدولية ، وشئون الأسرة ، وتداول المال الخاص والعام ، وأساليب الحكم والشورى ، وغير ذلك من شئون لايجوز أن يتحدث فيه إلا أهل الذكر . أما العمال والفلاحون والبدو فمالهم ولهذه الشئون ؟

فى الأحاديث المردودة :

يشتغل بعلوم الحديث الآن رجالان كبيران ، الشيخ محمد ناصر الألبانى ، والشيخ عبد الله الصديق الغمارى ، وقد تابعت مايكتبان ، وأخذت عنهما معارف ثمينة ، وهما فى نظرى من الراسخين فى هذا الجانب الثقافى من علوم الدين ...

ولا أكثر لما بينهما من تخالف ، فالأول قريب من السلفيين ، والآخر قريب من الأشاعرة ، وأنا في دراسة العقائد أنظر إلى الخلاف الموروث نظرة بعيدة عن الفريقين ، لأنني أرفض الآثار الإيجابية والسلبية للفلسفة الإغريقية التي أغارت على تاريخنا العلمي . وأعتمد المنهج القرآني فيما وراء المادة ، والمنهج القرآني الكوني في دراسة المادة نفسها ..

من أجل ذلك تجنبت الحديث في النظريات الكلامية عند السلفيين والأشاعرة . واهتممت بالجانب العملي في الفقه والسلوك .

وقد ظهر أخيراً كتاب « الفوائد المقصودة في بيان الأحاديث الشاذة المردودة » للحافظ عبد الله بن محمد الصديق - دار الفرقان - الدار البيضاء .

قرأت الكتاب فوجدت المؤلف قد أثبت ٤٣ حديثاً حكم عليها بالشذوذ ، مع أن أغلبها صحيح الإسناد ، وذلك لما رآه في متونها من مخالفات .

وبعد دراسة للكتاب رأيت أن أذكر نماذج لما ساق من آثار ، وافقته في أغلبها وترددت في بعضها .. فما وافقته في رده ماجاء ص ٩٢ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « استأذنت ربي أن أستغفر لأمتي ، فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي » .

هذا الحديث شاذ ، لمخالفته لآيات القرآن الكريم ، قال الله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »^(١) وقال أيضاً : « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون »^(٢) أي لم يأتهم نذير يذكرهم ، وقال سبحانه في حق العرب : « وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير »^(٣) ، وقال أيضاً : « لتندر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون »^(٤) .

وأمّ النبي صلى الله عليه وسلم عاشت في زمن الفطرة ، لم يأتها نذير ولا علمت

(١) الإسراء : ١٥ .

(٢) سورة الأنعام : ١٣١ .

(٣) سورة سبأ : ٤٤ .

(٤) سورة السجدة : ٣ .

به ، فالعذاب منفي عنها بصراحة هذه الآيات ، والحديث المذكور في منع الاستغفار لها شاذ لا يعمل به ، وخبر الآحاد لا يقدّم على القرآن الكريم ، وهذا واضح لاختفاء فيه ، ومثله مارواه أحمد في المسند بإسناد ضعيف عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : يا رسول الله ، أين أمي ؟ قال : أمك في النار ، قلت : فأين من مضى من أهلك ؟ قال : « أما ترضى أن تكون أمك مع أمي » فهذا مع ضعفة شاذ أيضا .

ومن الروايات السخيفة أن يجازف شخص بإثبات آثار تمس القرآن الكريم ، بل إلى أعد ذلك من السفه المنكور ..

أليس من المضحك أن ينسب إلى ابن مسعود أنه أنكر كون المعوذتين من القرآن الكريم ؟ أتبلغ الخفاوة بالروايات التافهة هذا الحد من الخساسة !!! أحيانا يخيل إلى أن أصحاب المساند جمعوها أولاً مسودات تضم كل ما قيل ، على أن يمحوا منها بعد ذلك الأساطير ، ثم ماتوا قبل أن يتموا أعمالهم ! ومن أمثلة ذلك ماجاء في المسند ج ٦ ص ٢٦٩ عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : لقد أنزلت آية الرجم والرضعات العشر ، فكانت في ورقة تحت سرير في بيتي ، فلما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تشاغلنا بأمره ، ودخلت دويبة لنا - تعنى شاة - فأكلتها .

قال القمارى : هذا أثر شاذ منكر ، شديد النكارة ، لأن نسخ التلاوة محال ، كما بيته في جزء ذوق الخلاوة .

ثم من المنكر الذى لا يعقل أن تدخل شاة البيت وتأكل ورقة فيها قرآن ولا يعلم أحد ، هذا من الباطل المردود قطعاً ، ولو جوزنا أن تأكل شاة ورقة فيها قرآن منسوخ على رأى من يميز النسخ لجاز أن تأكل ورقة فيها قرآن غير منسوخ ، فترتفع الثقة بالقرآن كله ، لأنه قد يكون أكل منه شيء ، والله تعالى يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١) .

(١) سورة الحجر : ٩ .

ومن المقرر في كتاب الله عز وجل أن خلق العالم أجمع تمّ في ستة أيام ، فكيف يذهل عن ذلك أحد ، فيروى حديثاً يفيد أن الخلق استغرق سبعة أيام ١٩ ثم يذكر ذلك في تفصيل شديد البعد عن الواقع القرآني المعروف . روى مسلم والنسائي وغيرهما عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجرة يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » .

هذا الحديث شاذ ، لأنه يفيد خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام ، مع أن القرآن يفيد أن خلق السموات والأرض معاً كان في ستة أيام ، وقد علل البخاري هذا الحديث في التاريخ فقال : رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعب الأحبار وهو الأصح .

وكعب الأحبار ناقل لخرافات قومه ، ولا وزن له ، ومن العجب أن ينخدع أبو هريرة به

الخلافاً في صلاة الجماعة :

بين الفقهاء خلافاً في صلاة الجماعة ، فمنهم من يراها فرض عين ، ومنهم من يراها فرض كفاية ، ومنهم من يراها سنة مؤكدة .. والأخير أحب الأقوال إلىّ ، وأولاه بالتقديم ، ذلك أن النبيّ عليه الصلاة والسلام ، لم يبطل صلاة الفذ ، بل عدها ناقصة الأجر إلى حد بعيد ، وهذا هو المستفاد من الحديث : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » .

والتفاوت بين الثوابين شاسع ، لأن الجماعة من شعائر الإسلام ، ولا يُحكم الروابط بين المسلمين كهذا اللقاء المتكرر من الصبح إلى العشاء ..

والآثار الروحية والاجتماعية للاحتشاد في المسجد لاحصر لها ، ومايزهد فيها
محـب لله ورسوله ..

وقد كان الكفار والمنافقون قديما يضيـقون بالمساجـد ، ويتشاقلون عن
الجماعات ، وربما تجمعوا في بيوتهم أو في أنديتهم هاجرين الصلوات المفروضة وقد
يسخرون منها ومن الدعوة إليها ، كما جاء في قوله تعالى (١) : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَاتَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُم
وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّؤْمِنِينَ ، وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا
هُزُوا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » .

وقد همَّ النبي عليه الصلاة والسلام بمهاجمة أولئك العابثين وتحريق بيوتهم
عليهم حسما لشـرهم ، ولكنه اكتفى بالتهديد ، ولعل ذلك التهديد شتت شملهم
لأنهم جنباء ، وذلك في رأينا معنى ماجاء في الصحاح عن أبي هريرة أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ناسا في بعض الصلوات - لتكرار تحلفهم - فقال :
لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها ، فأمر
بهم فيحرقوا عليهم بحزم الخطب بيوتهم ، ولو علم أحدهم أنه يجد عظمى سمينا
لشهدها « يعنى صلاة العشاء والفجر خاصة فقد كانتا أثقل الصلوات على
المنافقين ..

ونحن نهيب بالمؤمنين أن يعمرؤا المساجد ، وأن يزحموا الصفوف ، وأن
يقاوموا إغراء الحضارة المادية المعاصرة ، فقد أكثرت من شغل الناس بالدنيا
وأبعدت الجماهير عن مرضاة الله ..

ومع ذلك فلا نحكم بفساد صلاة من أدى الصلاة في البيت أو السوق أو
الحقل ، وإن نقص ثوابه ..

وللمحدثين كلام في هذا الموضوع لـاخرج من سوقه :
روى أبو داود وابن ماجه عن ابن أم مكتوم أنه سأل النبي صلى الله عليه

(١) المائدة : (٥٧ - ٥٨) .

وسلم : فقال : يا رسول الله ، إني رجل ضرير شاسع الدار ، ولى قائد لا يلاينى ، فهل لى رخصة أن أصلى فى بيتى ؟ قال : هل تسمع النداء ؟ قلت : نعم ، قال : لا أجد لك رخصة .

ورواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : أتى النبىُّ صلى الله عليه وسلم رجل أعمى - فذكر نحوه ..

ويدل هذا السياق على أن الجماعة فرض عين ، لكن الغارى يقول : إن هذا الحديث شاذ ، ومما يدل على شذوذه حديث عتبان بن مالك أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إني قد أنكرت بصرى ، وأنا أصلى لقومى ، وإذا كانت الأمطار سال الوادى الذى بينى وبينهم ، ولم أستطع أن آتى مسجدهم فأصلى لهم ، ووددت أنك يا رسول الله تأتى فتصلى فى مصلى ألتخذه مصلى ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأفعل إن شاء الله « الحديث رواه مسلم وغيره .

وفيه الرخصة فى التخلف عن الجماعة لعذر ، وهو إجماع ، وقال بعضهم : إن عدم الترخيص لابن أم مكتوم أنه كان يصلى فى المسجد النبوى ، وهذا المسجد خاصة يمتنع التخلف عن الجماعة فيه ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم يحضرها ويؤم فيها المؤمنين .

وهذه قضية نختلف فيها الشيخ الغارى دون جفاء ولا بداء ، وننشد فيها الحق وحده .

لقد علمنا من القرآن الكريم أن الذين عثروا على أهل الكهف بعد مماتهم اختلفوا فى شأنهم « إذا ^(١) يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لتتخذن عليهم مسجدا » . والآية تشير إلى أن اتخاذ المساجد على قبور الصالحين كان أمرا معهودا بين الأولين ، ثم جاء الإسلام فكره الصلاة فى المقبرة ! وقال الرسول الكريم : « ألا

(١) الكهف : ٢١ .

لا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن هذا » .
ويظهر أن العباد في المساجد قد تتعلق قلوبهم بالمقبورين فيها ، فيتخذونهم
شفعاء إلى الله ، وقد جاء في سورة الجن^(١) « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله
أحدًا » .

ورأيت في تجاربي مع الناس أنهم يفعلون ذلك ، وقد أهدى الأستاذ توفيق
الحكيم أحد كتبه إلى السيدة زينب قائلاً في إهدائه : « إلى حاميتي
الطاهرة .. » !!

ومن ثم فقد توقفت عند نقل الشيخ الغاري ص ١٠٥ عن أبي هريرة وابن
عباس وعائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله اليهود ، اتخذوا
قبور أنبيائهم مساجد » هذا حديث ثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق ، وقد
عمل به كثير من العلماء المتقدمين والمتأخرين ، ولم يتفطنوا لما فيه من العلل التي
تقتضي ترك العمل به ، وذلك أن القرآن الكريم يعارض هذا الحديث من ثلاثة
أوجه .

وخلاصة الوجوه الثلاثة أن اليهود آذوا الله ورسوله بتهم شائنة ، استحقوا عليها
اللعنة ، وأنهم كانوا يقتلون الأنبياء ، وحاولوا قتل عيسى ومحمد عليهما الصلاة
والسلام .. فكيف يتصور منهم بعد عدوانهم على المرسلين أن يتخذوا قبورهم
مساجد ؟ إن هذا مستبعد .

ونجيب بأن الله وصف اليهود بقول^(٢) : « وقطعناهم في الأرض أئماً ، منهم
الصلحون ، ومنهم دون ذلك ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات ، لعلمهم يرجعون »
فالصلحون أبوا الاعتداء على الأنبياء ، والمجرمون سفكوا دماءهم ، وبعد قتلهم
بنيت المعابد على قبورهم تكريماً لهم .

على أن هذه المقابر وساكنيها حصدت مع اجتياح الأعداء للأرض المقدسة ،
فليس هناك الآن قبر قائم به نبي معروف ! وحل محل القبور الدارسة أصنام

(٢) الأعراف : ١٦٨ .

(١) الجن : ١٨ .

وأنصاب ومذابح في الكنائس المسيحية ، وسميت هذه الكنائس باسم قديسين وقديسات ، وهذه التسمية نفسها موضع اعتراض ، فليس هناك معصومون ولا معصومات يلود البشر بأسمائهم أو بتأثيلهم .
وقد أشرنا إلى أن تمثال القديس بطرس في روما تُجدّد قدمه كثيرا لأنها تبرى من كثرة من يُقبّلونها ويتمسحون بها ، فلا إنكار إذا حرم الإسلام هذا كله وجرّد المعابد من مظاهر الوثنية ، وجعل المساجد لله وحده .

الفجوة بين الفقه والأثر

في عصور الاضمحلال الثقافي وضعت نخوم مفتعلة بين المذاهب الفقهية والكلامية والصوفية ، حتى كاد كل مذهب منها يعتبر دولة مستقلة ؛ لها أتباعها ولواؤها وجنسياتها ..
وهذا وضع شاذ ضال ترك آثارا رديئة في وحدة الأمة وتراص صفوفها وتماسكها أمام خصومها ، وأصاب الإسلام نفسه في حقيقته ورسالته وغاياته في هذه الحياة !

ما معنى أن يكون ولاء المسلم لأي حنيفة أو ابن حنبل ؟
ولماذا يعدّ منهج أيها أسلوب حياته الأمثل ؟ ومثله الأعلى الذي يعرضه على الناس أو ينشده لهم ؟ ويُرَوَّر عن سواه أو يخاصمهم .
إنني زرت بلادا إسلامية كثيرة ، فرأيت وجهة نظر فقهية معينة تحكم الألوف المؤلفة يحتسبون داخل نطاقها ولا يحسنون التنفّس إلا من خلالها ، ويؤسسون خصوماتهم وصدقاتهم على أساسها ...
وزرت أقطارا لا تعرف الإسلام ، فرأيت فيها ما أنكر ، ورأيت فيها ما يوافق رأي فلان عندنا ، أو يقترب من فهم نفر من علمائنا ..
وعندما ألفت كتابي الأخير « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » لقيت العنت من ناس لا يعرفون إلا رأي ابن الصلاح في القضية المطروحة ، أما العراق مثلا وغيره كالنوى ؛ وسائر المحققين فلم يمرّ بهم !!

وأثناء دعوتي للإسلام قلت لأصحابي : إن ديننا يحارب من جهات عدة ، من اليمن واليسار والوسط ، ومن العجز وأنا أدافع عنه ؛ أن ألترم برأى واحد اشتهر هنا ، واستخفى هناك ، يجب أن أتقل بين آراء كل الأئمة ، وأنتفع بشئ الفهم المأنوسة والبعيدة ..

ولا حرج على أن أقف في قلعة أبي حنيفة وأنا أتحدث في نظام الزكاة ، أو أقف في قلعة ابن تيمية وأنا أتحدث عن نظام الطلاق ، وأن أقف في قلعة مالك وأنا أتحدث في نظام الأطعمة .. الخ ، إن أولئك جميعا رجالا للإسلام وخدم رسالته ولا بأس على أن أخطب عقولهم فيما أواجه من قضايا ..
المهم عندي هو الإسلام الجامع لا الرأي المذهبي ..

وأعترف أن بعضا من يتسمون « علماء الدين » عندنا كانوا بلاء على الدعوة في الخارج ، كما كانوا بلاء على الدين نفسه داخل البيت الإسلامي والشارع الإسلامي .. إنهم أنصاف متعلمين ، يريد كل واحد منهم أن يكون المتحدث الرسمي باسم الإسلام ، وزاد الطين بلة الادعاء الذي لا يسانده وعي مكتمل واستبحار معجب ، كل واحد منهم كما قال الرافعي : أبو حنيفة ولكن من غير رأى ، ومالك ولكن من غير سنة ، والشافعي ولكن من غير أصول ، وأحمد ولكن من غير رواية ..

والذي أطلبه : أمران : الأول سعة المعرفة ، فإن قلة العلم مصيبة ، خصوصا مع التصدر للفتوى والحكم والقضاء والدعوة .

والثاني : إرادة الله ، والآخرة ، فإن استغلال الدين للعالمية الجرائم . وقد تتناقص الأحكام التي ينتهي إليها الأئمة ، فلنعلم أن السلب والإيجاب هنا سواء ، المهم أن يتحرك المرء بعلم وتجرؤ .

قرأت كلام ابن تيمية في كتابه السياسة الشرعية ، فرأيت يوجب الحدود ، ولا يجعل للتوبة أثرا في وقفها ، ثم قرأت كلامه في الفتاوى فرأيت يقف الحدود بالتوبة الصادقة ..

ثم قرأت في المحلى أن الشافعي في مذهبه القديم كان يقف الحد بالتوبة ، أما بعد

ذهابه إلى مصر فقد حكم بأن التوبة لا تسقط الحد !!
 إن كلا الرجلين يناقض الآخر فيما بدأ به وانتهى إليه ! ليكن ، فهذا حق المجتهد
 لا ينكره عليه عاقل ..
 ثم يبيح دورنا نحن لنعالج شئون الناس بتقليد هذا أو ذاك ! أو باجتهاد جديد
 يصدر من أهله ! وأهله هم أهل الذكر الأتقياء المخلصون ..
 ولا حرج عندي قط أن يكون الاجتهاد جماعيا أو فرديا ، وإن كانت الجماعة
 أحب إليّ وأجدى !
 إن العالم الكبير أمسى مدنية واحدة ، وتقارب الزمان والمكان مع تقدم العلم
 المادى .. فلا يسوغ أن يكون العالم الإسلامى مقطع الأوصال ، يحيا كل قطر منه
 معزولا علميا وعمليا عن غيره من أقطار الإسلام القرية والبعيدة ..
 ومن بلغهم شئ من علوم الإسلام يبلغهم غيره ، ينبغي أن يستقبلوا الجديد الذى
 غاب عنهم ببصيرة مفتوحة وتفهم حسن ..
 وانتهى من هذه الفذلكة إلى أن علوم الفقه ، وعلوم السنة لها رجال كثيرون
 تختلف مشاربهم ومناهجهم الفكرية والسلوكية وأن تاريخ هذه العلوم فى تراثنا جدير
 بالنظر الدقيق ، حتى نحسن بناء مستقبلنا على بصيرة .
 إن المدارس النقلية والعقلية فى الإسلام كثيرة ، وهى الأساس الأهم فى ارتقاء
 حضارته وسبق أمته ..

ويوجد الآن من يريد إهالة التراب على مدرسة الأصوليين ، وسد آفاقها ! ومن
 يريد محو الفقه المذهبي وتجفيف بحاره العميقة ! ومن يريد استبعاد كل تفسير إلا ما
 كان أثريا ، ومن يريد تغليب الأثر الواهى على القياس القطعى ، ومن يتطير إذا سمع
 كلمة فلسفة إسلامية ، ومن يرفض كل حديث عن التزينة والتصوف وأعمال
 القلوب ...

ماذا يبقى بعدئذ من علوم الدين ؟ أخبار القصاص ، ورواية الحديث دون فقه ؟
 ثم نقول مع الباحثرى :
 وكأن الزمان أصبح محمولا هواه مع الأنحس الأنحس

كيف نهض مع هذا التحجير؟!

* * *

وبين السند والمتن

هل علماء الحديث الأقدمون اهتموا بالسند ولم يهتموا بالمتن؟ وإذا كان فيهم من شغلته الرواية ورجالها، فهل الفقهاء ذهلوا عن مناقشة المتن وإدانة النظر فيها؟ لنذكر هنا كلام الدكتور مصطفى السباعي من كتابه «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» :

ذكر الدكتور السباعي العلامات التي تدل على الوضع، وقسمها إلى قسمين :
علامات في السند، وعلامات في المتن.

علامات الوضع في السند :

- ١- أن يكون راويه كذابا معروفا بالكذب ولا يرويه ثقة غيره ..
- ٢- أن يعترف واضعه بالوضع .
- ٣- أن يروى الراوى عن شيخ لم يثبت لقياه له ، أو ولد بعد وفاته ، أو لم يدخل المكان الذى ادعى سماعه فيه ...
- ٤- وقد يستفاد الوضع من حال الراوى وبواعثه النفسية ، مثل ما أخرجه الحاكم ، عن سيف بن عمر التميمي ، أنه قال : كنا عند سعد بن طريف ، فجاء ابنه من الكتاب ييكى ، فقال : مالك؟ فقال : ضربنى المعلم . فقال سعد : لأخزينهم اليوم ، حدثنى عكرمة عن ابن عباس ، مرفوعا « معلمو صبيانكم شراركم ، أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المساكين » . ومثل حديث : « الهريسة تشد الظهر » فإن واضعه محمد بن الحجاج النخعي كان يبيع الهريسة .

علامات الوضع في المتن :

١ - ركافة اللفظ : بحيث يدرك العليم بأسرار البيان العربي أن مثل هذا اللفظ ركيك ، لا يصدر عن فصيح ولا بليغ ، فكيف بسيد الفصحاء صلى الله عليه وسلم ؟ قال الحافظ بن حجر : ومحل هذا إن وقع التصريح بأنه من ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن دقيق العيد : كثيرا ما يحكمون بذلك - أى بالوضع - باعتبار أمور ترجع إلى المروى ، وحاصله أنهم لكثرة ممارستهم لألفاظ الحديث ، حصلت لهم هيئة نفسانية ، وملكة قوية ، يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظ النبي وما لا يجوز .

٢ - فساد المعنى : بأن يكون الحديث مخالفا لبديهيات العقول ، من غير أن يمكن تأويله .. ، أو أن يكون مخالفا للقواعد العامة في الحكم والأخلاق .. ، أو داعيا إلى الشهوة والمفسدة .. ، أو مخالفا للحس والمشاهدة .. ، أو يكون مخالفا لقطعيات التاريخ ، أو سنة الله في الكون والإنسان ..

٣ - مخالفته لصريح القرآن بحيث لا يقبل التأويل .. ، ومثل ذلك أن يكون مخالفا لصريح السنة المتواترة .. ، أو يكون مخالفا للقواعد العامة المأخوذة من القرآن والسنة ...

٤ - مخالفته لحقائق التاريخ المعروفة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ..

٥ - موافقة الحديث لمذهب الراوى وهو متعصب مغال في تعصبه ..

٦ - أن يتضمن الحديث أمرا من شأنه أن تتوفر الدواعى على نقله ؛ لأنه وقع بمشهد عظيم ، ثم لا يشتهر ولا يرويه إلا واحد ..

٧ - اشتغال الحديث على إفراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير ، والمبالغة بالوعيد الشديد على الأمر الحقير ..

ثم قال السباعى رحمه الله : هذه هى أهم القواعد التى وضعها العلماء لنقد الحديث ، ومعرفة صحيحه من موضوعه ، ومنه ترى أنهم لم يقتصروا في جهدهم على نقد السند فقط ، أو يوجهوا جلّ عنايتهم إليه دون المتن ، كما سيأتى في زعم

بعض المستشرقين ومشايخهم بل كان نقدهم منصبا على السند والمتن على السواء ، ولقد رأيت كيف جعلوا لأمارات الوضع أربعا في السند ، وسبعا منها في المتن ، ولم يكتفوا بهذا ؛ بل جعلوا للذوق الفني مجالا في نقد الأحاديث ، وردّها أو قبولها ، فكثيرا ما ردوا أحاديث لمجرد سماعهم لها ، لأن ملكتهم الفنية لم تستسغها ولم تقبلها ، ومن هذا كثيرا ما يقولون : « هذا الحديث عليه ظلمه ، أو متنه مظلم ، أو ينكره القلب ، أو لا تطمئن إليه النفس » .

وذكر الأستاذ محمد الصباغ علامات الوضع في المتن ، وزاد فيها علامة مهمة حيث قال : مخالفته لمقصد من مقاصد الشريعة ، أو هدف من أهدافها ، أو قاعدة من قواعدها ، مثل : « خيركم بعد المتين من لا زوجة له ولا ولد » فحفظ النسل مقصد من مقاصد الشريعة .

أخيرا يسرني إثبات هذا النقل النافع عن الكتاب الرائع الجيد الذي ألفه الدكتور صلاح الدين أحمد الأدلبي « منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي » زاده الله توفيقا .

وقد عرض المؤلف الجانب التطبيق للقواعد الآتفة ، وذكر أن ابن الجوزي ألف كتابه المشهور « الموضوعات » وكأنه استلهمها في أحكامه الصارمة ، ولم يبال وهو حنبلي أن يذكر عددا من الأحاديث المكذوبة جاءت في المسند ، منها على سبيل المثال :

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عسقلان أحد العروسين ، يبعث منها يوم القيامة سبعون ألفا لا حساب عليهم ، ويبعث منها خمسون ألفا شهداء ، وفودا إلى الله عز وجل ، وبها صفوف الشهداء ، رءوسهم مقطعة في أيديهم ، تثج أوداجهم دما ، يقولون ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ، إنك لا تحلف الميعاد ، فيقول : صدق عبيدى ، اغسلوهم بنهر البیضة ، فيخرجون منها نقيا بيضا ، فيسرحون في الجنة حيث شاءوا » .

وعسقلان لم يدخلها الإسلام في عهد النبى صلى الله عليه وسلم . والغريب أن ابن حجر العسقلاني دافع دفاعا حارّا عن أمثال هذه الأحاديث

محاوفا تصحيحها ، ولفس هذا علفه بمستغرب ، فهو الذى صصح حءفث الغرائف ، وففف به باب شر ، لا فزال فءفل منه الأفافون لفنالفوا منا .. ففرالله لنا وله .

والحق أن المسند ففضمف مفونا لا فمكن قفولها . ومن فابب العلماء أن فنفهوا فلفها ، ونحن فعءفر عن صافب المسند بقول الشاعر :
ومن ذا الذى فرفف سفافاه كلفها كفى المرء نبالا أن فعء معافه
وأحمد بن حنبل من رجالات الإسلام الشافحن .

المرأة وخدمة السنة

علوم السنة من أهم علوم الشرفعة ، والصدارة ففها ففحاف إلى ذهن نافء مسفعب حففظ .

وقء كنت أظن النساء آفر من فشفغل بهذه العلوم ، بله أن فبرزن ففها وفلفغن مرتبة الإمامة ؛ فف قراءت رسالة « السنة النبوة فى القرن السادس الهجرى » للءكفور محمود إفرهم الءفك ، فوجدف عالماف بالسنة ، لا فشفق لفن فبار ، وفسن نزا فسفر ؛ بل عشراف من العالماف الفقاا ..!

والقرن السادس ففس من قرون الازءهار العلمى فى فارفنا ، بل هو من أواخر العصر العباسى الفافى ، عئءما مالف شمس الءولة للغروب ، ثم سقطف فف برافن الفار فى مفصف القرن السابع !

ومع طفبعة هذا القرن الءابلة ؛ فإن علماء المسلمين كانوا فستمففون فى بناء المفمع وإشاعة الحفاة فى ففبافه ، إذا كانت الأحوال السفاسة مترءفة ؛ وعمل الحكام هافطا ..

وقء ففج عن ذلك أمر عجب ، فإن الفار المفصرفن ءفلوا فى ءفن الأمة المهزومة ؛ إذ كان مسفواها العقلى والفلقى أرفى .

إننا لو فرضنا أن « نامففا » وافها قوة عسكرفة مباغفة ؛ فهزمت انجلترا أو

أمريكا ، إنها تكسب معركة وحسب ، أما البقاء الحضارى فهو من حظ الأرشد والأرفع ، ستطويها حضارة الغرب الأرجح فى الميزان . من أجل ذلك رأينا التتار بعدما هزموا المسلمين دخلوا فى دينهم !

ونسأل : من صنع هذا الرجحان الأدبى ؟ من جعل الأمة المغلوبة تبقى سيدة الموقف وإن ضاعت عسكريا ؟؟ إنهم العلماء والدعاة والمربون !! هؤلاء هم الجنود المجهولون الذين أنفذوا رسالة الإسلام عندما عبثت بمستقبلها السياسة ! وقد تكررت هذه النماذج فى العالم كله ، فإن الشعب الألمانى حفظ مستقبله ، واستعاده بعدما أضاعه « هتلر » وكذلك الشعب اليابانى ...

المهم أن تكون أعمدة الحضارة فى تاريخ الأمة قائمة لا منهارة ، وقد نظرت فى ماضينا الثقافى فوجدت قيادنا الروحى والعلمى أقوى وأنصر من قيادنا السياسى ، بل إن مؤرخين كبارا كتوينبى ، وأرنولد توماس ؛ لاحظوا أن رقعة الإسلام اتسعت أيام الهزائم الكبيرة أكثر مما اتسعت أيام الانتصارات الخطيرة ..

ونعود إلى النشاط النسائى فى خدمة السنة النبوية ، كما ذكره الدكتور محمود الديك فى رسالته الرائعة ، ونسجل عددا من هؤلاء النسوة الأئمة غير متقيدين بترتيب ما ..

أولا هؤلاء الأساتذة السيدة المُسَنِّدة - بصيغة اسم الفاعل - شهدة بنت الإبرى الكاتبة ، وكانت ذات دين وورع وعبادة ، سمعت من العلماء الكثير ، وعُمِّرت - عاشت قريبا من مائة عام - وكانت مليحة الخط ! ! لم يوجد فى زمانها من يكتب مثلها ، وقد تزوجت أحد وكلاء الخليفة ، وقضيت حياتها فى الدراسة والتعليم .. لا يعنينا هنا أن أذكر أسماء الرجال الذين تلقت عنهم ، وإنما يهمنا أن أذكر بعض من تَلَقَّوا العلم عليها ومنحتهم إجازة علمية بالرواية والتحديث ...

قالوا : سمع منها أبو سعد بن السمعانى ، وروى عنها الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، وهو المؤرخ المشهور ، والموفق بن قدامة الفقيه الحنبلى الثقة ، كما حدث أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى أنها من شيوخه ! ! وابن الجوزى من أرسخ الوعاظ قدما ، وهو مؤرخ ومفسر ومحدث له مكانة.

سامقة ! وقد روى عنها حديثا طريفا ندع سنده ونذكر متنه لما فيه من عبره ، فقد نقلت عن عبد العزيز بن يحيى النخعي أنه كان يصلى فى مسجد على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقرأ الإمام ذات ليلة « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فقطع صلاته ، وجُنَّ ، وهام على وجهه ، ولم يوقف له على أثر !!
والعاطفة الدينية المشبوبة قد تكون لها آثار مدمرة عند بعض الناس ، وأرى أن مثل هذه المرويات إذا سمح بها فى مجلس وعظ فيجب ألا تمر دون تعليق يضبط معناها ، وينبئ ضررها ..

والدعوة الدينية فى عصرنا تحتاج إلى فقه وروية وذكاء .
وابن الجوزى فى كتابه « صيد الخاطر » يلفت النظر إلى هذه الحقيقة . وهو كتاب عامر بالنظرات النافذة والنقد اللاذع ، والوعظ الحقى ..
وهذا الحديث الذى روته شهدة بنت الإبرى ، يحسن أن يكون وصفا لسيدة أخرى من سيدات القرن السادس هـ : « شمس الضحى » المتوفاة سنة ٥٨٨ هـ ، كانت تلقى الدروس فى مساجد بغداد ، وكانت معروفة بالزهد والتقوى والإقبال على الله ، ولكن علاقتها بالله لم تورثها شيئا من التطرف العاطفى المهلك ، وقد روت بعض السنن ، وصحبت الشيخ أبا النجيب السهروردى ..
وودِدْتُ لو أن مساجد العواصم الكبرى فى عالمنا الإسلامى المعاصر يدرس بها مثل هذا الصنف من الواعظات القانتات المجيدات ..

إن الحاجة إليهن مُلِحَّةٌ مع الغزو الحضارى الفتان الذى نتعرض له ، لكن دون ذلك جنادل من أدياء التدثين الزاعمين بأن المرأة لم تخلق لهذا (!) كأنها لا تصلح إلا فراشا لفحل لا هنا ولا هناك !!

ولم تكن شمس الضحى وحدها فى هذا المجال النبيل ، بل كان هناك أيضا « ضوء الصباح » بنت المبارك البغدادية المدعوة بخاصة العلماء ، وهى سيدة اشتهرت بكثرت تلاوتها للقرآن الكريم ، وكانت تعقد مجلس الوعظ فى رباطها ، وتزوجها الشيخ أبو النجيب السهروردى .
ومن روى السنة عنها أبو سعد السمعانى .

ومن المحدثات أيضا « بلقيس بنت سليمان بن أحمد بن الوزير نظام الملك » ولدت بأصبهان سنة ٥١٧ هـ وتوفيت سنة ٥٩٢ هـ ، وكان لها شيوخ من الرجال والنساء ، وسمع منها جماعة من العلماء ، وحدث عنها يوسف بن خليل وغيره . لنترك هذا السرد ، لتتناول الموضوع من ناحية أخرى .

لنا منها اجازة

لقد أفدت كثيرا من كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذرى ، وأنا أدّرس لجاهير المصلين الذين يعمرّون بيوت الله ، وما أحسب المؤلف رحمه الله ترك حديثا في قضية تعرّض لها ، وإن كان خلط بين الصحيح والسقيم خلطا بينا ، وعُدّره أنه يروى كل ما ورد ، وأنه لا يخدع القارئ فيتركه حائرا في مَيز هذا من ذاك ، كلا .. !

إنه يَعرّو كل حديث إلى مصدره ، فما كان من رواية البخارى ومسلم فقد تجاوز القنطرة ، وما كان من رواية غيرهما نقد السند ببصيرة وذكر ما يلحظه من ضعف ، إما بصيغة التمريض وهى « رَوَى » أو بذكر اسم الراوى المَثَم ! ولكن كثيرا من القراء لا يبالون بصحيح ولا ضعيف ، ويروون كل ما يقرءون ! وقد لاحظتُ أن المنذرى فى كتابه يحترم الشواهد من الصحاح إذا ساندت حديثا فيه ضعف ، ومن ثم قبل حديث « النار أسرع إلى فسقة القراء منها إلى عبدة الأوثان » على حين رفض الألبانى الحديث ، وحكم بوضعه ! ووجهة نظر المنذرى أن حديث مسلم عن أول ثلاثة تُسعر بهم النار يوم القيامة ... يصدّق الحديث الوارد فى القراء الفسقة ، وإيّا ما كان الأمر فالخطب سهل ، وشكّر الله للرجلين الباحثين ، فقد يسّروا لنا علما نافعا ..

استوقفنى وأنا أقرأ فى تراجم محدّثى القرن السادس أن أبا البركات البغدادى - من علماء السنة - كان له أختان ، إحداهما أمّ الحياء حفصة ، وهى راوية موثقة دارسة ، قال المنذرى عنها : ولنا منها إجازة ؛ كتبت عنها فى شوال سنة ٦٠٨ هـ ! وتوفيت هذه السيدة التى تلقى عنها المنذرى سنة ٦١٢ هـ ..

وهناك سيدة أخرى « أم حبيبة الأصبهانية عائشة بنت الحافظ معمر بن الفاخر القرشية العبشمية » ، قال الحافظ المنذرى فى التكملة : حدثت الناس ، ولنا منها إجازة ، كتبت بها إلينا من أصبهان فى ذى القعدة سنة ٦٠٦ هـ !
 إن هذا الإمام الضخم يذكر دون تخرج أنه تلقى عن نساء فضليات ، أجزئه ، وأذن له بالتحديث .. ويستطيع القارئ أن يقرأ أسماء عشرات فى قرن واحد من أولئك العلامات البارعات فى الدراسات الإسلامية ...
 أما زينب بنت الشعري وتدعى حرّة ! [٥٢٤ - ٦١٥] هـ ، فقد قال عنها ابن خلكان : لنا منها إجازة كتبها سنة ٦١٠ هـ

يا عجباً كبار المؤرخين والمحدثين يذكرون بتواضع العلماء وصدقهم أنهم أخذوا العلم عن نساء معروفات ، وأنهم نالوا منهن شهادات تقدير وتكريم وثقة !!
 ماذا حدث لأمتنا فمُحِلَّتْ الساحة من طالبات العلم وأساتذته ، وجاءت قرون أمسى فيها ذهاب فتاة إلى مدرسة جريمة ! بل خَلَّتْ المساجد من العابدات فأضحت صلاة المرأة فى مسجد منكراً !!..

وصار ذكر اسم المرأة ؛ أمّا كانت أو زوجة ، شيئاً إذاً ، وخيّم صمت مطبق على العالم النسائى ، فما يعرض للنساء ذكر فى حديث عابر ، ولو حدث لأمراً ما أن ذكر اسم امرأة ؛ فعلى وَجَل ، وبعد اعتذار يقول فيه المتحدث للسامعين .
 حاشاكم ، أو لامؤاخذة ، وقد رأيت ذلك بعينى فى أقطار شتى !!

فى قرينتنا - من مائة عام - كان النساء يذهبن إلى الأسواق يشتريّن السلع ثم يعدن بها إلى بيوتهن ، وكن يذهبن إلى الحقول يشاركن فى البذر والرّى والحصاد !
 وما رُئيت امرأة قط فى مسجد ، ولا أدّت فيه صلاة ، سواء كانت شابة أو شيخخة !! كان المسجد محظوراً عليهن ؛ لأن رواية شاردة قررت ذلك ، كما كانت المدرسة محظورة عليهن ، لأن رواية فاسدة أوجبت عليهن الأمية !!

ويوجد الآن من العاملين فى الحقل الإسلامى من يكره أحوال المرأة فى هذا العصر ، ويريد العودة بها إلى الأوضاع المأنوسة منذ مائة عام صائناً : لا عمل للمرأة إلا ولادة الرجال (!)

وأعود إلى تاريخنا في القرن السادس لأقرأ فيه أن الحافظ أبا العلاء بن العطار - وكان إمام همدان في علوم الحديث والقراءات ؛ والأدب والزهد ؛ وحُسن الأسلوب والتزام السنة - كانت له ابنة اسمها « عاتكة بنت أبي العلاء » وكانت من المحدثات المتقنات لعلوم السنة !

قالوا : سمعت الكثير من أبي الوقت عبد الأول السنجرى ، وقدمت إلى بغداد من همدان ، ودرست السنة ...

قال محب الدين النجار : كتبنا عنها ... وتوفيت رحمها الله سنة ٦٠٩ هـ ، قامت نصف الليل وتوضأت ، وكانت ليلة شديدة البرد ، ثم وقفت في محرابها تصلّي ، فلما سجدت ماتت !! رضوان الله عليها ، وكأن فيها قول الشاعر :

في ظلام الليل منفردًا قام يدعو الواحد الصمد
عابد لم تُبقِ طاعته منه لا روحا ولا جسدا

ونُحتم بتاريخ فاطمة بنت سعد الخير الأنصارى الأندلسى التى ولدت بالصين سنة ٥٢٢ هـ وتوفيت بالقاهرة سنة ٦٠٠ هـ ، تلّقت العلم عن والدها ، وعن غيره من المحدثين الكبار ببغداد ، ثم قامت بالتدريس في القاهرة ودمشق ، وسمع منها جماعة من الشيوخ - منهم شيوخ المندرى الحافظ الضخم ، الذى يقول عنها : سمع منها شيوخنا ورفقاؤنا ، ولنا منها إجازة (!) .

لقد جاءت من الصين مع والدها ، وتلقت العلم في بغداد ، ثم رحلت إلى دمشق ! ثم استقر بها المقام في القاهرة حتى توفيت بها ، ودفنت في سفع جبل المقطم !

وأظن قبرها دَرَسَ مع قبور المثات من علماء الدين والأدب واللغة ... والمأساة أن المرأة التى ذرعت الطريق من الصين إلى القاهرة التى جاء أبوها من بلنسية في الأندلس ، إلى الشرق الإسلامى ، ليخدم العلم في أرجائه الرحبة ، جاء بعدها في هذه السنين العجاف الهابطة من يقول : تخرج المرأة من بيتها لأمرين : إلى الزوج ، أو إلى القبر !!

ما أبعد الشقة بين عصر وعصر ، وبين أسلاف وأخلاف بين أناس أحيوا الإسلام وأناس أماتوه .

مبادرات في العمل العام :

وكتب الأستاذ حسن عبد الوهاب عن النشاط النسائي في بعض العصور الإسلامية ، فكشف عن جانب مهم من دعمها للمبرات العامة ، وسدّها لشقّي الثغور الاجتماعية ، وبروزها في بذل الخير وتفريج الكربات ، قال : « مامن ناحية من نواحي حضارتنا وثقافتنا إلا ولها فيها نصيب موفور ، فهاهي الفتوحات الإسلامية ، ساهمت فيها مع الرجال ، واشتركت في ميادين القتال ، ودأوت الجرحى ، واكتسبت بما لها وحليها وشعرها ، لمساعدة الجيوش . أما أثرها في النهضة العلمية ، فقد اعترف به أجلة العلماء ، ويكفي أن نعرف أن أبا نواس الشاعر يقول عن نفسه : « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب ، منهن الخنساء ولبلى » ، وأن من شيوخ العلامة المحدث ابن عساكر مؤرخ الشام كَيْفًا وثمانين امرأة ، وأن الخوارزمي الشاعر المشهور كان من محفوظاته أكثر من عشرين ألف بيت من شعر النساء ، وأن كثيرا من أجلة العلماء تلقوا العلم عن سيدات ، وحصلوا على إجازات منهن .

وإنه ليسر المشتغل بالعمارة الإسلامية أن يرى في جميع الأقطار الإسلامية آثارا أمَرَنَ بإنشائها من مالهن الخاص احتسابا لله .

وكفاهن فخرا ما قامت به السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد ، فإنها كانت من أفراد الدهر ، فقد أنفقت أموالها الطائلة بغير حساب ، في تحصين الثغور ، والحصون ، ثم نظرت إلى ما يلاقيه الحجاج من المشاق في الذهاب من العراق إلى بيت الله الحرام ، فأرسلت المهندسين وأمدّتهم بالمال والعمال ، فقسّموا الطريق بين مكة وبغداد إلى خمس عشرة مرحلة ، وأنشؤوا في كل واحدة منها بئرا أو اثنتين ، وأنشؤوا الصهاريج والحياض لأختزان مياه الأمطار ، وشيّدت في بعض المراحل قصورا وقبابا ومساجد بحسب الحاجة ، واستمر العمال والمهندسون يعملون على جرّ

الماء إلى مكة بلا مبالاة بالنفقات الباهظة ، وهى باقية إلى الآن ، وتعرف « بعين زبيدة » وحينما عرضت عليها مصاريف هذه العين ألفت الحساب فى النهر وقالت : « تركنا الحساب ليوم الحساب » .

ولسيدات البيت العباسى ولع بتعمير الحرم المدنى ، وكانت السيدة خالصة إحدى جوارى الرشيد أول من أحدث السقايات فى صحن المسجد النبوى . وقد أنشأ النساء كثيرا من المساجد والخوانق ، والرُّبُط والمدارس ، فى الأندلس والعراق والحجاز والشام وفلسطين ، وكلها متوجة بأسمائهن . وكان لمصر نصيب موفور من هذه المنشآت التى أدت رسالتها الدينية والثقافية والاجتماعية .

وإذا رأيناها تنشئ الربط والخوانق ، فالمرجح أنها خصصتها للنساء ، فقد وجد مكتوبا على الخانقاه التى أنشأتها بدمشق حوالى سنة ٦٥٠هـ - ١٢٥٢م ، السيدة فاطمة بنت الملك الكامل محمد مانصه : « وقفت هذه الخانكاه فاطمة بنت الملك العادل محمد بن العادل بن أبى بكر بن أيوب على الفقيرات المقيات بها ، وإظهارا للصلوات الخمس والمبيت فيها » كما أن التاريخ يؤكد ذلك .

إذن فهى التى فكرت فى بنات جنسها فخصّصت الخوانق والربط لإيوائهن ، وثقيفهن . وتعتبر دورا لحماية النساء ، وسنكتفى بذكر ما أنشئ منها بمصر : كان بالقرافة الكبرى عدة دور ، يقال للدار منها رباط ، على هيئة ماكانت عليه بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، خصصت لإقامة العجائز والأرامل ، والمنقطعات ، وكانت لها مرتبات للصرف على المقيات بها ، وكان لهن مجالس وعظ مشهورة .

ونظرا لأن القرافة الكبرى كانت آهلة بالسكان ، عامرة بالمساجد والجواسق والبساتين ، وكانت معتبرة من متزهات مصر ، وخاصة فى الليالى القمرية ، فقد أنشئت فيها أيضا الربط الكثيرة ، ومنها رباط بنت الخواص ، ورباط الأشراف الذى أنشأه أبو بكر محمد بن على المادرائى ، وخصصه لإقامة نساء الأشراف . وأنشأت السيدات بها ربطا لإقامة الفقيرات والأرامل فيها ، أذكر منها :

رباط رياض : أنشأته السيدة رياض سكرتيرة الحافظ لدين الله بجوار مسجدها لإقامة النساء المنقطعات .

رباط الحجازية : أمرت بإنشائه السيدة فوز جارية على بن أحمد الجرجاني الوزير بجوار مسجدها ، وأوقفته على أم الخير الحجازية الواعظة ، وكانت الحجازية واعظة زمانها ، وكانت من الخيرات ، وقد تصدرت حلقات الدروس والوعظ في جامع عمرو بن العاص حوالى سنة ٤١٥هـ - ١٠٢٤م ، كما عُيِّنَتْ بتثقيف المقيّات بهذا الرباط .

رباط الأندلس : أنشأته السيدة علم الآمرية أم ابنة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله سنة ٥١٦ هـ - ١١٢٢م بجوار مسجدها لإقامة العجائز والأرامل والمنقطعات ، وكان لهذه السيدة صدقات كثيرة ، وكانت تبث إلى الأشراف بصلات جزيلة ، وترسل إلى من أخنى عليهم الدهر من أرباب البيوت والمستورين بأموال كثيرة .

رباط البغدادية : هذا الرباط كان بالدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس الجاشنكير ، أمرت بإنشائه السيدة الجليلة تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م للشيخة الصالحة زينب ابنة أبى البركات المعروفة ببنت البغدادية ، فأنزلتها به ، ومعها عدد من السيدات الخيرات ، وأمرت بالصرف عليهن .

وكان يختار لرئاسة هذا الرباط سيدات مثقفات لتهديب وتعليم المقيّات فيه ، ومن تَوَلَّيْنَ مشيخته ، الشيخة الصالحة سيدة نساء زمانها أمام زينب بنت عباس البغدادية ، وكانت فقيهة وافرة العلم زاهدة واعظة ، مخلصه ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكانت تحضر مجلس الشيخ تقى الدين بن تيمية ، فاستفادت منه ، وقد وصفها بالفضيلة والعلم ، حتى إنه كان يستعد لها من كثرة مسائلها وسرعة فهمها ، وقد ختم القرآن على يديها كثير من فضليات النساء ، وانتفع بعلمها كثير من نساء مصر ، ودمشق ، وصار كل من تتولى رئاسة هذا الرباط يقال لها البغدادية .

وقد خصص لإقامة النساء اللاتي طلقن أو هجرن حتى يتزوجن ، أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن . وكانت بقايا هذا الرباط موجودة إلى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٦م ، وتنحصر في زاوية بها بقايا مقرنصات قبتين ، بهما أثر زخارف جصية ، ثم استبدلته وزارة الأوقاف ، وهدمه المستبدل ، وأنشأ مكانه منزلا رقم ١٨ بالدرب الأصفر ، قسم الجمالية .

رباط سنقر السعدى : أنشأه الأمير شمس الدين سنقر السعدى ، نقيب الممالك السلطانية سنة ٧١٥هـ - ١٣١٥م ، بجوار مدرسته بشارع السيوفية ، وخصصه لإقامة النساء المنقطعات والأرامل ، ولم يبق من هذه المجموعة سوى المدخل والقبة والمئذنة ، وهى بقايا معمارية على جانب عظيم من الأهمية .
خانقاه أم أنوك : هذه الخانقاه بصحراء قايتباى ، أنشأتها السيدة طغاي أم أنوك زوجة الناصر محمد بن قلاوون حوالى سنة ٧٤٥هـ - ١٣٤٤م ولعلها كانت مخصصة للنساء ، حيث نرى المقريزى يقول : « وجعلت بها صوفية وقراء ، ورصدت لها الأوقاف الكثيرة ، وقررت لكل جارية من جوارىها مرتبا » . وإلى الآن توجد بقايا هذه الخانقاه ، وتنحصر في إيوان وقبة ، وبقايا من خلاوى للصوفية .

رباط زوجة إينال : هذا الرباط بالخرنفش ، أمرت بإنشائه السيدة الجليلة يد زينب زوجة السلطان إينال سنة ٨٦٠هـ - ١٤٥٥م وخصصته لإقامة إمل ، ووقفت عليه الأوقاف التى تغل للصرف عليه ، ومازال هذا الرباط موجودا بجميع تفاصيله ، ويشتمل من الداخل على إيوانين ، بالشرق منها راب ، وحول الحوش وأعلى الإيوان الغربى غرف للمقيات فيه ، وليس للحجرات ولا للقاعات به شبابيك مطلة على الخارج ، وقد بالغ واضع تصميم هذا الرباط في جعله بمعزل عما هو خارج عنه ، حتى إنه لم يترك فيه مايؤدى إلى الخارج إلا الباب ، وهذا الباب يوصل إلى داخل الرباط بدهليز طويل فيه تعاريج .

ظلت دور كفالة المرأة تؤدي وظيفتها في العصر الإسلامى إلى أن نصب معين

أوقافها في العصر العثماني ، فَأُهْمِلَتْ وَتَحَرَّبَتْ ، على أننا وجدنا سيدات العصر العثماني - وإلى وقت قريب - كُنَّ يُعَيَّنَ بِن يتصل بهن من النساء ، فقد كن يعنين بتربيتهن وتزويجهن ، كما كن يشركنهن في ميراثهن أو أوقافهن ، مما كان له خير أثر في كفالة المرأة وصيانتها .

أقول : ثم مات النشاط النسائي في القرون الأخيرة ، وجاء في هذا القرن من يرى إمامته إحياء للسنة ، وعودة إلى الصراط المستقيم ! والجهالة فنون ! !

الدراسة الأزهرية ومصادر التشريع

كنت مع الأستاذ الشيخ محمد أبو شهبة ، وهو يذيع شروحا جيدة لصحيح البخاري من إذاعة مكة المكرمة ، كان علمه غزيرا وبيانه جميلا ، رحمة الله عليه .

وفي يوم ما رأيته بادى الغضب ، فسألته : مالى أراك مهتاجا ؟ قال : ألم تر إلى فلان يشكك في حديث : « إذا وقع الذباب في إناء أحدكم ... » وهو من الصحاح ؟

قلت : إننى اطلعت على مقاله علماء الأحياء في الموضوع ، ليس في كلامهم نفي ولا جزم بأن الذباب من الحشرات التى تحمل في جناحيها الداء والدواء معاً . فليبحثوا مشاءوا ، والحديث باق عندنا على حكمه ! فإذا استقروا بطريق القطع على أن أجنحة الذباب تحمل المرض والترياق ، كان الحديث من آيات النبوة ، وإلا فلهم اجتهدهم الظنى ، ولنا حديثنا الظنى .

ولن تهى للإسلام قاعدة أو تسقط منه شرفة إذا اختلفت النتائج بالسلب أو الإيجاب ..

المهم هى اليقينية .. ! لكن الشيخ رحمه الله ، اتجه إلى أن خبر الواحد يفيد اليقين ! ! قلت : أهذا ماتعلمناه في الأزهر ؟ أخذعنا مشايخنا وهم يشرحون لنا علوم الحديث ... ؟

كتب الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، في كتابه : « الإسلام عقيدة وشريعة » فصلا شرح فيه الفروق بين الظن واليقين ، في المعرفة الدينية ، جاء فيه مايلي :

إذا كانت العقيدة لا تثبت إلا بنص قطعى في وروده ودلالته ، كان لابد من تبين المبادئ التى تقوم عليها قطعية السنة أو ظنيها .

وأول ما يجب التنبه له فى هذا المقام ، أن الظنية تلحق السنة من جهتي الورد والدلالة . فقد يكون فى اتصال الحديث برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، شبهة فيكون ظني الورد ، وقد يلبس دلالته احتمال فيكون ظني الدلالة ، وقد يجتمع فيه الأمران : الشبهة فى اتصاله ، والاحتمال فى دلالته ، فيكون ظنيا فى وروده ودلالته .

ومنى لحقت الظنية الحديث على أى نحو من هذه الثلاثة ، فلا يمكن أن تثبت به عقيدة يكفر منكرها ، وإنما يثبت الحديث العقيدة وينهض حجة عليها إذا كان قطعيا فى وروده وفى دلالته .

ولكى يتضح مناط القطعية والظنية فى ورود الحديث ، ينبغي أن نبين مآقده العلماء فى التواتر والآحاد ، ليكون منارا يهتدى به من يريد الوصول إلى الحق . قسم العلماء السنة إلى قسمين : ماورد بطريق التواتر ، وما ورد بطريق الآحاد .

وضابط التواتر أن يبلغ الرواة حداً من الكثرة تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب ، ولابد أن يكون ذلك متحققا فى جميع طبقاته : أوله ومنتهاه ووسطه ، بأن يروى جمع عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يروى عنهم جمع مثلهم ، وهكذا حتى يصل إلينا ، وهو عند التحقيق رواية الكافة عن الكافة .

ويقول بعض علماء الأصول : الخبر المتواتر هو الذى اتصل بك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اتصالا بلا شبهة ، حتى صار كالمعائن المسموع منه ، وذلك أن يرويه قوم لا يحصى عددهم ، ولا يثنوهم تواطؤهم على الكذب ، لكثرتهم وعدالتهم وتغاير أماكنهم ، ويدوم هذا فى وسطه وآخره كأوله ، وذلك

مثل : القرآن والصلوات الخمس ، وأعداد الركعات ، ومقادير الزكوات .

الآحاد لا تفيد اليقين :

هذا هو التواتر الذى يوجب اليقين بثبوت الخبر عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أما إذا روى الخبر واحد ، أو عدد يسير ولو فى بعض طبقاته ، فإنه لا يكون متواترا مقطوعا بنسبته إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وإنما يكون آحاديا ، فى اتصاله بالرسول شبهة ، فلا يفيد اليقين .

إلى هذا ذهب أهل العلم ، ومنهم الأئمة الأربعة : مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد فى إحدى الروايتين عنه ، وقد جاء فى الرواية الأخرى خلاف ذلك ، وفيها يقول شارح مسلم الثبوت (وهذا بعيد عن مثله ، فإنه مكابرة ظاهرة) . وقال البزدوى : وأما دعوى علم اليقين - يريد فى أحاديث الآحاد - فباطلة بلاشبهة ، لأن العيان يرده ، وهذا لأن خبر الواحد محتمل لاحتمال ، ولا يقين مع الاحتمال ، ومن أنكر هذا فقد سفه نفسه وأضل عقله .

وقال الغزالى : خبر الواحد لا يفيد العلم وهو - أى عدم إفادته العلم - معلوم بالضرورة ، وما نقل عن المحدثين من أنه يوجب العلم فلعلهم أرادوا أنه يفيد العلم بوجود العمل إذ يسمى الظن علما . ولذا قال بعضهم : خبر الآحاد يورث العلم الظاهر ، والعلم ليس له ظاهر وباطن وإنما هو الظن - نقول والعمل بالظن جائز فى الفروع .

وقال الأسنوى : وأما السنة فالآحاد منها لا يفيد إلا الظن .

وقال البزدوى تفريعا على أن خبر الواحد لا يفيد العلم : خبر الواحد لما لم يفد اليقين لا يكون حجة فيما يرجع إلى الاعتقاد لأنه مبنى على اليقين ، وإنما كان حجة فيما قصد فيه العمل .

وقال الأسنوى : إن رواية الآحاد إن أفادت فإنما تفيد الظن والشارع إنما أجاز الظن فى المسائل العملية ، وهى الفروع دون العلمية كقواعد أصول الدين . وهكذا نجد نصوص العلماء من أصوليين ومتكلمين مجتمعة على أن خبر

الآحاد لا يفيد اليقين ، فلا تثبت به العقيدة ، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضرورى ، لا يصح أن ينازع أحد فى شىء منه ، ويحملون قول من قال : إن خبر الواحد يفيد العلم ، على أن العلم بمعنى الظن ...
ثم قرأت بعدئذ كتاب « منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوى » فأدركت أنا على حق ، وأن شيوئنا كانوا يقررون الصواب .
يسوق الدكتور المؤلف صلاح الدين بن أحمد الأدبى هذه النصوص الكاشفة ، فلنتدبرها معه :

« قال الخطيب البغدادى : (ولا يقبل خبر الواحد فى منافاة حكم العقل ، وحكم القرآن الثابت المحكم ، والسنة المعلومة ، والفعل الجارى مجرى السنة ، وكل دليل مقطوع به ، وقال : وكل خبر واحد ، دل العقل ، أو نص الكتاب ، أو الثابت من الأخبار ، أو الإجماع ، أو الأدلة الثابتة المعلومة ، على صحته ، وجد خبر آخر يعارضه ، فإنه يجب اطراح ذلك المعارض ، والعمل بالثابت الصحيح اللازم ، لأن العمل بالمعلوم واجب على كل حال) .

فقد جعل الخطيب البغدادى خبر الآحاد غير مقبول فى الحالات التالية :

- ١ - إذا كان منافيا لحكم العقل .
- ٢ - إذا كان منافيا لحكم القرآن الثابت المحكم ، أى إذا كان الحكم المستفاد من النص القرآنى ثابتا محكما ، أما منافاته لحكم ظنى الدلالة من نص القرآن فلا توجب رده !
- ٣ - إذا كان منافيا للسنة المعلومة ، أى إذا كانت السنة قد ثبتت بطريق العلم لا بالظن .
- ٤ - إذا كان منافيا للفعل الجارى مجرى السنة ، ولعله يعنى إذا كان الخبر منافيا لعمل السلف المتفق عليه ، الثابت بطريق العلم لا بالظن .
- ٥ - إذا كان منافيا لأى دليل مقطوع به .
- ٦ - إذا كان معارضا لخبر آحادى آخر ، وكان ذلك الخبر مما ثبتت صحته عندنا بدلالة العقل ، أو دلالة نص الكتاب ، أو دلالة الثابت من الأخبار

الأخرى أو دلالة الإجماع ، أو ماسوى ذلك من الأدلة الثابتة المعلومة .
وقال ابن الجوزى : واعلم أن الحديث المنكر ، يقشعر له جلد طالب العلم
وقلبه فى الغالب . وقال : لأن المستحيل لو صدر عن الثقات رُدَّ ، ونسب إليهم
الخطأ ، ألا ترى أنه لو اجتمع خلق من الثقات فأخبروا أن الجمل قد دخل فى سم
الخياط ، لما نفعتنا ثقتهم ، ولا أثرت فى خبرهم ، لأنهم أخبروا بمستحيل ، فكل
حديث رأيت يخالف المعقول ، أو يناقض الأصول ، فاعلم أنه موضوع ، فلا
تتكلف اعتباره .. ١

وقد لخص ابن الجوزى بحوثا كثيرة بهذه الكلمة الجامعة وهى قوله : « فكل
حديث رأيت يخالف المعقول أو يناقض الأصول ، فاعلم أنه موضوع » .

وهنا نجى العلاقة بين صحة السند وصحة المتن :
يقول ابن القيم فى هذا : « وقد علم أن صحة الإسناد شرط من شروط صحة
الحديث ، وليست موجبة لصحة الحديث ، فإن الحديث إنما يصح بمجموع
أمر ، منها صحة سنده ، وائتفاء علته ، وعدم شذوذه ونكارتة » .

ومن دقة نظر المحدثين ، أنهم يحكمون للحديث بأنه « صحيح الإسناد » وقد
يقولون : « صحيح » ، وبينهما فرق كبير ، فالتعبير الأول دون الثانى ، لأن الأول
يتكلم عن الإسناد وحده ، والثانى يشمل الإسناد والمتن .

– درجة القطع بصحة الصحيح :

تعمق علماء الحديث أكثر من ذلك ، فبحثوا فى الحديث الصحيح ، وهو
ماصح سنده ومتنه ، هل نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحه ، فيما
ظهر لنا حسب اجتهادنا ؟ أو على وجه القطع فى حقيقة الأمر والواقع ؟ وإذا لم
يكن قطعيا فإنه لا يوجب العلم ، ولكن يوجب العمل بمقتضاه أما إذا قلنا بأنه
قطعى فإنه يوجب العلم .

قال جماعة من أهل الحديث ، منهم الحسين الكرايسى : إن الحديث
الصحيح الآحادى قطعى ، وإنه يوجب العلم والعمل جميعا ، وهو رأى ابن
حزم .

وقال جمهور أهل الحديث والفقه ، منهم الشافعي والباقلاني والعراقي : إن المراد من قولنا : « هذا حديث صحيح » أى فيما ظهر لنا ، عملاً بظاهر الإسناد ، لا أنه مقطوع بصحته فى نفس الأمر .

وقال العراقي : « هذا هو الصحيح » أى فإعداه باطل ... !
وكلامهم فى الحديث الصحيح هنا يتعلق بأحاديث الآحاد ، أما الحديث المتواتر فإنه مقطوع به ، ويوجب العلم والعمل ، وهذا باتفاق العلماء .
- درجة أحاديث الصحيحين :

إذا وصل حديث فى صحيح البخارى أو صحيح مسلم ، إلى درجة التواتر ، فإنه يصبح بذلك قطعى الثبوت ، فلا اختلاف فيه ...
أما بقية الأحاديث فيها ، وهى المروية بطريق الآحاد ، فهل ينطبق عليها ماتقدم فى درجة القطع بصحة الصحيح ؟

قال ابن الصلاح : إن ما أخرجه الشيخان أو أحدهما فهو مقطوع بصحته .
وخالفه جمهور العلماء ، بل قال العراقي : « وخالفه المحققون » .
ويرى ابن الصلاح أن الأمة حيث تلقتها بالقبول ، فكأن هذا إجماع على صحتها ، وأن كل ما فيها صحيح سنداً ومتناً .

ولكن الجمهور لا يرون أن الأمة قد اتفقت على صحة هذين الكتابين ، بل الاتفاق إنما وقع على جواز العمل بما فيها ، وذلك لا ينافى أن يكون ما فيها ثابتاً بطريق غلبة الظن ، لا القطع ، فإن الله لم يكلفنا بدرجة القطع فى تفاصيل الأحكام العملية ، ولذلك يجب الحكم بموجب البينة ، وهى لانتفاء إلا الظن .
وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحديث الصحيح الآحادى ، قد تحفُّ به قرائن مؤيدة مؤكدة ، فينتقل من درجة الظن إلى درجة القطع فى الثبوت ، أو إلى ما يقرب منها ، وربما كان هذا منطبقاً على كثير من أحاديث الصحيحين ، لكن لا يمكن تعميمه على جميعها .

يتضح مما سبق ، أن الحديث يعرض على معايير نقد المتن ، حتى ولو كان صحيح السند ، بل الحديث الصحيح الآحادى ليس مقطوعاً بصحته سواء أكان

في الصحيحين أو غيرهما ، وصحته ثابتة بطريق غلبة الظن ، مادام غير متواتر ولا مدعم بالقرائن المؤيدة .

الخلافات في الكلاميات والفقهيات

في مناقشة رسالة جامعية أورد الطالب نقلا عن ابن القيم ، يتوقف فيه عن النفي والإثبات إذا ما سئل : هل الله جسم ؟
قلت للطالب : من الخير ترك هذا التوقف ! فقد اتضح أن الجسم مادة ، وعرفت خصائص المادة من تحيز وقصور ذاتي ، وغير ذلك ... وعلينا أن نجيب بنفي الجسمية دون تردد ..

ولعل ذلك أدنى إلى معنى الآية الكريمة « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وأحسب أن ابن القيم لو كان حيا لفعل ذلك ..

وقد قاوم الطالب قليلا ، ثم رأى مع اللجنة حذف هذه الفقرة ..
وسأني أن أحد الناس سألني : أتكره ابن القيم ؟ فقلت على عجل : كلا ، بل إني شديد الحب له ، كثير الإفادة من علمه وأدبه ، ولا علاقة بين البحث العلمي ومشاعر الحب والكره كما تتصورون ، إنني طالب علم وناشد حق وحسب !

واستليت : مع أني أميل أحيانا إلى الفقه الحنفي ، فإني جانح بفؤادي وإعجابي إلى الشافعي وهو يقول عن علمه : وددت لو انتشر هذا العلم دون أن يعرف الناس صاحبه ! ليتنا نرزق هذا الإخلاص ..

ومع ضيقي بتساهل صاحب المسند في إيراد بعض المرويات ، فإني أتبعه بإعزاز عميق وهو يستكبر على الدنيا ، ويستعف عن مآربها ، ويستصغر المال والجاه والحكم وهو يدرس للناس ..

إن هؤلاء الأئمة الكبار شيوخوا جميعا عن جدارة .. والبحث العلمي بصوابه وخطئه لا يعكر ما يجب للعلماء من توقير ...

بيد أن بعض الفتية يوقدون في عصرنا هذا فتنا مخوفة ، بسو مسلكهم ! هل نحول المسجد إلى ساحة حرب لأن البعض في رمضان يريدون صلاة التراويح ثمانيا ، والآخر يريدوها عشرين ؟!

قلت لمن يريدها ثمانيا : صلّ مع الجمهور العدد الذي ترى ، ثم انصرف في هدوء ! قال : إنك تكره السنة ! قلت : بل أكره الفتن مظهر منها ومابطن .. وكم من سنن تريدون إحياءها كما ترعمون ، لاتزيد الأمة إلا بلاء .. إن تحديد نافلةٍ ما لا يجوز أن يخلق أزمة ، وإذا كان قيام نافلة سيهدم فريضة فلا أقامها الله .

إننا أمة تحمل دعوة التوحيد ، وتقدم للعالمين رسالة الحق والخير ، فهل يجوز في هذا الميدان الحادّ أن تشغلوا الناس عن الأصل الكبير بآرائكم الصغيرة ؟!

اجمعوا الناس على الفرائض والفضائل ، وتساهلوا في المستحبات ، وأصلحوا ذات البين ، وإذا كان لأحدكم رأى في قضية ثانوية فليتنازل عنه ، أو يؤجله للمستقبل !

ما معنى أن تذهبوا إلى إنجلترا حيث تملكها امرأة ، وتحكمها امرأة ، ويسودها ازدهار رائع ، فلا يكون لكم كلام إلا أن ولاية المرأة لاتجوز ؟! ماذا عليكم لو شغلتم أنفسكم وشغلتم الناس بشرح عقيدة التوحيد ، وبيان آثارها النفسية والاجتماعية ..؟

وماذا عليكم لو طال الحديث في الكمال الإلهي ، والضعف البشري والجزاء الأخرى ؟

إنني أذكر هذا الكلام بين يدي فتوى أصدرها الأزهر الشريف حسنا لفتن شديدة أشعلها فتية أغرار ، باسم إقامة السنة وتحت عنوان السلفية .. وقد توسعت الفتوى في شرح الأحكام والأدلة ، حتى تسدّ الطرق أمام أصحاب الشغب والغرض ...

السيد الأستاذ رئيس لجنة الفتوى - الأزهر الشريف
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد
فهل من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحریم يعد كافرا أم لا ؟
نرجو الإفادة بالرأى مع الاستدلال . وشكرا .

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين .
وبعد

- تنقسم الأحكام عند الجمهور إلى خمسة أقسام :
- ١ - الواجب : وهو ما يثبت طلبه من المكلف ، بنص صريح قطعى الثبوت وقطعى الدلالة . (بمعنى أن له معنى واحدا فلا يختلف فى معناه المجتهدون) من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة .
 - ٢ - المحرم : هو ما طلب الشارع من المكلف تركه ، بدليل قطعى الثبوت وقطعى الدلالة ، من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة .
 - ٣ - المندوب : ما طلب الشارع فعله طلبا غير حتم ولا جازم ، يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه .
 - ٤ - المكروه : ما طلب الشارع تركه طلبا غير حتم ، ويثاب على تركه ولا يعاقب على فعله .
 - ٥ - المباح : ما خیر المكلف بين فعله وتركه ، أو لم يرد دليل فيه بالتحريم . وتنقسم السنة إلى : متواترة وآحادية .
- فالمتواترة هى مارواها جمع عن جمع يستحيل أو يبعد أن يتفقوا على الكذب . قال الحازمى فى شروط الأئمة الخمسة ص ٣٧ : « وإثبات التواتر فى الحديث عسر جدا »

وقال الشاطبى فى الجزء الأول من الاعتصام ص ١٣٥ : « أعوّز أن يوجد حديث المتواتر واختلاف علماء السنة على ثبوته وعدده ، يرى الجمهور أن من أنكر

استقلال السنة المتواترة بإثبات واجب أو محرم فقد كفر - أقول : أغلب السنن العملية متواترة ...

والسنة الأحادية : هي مارواه عدد دون التواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم - وقد اختلف العلماء في استقلال السنة الأحادية بإثبات واجب أو محرم . فذهب الشافعية ومن تبعهم إلى أن من أنكر ذلك في الأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج والزكاة فهو كافر ، ومن أنكر ذلك في الأحكام العلمية كالإلهيات والرسالات ، وأخبار الآخرة والغيبات ، فهو غير كافر ، لأن الأحكام العلمية لا تثبت إلا بدليل قطعي من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة .

وذهب الحنفية ومن تبعهم إلى أن السنة الأحادية لا تستقل بإثبات واجب أو محرم ، سواء كان الواجب علمياً أو عملياً ، وعليه فلا يكفر منكرها ، وإلى هذا ذهب علماء أصول الفقه الحنفية ، فقال البزدوى : « دعوى علم اليقين بحديث الآحاد باطلة ، لأن خبر الآحاد محتمل لاحتمال ، ولایقین مع الاحتمال ، ومن أنكر ذلك فقد سفه نفسه وأضل عقله » .

وبهذا أخذ الإمام محمد عبده والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمود أبو دققة وغيرهم .

يقوم المرحوم الإمام محمد عبده : « القرآن الكريم هو الدليل الوحيد الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته ، أما ما عداها مما ورد في الأحاديث سواء صح سندها أو اشتهر أم ضعف ، فليس مما يوجب القطع .

كما ذكر الشيخ شلتوت في كتابه « الإسلام عقيدة وشرعة » قوله ^(١) : « إن الظن يلحق السنة من جهة الورود (السند) ، ومن جهة الدلالة (المعنى) كالشبهة في اتصاله والاحتمال في دلالة .

ويرى الإمام الشاطبي في كتابه « الموافقات » أن السنة لا تستقل بإثبات الواجب والمحرم ، لأن وظيفتها فقط تخصيص عام القرآن ، وتقييد مطلقه ، وتفسير مجمله ،

(١) سبق إيراد النص كاملاً .

ويجب أن يكون ذلك بالأحاديث المتواترة لا الآحادية .
ويؤيد آراء من سبق ذكرهم ما جاء في صحيح البخاري ، باب الوصية (وصية الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته) :
عن طلحة بن مصرف قال : سألت ابن أبي أوفى : هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا . قلت : كيف كتب على الناس الوصية أو أمروا بها ولم يوص ؟ قال : أوصى بكتاب الله .
قال ابن حجر في شرح الحديث : « أى التمسك به والعمل بمقتضاه ، ولعله أشار إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله » .

واقصر على الوصية بكتاب الله لكونه فيه تبيان كل شيء ، إما بطريق النص أو بطريق الاستنباط ، فإذا اتبع الناس ما في الكتاب عملوا بكل ما أمرهم به .
وحديث سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « الحلال ما أحله الله في كتابه ، والحرام ما حرمه الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو عفو لكم » .
وأجاب الشاطبي عما أورده الجمهور عليه من قوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (النساء : ٥٩) : بأن المراد من وجوب طاعة الرسول إنما هو في تخصيصه للعام ، وتقييده للمطلق ، وتفسيره للمجمل ، وذلك بالحديث المتواتر .

وإن كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، يجب أن يكون من القرآن ، لقول عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « كان خلقه القرآن » ، وأن معنى قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (النحل : ٨٩) ، أن السنة داخلة فيه في الجملة ، وأكد الشاطبي ذلك بقوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (الأنعام : ٣٨) .

وقد رد على ما استدل به الجمهور مما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « يوشك أحدكم أن يقول : هذا كتاب الله ، ما كان من حلال فيه أحلناه ، وما كان من حرام حرمناه ، ألا من بلغه مني حديث فكذب به فقد كذب الله

ورسوله » ، بأن من بين رواة هذا الحديث « زيد بن الحباب » ، وهو كثير الخطأ ، ولذلك لم يرو عنه الشيخان حديثا واحدا .

وجاء بمسلم الثبوت والتحرير :

« خبر الواحد لا يفيد اليقين ، ولا فرق في ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما » .

ومما سبق يتضح أن الإيجاب والتحريم لا يثبتان إلا بالدليل اليقيني القطعي الثبوت والدلالة ، وهذا بالنسبة للسنة لا يتحقق إلا بالأحاديث المتواترة ، وحيث إنها تكاد تكون غير معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها ، فإن السنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم - إلا أن تكون فعلية أو تنضاف إلى القرآن الكريم - .

وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشيء يختلف فيه الأئمة ، ولا يعد مما علم بالضرورة فلا يعد كافرا ..^(١)

ونحن نورد هذه الفتوى لنواجه بها جملة من الأخبار الواردة في العقيدة تكاد توهم التجسيم ، وعلمائنا لا يقبلون في أمور العقيدة إلا المتواتر .

أما حديث « أن الله يقعد على عرشه أو كرسيه كما يقعد الراكب على رحله ، حتى إن العرش ليصوت من عظمتة وثقله » ، أو حديث أن هناك ثمانية أوعال تحمل العرش ، أو ما أشبه ذلك من مرويات الآحاد ، فإن العلماء انصرفوا عنها ، ولم يأخذوا منها حكما شرعيا ..

ولنضرب مثلا لمسلك البعض بإزاء هذه الأحاديث :

روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضى الله عنها ، أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضى الله عنها إليها شيئا من المعروف ، إلا قالت : لها اليهودية : وراك الله عذاب القبر .. ! قالت عائشة رضى الله عنها : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ، فقلت : يا رسول الله ، هل للقبر عذاب قبل يوم

(١) أصدر الفتوى الشيخ عبد الله المشد - رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف - في ١٩٩٠/٢/١

القيامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « لا ، من زعم ذلك » ؟ قالت : هذه اليهودية ، لا أصنع لها شيئا من المعروف إلا قالت : وقاك الله عذاب القبر . قال صلى الله عليه وسلم : « كذبت يهود ، وهم على الله أكذب ، لا عذاب دون يوم القيامة » . ثم مكث بعد ذلك ماشاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار ، مشتملا بثوبه ، محمرة عيناه ، وهو ينادى بأعلى صوته : القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس ، لو تعلمون ما أعلم بكيتكم كثيرا وضحككم قليلا ، أيها الناس ، استيعدوا بالله من عذاب القبر فإن عذاب القبر حق » ، وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم ، ولم يخرجاه .

ولنا على هذا الحديث تعليق ، فهو يخالف ثلاث آيات فى كتاب الله ، الأولى فى الأنعام : « ولو ترى إذا الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسوطا أيديهم ، أخرجوا أنفسهم ، اليوم تجزون عذاب الهون ، بما كنتم تقولون على الله غير الحق ... »^(١) ، والثانية فى غافر « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة ، أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »^(٢) والثالثة فى الأنفال « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد »^(٣) .

كما يخالف أحاديث كثيرة جدا أثبتت عذاب القبر وثوابه ، منها : مناداة النبى عليه الصلاة والسلام للكفار بعدما رميت جثثهم فى قليب بدر : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا .. ومنها : مروره على قبرين - كما روى البخارى وقوله : يعذبان وما يعذبان فى كبير .. !

والشواهد فى هذا المجال فوق الحصر ، فكيف يقال : إنه لم يكن يدرى عذاب البرزخ ؟ حتى جاءت يهودية فتحدثت عنه !! ؟

(٣) الآيتان : ٥١ ، ٥٠

(١) سورة الأنعام : ٩٣

(٢) الآية : ٤٦

إن القرآن النازل عليه بمكة والمدينة يشير إلى أن الحياة الإنسانية متصلة قبل الموت وبعده ، وأن البشريثابون أو يعاقبون عقيب رحيلهم عنا ! فأنى ينكر الرسول ذلك ١٩..

وقد رأى ابن كثير أن يؤول الآيات ويحافظ على الحديث الغريب ، فزعم أن الآيات تثبت عذاباً روحياً غير عذاب القبر الحسى ! وهذا وهم !!
هل ضرب الوجوه والأدبار من العذاب الروحى ؟! هل تداخل العظام من ضمة القبر من العذاب الروحى ؟!
إن الانحصار فى السند والذهول عن المتن ، باب إلى عجائب رفضها علماءنا المحققون .

والفتوى التى نقلناها تشير بشىء من الإجمال إلى رأى الأزهر فى ضرورة التعويل على القرآن أولاً ، وإلى أن العقائد لا تستقل بإثباتها أخبار الآحاد .
وما نوصى به هو تدبر القرآن الكريم ، وإدامة النظر فيه ، واستصحاب معانيه عند قراءة السنن .
أما أن يكون المرء عابر طريق أمام آيات الله ، ومطيل المكث أمام بعض الأخبار ، فهذا غير سائق ..

لا يجوز أن يكون المرء أعشى أمام القرآن ، وحاد البصر أمام الأحاديث ، وقد سمعت كلمات سمجة فى هذا المجال ! قال بعضهم : حاجة الكتاب إلى السنة أشد من حاجة السنة إلى الكتاب .. وهذه موازنة خاطئة ...

نحن نؤمن بالكتاب والسنة معاً ، ونؤمن بأن السنة فرع والكتاب أصل ، ونؤمن بضرورة الاستيقان من أن الرسول قال ، وأن هذا الاستيقان لا يتم إلا بوزن السند والمتن جميعاً ..

وهذا منهج العلماء الراسخين والرجال الثقات ، ولاتعويل على من دونهم !!
إن العلم الإسلامى استبحر ، وساند حضارة عظيمة يوم قام على الحقائق ، فلما خالطته الخرافات والأوهام هوى ، وهوت الأمة كلها معه ...
وأعود إلى حديث اليهودية التى ذكّرت البيت النبوى ! بالجزء الأخرى وثواب

القبر وعذابه ! وكان من قبلُ لا يدري !!
 من أين أتت بهذا الحديث ؟ إن أسفار موسى الخمسة في العهد القديم ، أعنى التوراة ، ليس بها ما يشير إلى جنة أو نار ، أو ثواب أو عقاب !
 لقد تحولت التوراة إلى كتاب ماديّ يخصّ شعبا يبحث عن الحياة والتميز فوق هذا التراب .
 ولا يستعد للقاء الآخرة بفعل خير أو ترك شر .. ويكاد الثواب المرتقب يكون في هذه الحياة الدنيا وحدها !...
 إن اليهود آخر أهل الأرض تطلعا إلى الآخرة وحفاوة بمقدماتها .
 نعم وجد حديث مقتضب في بعض الأسفار عن الجنة والنار وعالم الروح ..
 حديث مقتضب جدا ..
 ومن ثم فأنا شديد الريبة فيما نسب إلى هذه اليهودية من كلام عن ثواب القبر وعذابه ...،
 الحديث من ناحية المعنى مخالف للقرآن الكريم ، ولسُنن يمكن الحكم عليها بالتواتر المعنوي .
 ثم يجيئه عن طريق يهودية كمجئ الماء عن طريق الصحراء الكبرى ، أمر يشبه خوارق العادات .. ومع ذلك يقال : إنه على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه !
 إن البخارى أرشد من أن يذكر هذا الحديث وكذلك تلميذه مسلم ، فالسند القائم لا يخدم متنا مضطربا
 والخلاصة أن السنة لا تكون إلا بيانا للقرآن ، بيانا يتسق مع دلالاته القرية والبعيدة ، ويستحيل أن تتضمن معنى أو حكما يخالف القرآن الكريم .

الفصل العاشر

مستقبل العربية وأدبها

عرف الناس خصائص الاستعمار الصليبي الذي أغار على أرضهم خلال الأعصار الأخيرة .

كان غرضه الأهم الأوضح أن يمحو الشخصية الدينية لأمتنا ، وأن يقطع حبالها على مر الأيام باللغة العربية ، فإذا محا الإسلام والعروبة في كيانٍ مَّا قَبْلَهُ بَعْدُ تابَعًا يكدح له وحده ...! .

والمرء بعد فقدانه الإيمان واللسان ، أو بعد فقدانه أصوله الروحية واللغوية ، يمكن حسابه مؤقتًا في عداد المفقودين ، بيد أن الاستعمار لا ينتهي به إلى هذه النتيجة ثم يتوقف ..

كلا ، إنه يعدّه سَدًا لجيل آخر ؛ له عقيدة أخرى ؛ وورطانة أخرى ، كما تتحول الفضلات الحيوانية إلى تربة جديدة لكيان آخر مقطوع الصلات بالماضي القريب والبعيد معًا ..

والسياسة التي اختطّها هذا الاستعمار المكّار تبعث على العجب ، فالإنجليزى «سبنكس باشا» يعيّن قائدًا للجيش المصرى ! والإنجليزى «رسل باشا» يقود شرطة القاهرة ! والإنجليزى «دنلوب» يقود سياسة التعليم ...! .

ولا بأس في طريق القضاء على اللغة العربية أن يستعان بأوروبيين يعيّنون في مؤسساتنا الثقافية ؛ مثل المستشرق الألماني «ولهلم سبيتا» الذى وُظّف بدار الكتب المصرية ، وكان أول من دعا إلى نبذ اللغة العربية ، وألف كتابًا عن قواعد اللغة العامية في مصر ! .

وتبع هذا الموظف لمحاربة العربية موظف ألماني آخر هو «كارل فولرس» الذي عين أميناً للكتبة الخديوية بالقاهرة...!

وجاء بعدهما إنكليزي موغل في التعصب ؛ كان يشرف على مدرسة الهندسة العليا - كلية الهندسة الآن - اسمه «وليم ولكوكس» الذي منحته إنجلترا فيما بعد لقب «سير» .

وتبني أفكار الجميع عدو من اللبنانيين والمصريين الحاقدين على الإسلام ، وكانت صيحاتهم لهدم المواريث الأولى لا ينقطع صداها ، وتدبر ما قاله «سلامة موسى» في كتابه اليوم والغد : (الرابطه الشرقيه سخافه ، والرابطه الدينيه وقاحه ، والرابطه الحقيقيه هي رابطتنا بأوروبا ..) ١ .

والدوبان المنشود في أوروبا يعنى بداهة اطراح الإسلام والعربية ، ووجود نابتة مُهَجَّنَة تستخف بتكالييف الإيمان وأواصر الفصحى ، وقد اتسعت هذه الدائرة ، ووجد الداخلون فيها كل تشجيع مادي وأدبي ، وأزيحت من أمامها العوائق ، بل كثرت من ورائها الدوافع ؛ حتى كادت تستولى على مقاليد الأمة في كل ميدان ، لولا أن الصحوة الإسلامية التي تتجدد بها أمتنا على امتداد القرون تيقظت للخطر الداهم ، وردمت منابعه ما استطاعت .

ولا تزال المعركة سجلاً بين الإيمان والإلحاد ، وبين العامة والفصحى ، مع ملاحظة أن ذلك الصراع أخذ عنوانات شتى ! بدأ بين التقليد والتجديد ، أو الرجعية والتقدم ، أو الأصالة والمعاصرة ، ثم رأى الماكرون بالإسلام أن يتركوا هذه الموازنة ليكون العنوان الأوحى القومية ، أو الاشتراكية ، أو العلمانية ..

ولعل السر أن المسلم مهما بلغ عصيانه يعود إلى دينه فجأة ! إذا حُير بينه وبين غيره من مذاهب ، ومن هنا حلت النزعة الواحدة الجديدة محل الموازنات المقلقة ؛ على رغم أن هذه النزعة لا تحاصم الدين ١١ .

والحق أن الإسلام لحقت به خسائر جمة ؛ عندما ارتفعت راية القومية العربية كانت أو غير عربية ، وعندما ارتفعت راية الاشتراكية شيوعية أو غير شيوعية ، ثم جاءت العلمانية أخيراً فكانت ثالثة الأثافي ...

ففي ظلها هان الإيمان ، وسقطت قيم خطيرة ، كما أن في ظلها هبط الأدب العربي ، وانتصرت الكلمات الأعجمية ، ولوحظ في المسرح والإذاعة والجامعة والصحف ؛ أن الأمة تنحدر إلى هاوية ليس لها قرار ..
وحديثنا الآن عن الأدب العربي واللغة العربية بعامة ..

يرى الأستاذ الكبير أحمد موسى سالم أن الضعف العام بدأ من عصر مبكر ، وأن فساد الحكم من ورائه فيقول : « لكن هذه اللغة مع بداية استرخاء الحكم العرب في القصور ، ومع غيبة المجاهدين المرابطين في الثغور ، ومع ما أصاب عامة العرب من زوار المدن أو المقيمين بأطرافها ، من فتنة بالمعروض الشهى من المتاع ، أو المبذول الطيغ من الغواية .. بدأت تطرأ على تراكيب اللغة وعلى وظيفتها وأهدافها تغيرات تعكس ما وقع للناطقين بها ؛ بعد أن فكوا أحزمة التشدد وبعد أن أطافوا طويلاً باللمم ؛ وبعد أن ساقهم اللمم إلى ألوان من الذنوب ما عرفها أبائهم ، فإذا هم قعود وعلى ألسنتهم كلمات جديدة معربة - أو غير معربة - في مجالس الغناء واللهو والخمر والشذوذ والانحلال .

بهذا الاسترخاء ، والإقبال على المتع تراجعت القدوة التي كان الأعاجم يجدونها في العرب ، ولم يعد العرب قادرين على استهواء غيرهم لينصر الدين واللغة » !! .
ومع أن الحكومات العربية أساءت إلى اللغة ولم تحسن نصرتها ، وقعدت بالأدب العالي فلم تمنح رجاله ما يستحقون من صدارة ؛ إلا أني أحسب أن المعاهد المتخصصة في الدراسات اللغوية والبلاغية تحمل وزراً أشد في هذا المضمار .. وأن جمودها ؛ وفتورها ؛ وقصورها من أهم الأسباب فيما عرا اللغة العربية في هذا العصر من ضعف وانزواء ..

وإني لأحسّ غضباً شديداً عندما أرى علماء دين لا يحسنون ضبط الإعراب ، أو عندما أرى رجال سياسة يخبطون خبط عشواء ؛ ويقعون دون حياء في شرأنواع اللحن ..

ماذا فعلت المعاهد العتيقة والجامع الجديدة لخدمة العربية في عصر نرى فيه الإنجليزية مثلاً تبتدع عشرات الأساليب للانتشار والسيطرة ؟

ذلك بحث ينبغي - دون حرج - أن نخوضه ، لنعرف مدى تقصيرنا في لغة
الوحي ، ولنستقبل الأيام القادمة بعمل نافع وجهد مثمر...
لقد تعلمت الإسلام والعربية في الأزهر الشريف ، قضيت شرح الشباب في
مراحل الدراسة المختلفة ، وعندما أخطت هذه السطور أمزج بين العلم والأدب
والمجتمع ، وأضمت أشتاتاً من الذكريات التي استنبطنا فيها القواعد من الشواهد !! .
نعم إن الأسلوب الذي تعلمنا به اللغة العربية يقوم على شرح القاعدة وسوق
الدليل عليها من الكتاب أو السنة أو التراث الجاهلي والمخضرم وأوائل التاريخ
الإسلامي ...

وأشعر صادقاً بأن الشواهد إلى قابلناها ، أو الأدلة التي عايناها ، كانت زائداً
فكرياً وعاطفياً عامراً بأنواع المشاعر والأمزجة وصور الحسن والأداء العالي ...
وأريد من القارئ أن يسترجع معي جملة من الأمثلة ليس بينها رابط ! وأن
يعيش في جوها كما عشنا ، وأن يستفيد منها معلومات نحوية لا بأس بها ولا تخضع
في سياقها لترتيب معين !! .

يقول الشاعر :

وفتيانٍ صدق لستُ مُطَّلِعٌ بعضهم على سِرِّ بعض غيرِ أني جِئْتُها
ويقول آخر :

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدُوكَه على بأنواع المهموم لِيَتَبَيَّلَ !
البيت الأول يصف أمانة الكلمة واحترام الأسرار ! والبيت الثاني يصف ليل
المهموم ! .

وحرف الوار في أولها يسمى «واو رُبَّ» يُجَرُّ الاسم بعده وجوباً ، ويعرب جملة
إسمية ، مع خبر المبتدأ ...

ويقول الشاعر :

لا يبعِدَنَّ قومي الدين. هُمُ سُمُّ العِداة وآفة الجُزُرِ
النازلين بكل مُعْتَرِكٍ والطَّيِّبُونَ مَعَاوِدَ الأُزُرِ
يصف الرجل قومه بالشجاعة التي تخيف منهم عدوهم ، وبالكرم الذي يستهلك

الأموال ، وبالجراءة التي تُفحِّمُهُم في كل معركة ؛ وبالعفاف الذي يعصمهم من ارتكاب الفواحش ..

والشاهد هنا في «النازلين» التي نصبت على الاختصاص ، ثم عُطِفَ عليها نعتٌ مرفوع .. وهذا مأنوس في الأداء العربي ؛ وإن جهله الجاهلون ؛ وحسبوا في الكلام لحناً .. !!

وتقول عاتكة بنت زيد - لما مات زوجها عبد الله بن أبي بكر .. وقد أصيب بسهم قاتل في حصار الطائف :

أَلَيْتُ لَا تَنْفَكُ عَيْنِي حَزِينَةً عَلَيْكَ ، وَلَا يَنْفَكُ جُلْدِي أَغْبَرًا !!
فَلَلَّهُ عَيْنًا مَنْ رَأَى مِثْلَهُ فَتًى أَكْرَّ وَأَحْمَى فِي الْهِيَاجِ ؛ وَأَصْبَرًا !
إِذَا أُشْرِعَتْ فِيهِ الْأَسِنَّةُ خَاضَهَا إِلَى الْمَوْتِ ، حَتَّى يَتْرَكَ الْمَوْتَ أَحْمَرًا !
وعاتكة تبلغ القمة في وصف زوجها الراحل وشجاعته وجلادته ، يقول عنها شارح الحماسة : كانت صحابية شاعرة فصيحة لها جمال وكمال ، وتماث في عقلها ومنظرها ، وجزالة في رأيها ، تزوجت بعبد الله بن أبي بكر الصديق ، فلما مات عنها كما حكينا ، تزوجها عمر بن الخطاب ، فلما قتل تزوجها الزبير بن العوام ، فلما قتل بوادي السباع تزوجها الحسين بن علي ؛ فلما قتل بكرلاء كانت أول من رفع خدّه عن التراب ثم تأيَّمت بعده ..

ومن الطرائف أن عبد الله بن عمر كان يقول - في شأنها - : من أراد الشهادة في سبيل الله فليتزوج عاتكة !!

وأحسب أن هذه السيدة لو كانت في عصرنا لتشاءم منها الناس !
إن الأولين كانوا على فطرة سليمة ، وتجاوب شريف مع الطبيعة البشرية ، أما نحن فتقوم تقاليدنا على المُرَأة والاستهانة بالمرأة والرغبة في تنقُّصها .. !!
وليست عاتكة أول من حلف ألا ينسى ميتة ! لقد سبقها دريد بن الصَّمّة عندما قال :

فوالله لا أنسى قَتِيلًا رُزِئَتْهُ بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ !
ثم تراجع الرجل واعترف بأن الحياة ليست كذلك ، فقال معتذراً :

على أنها تُشَفِّى الكُلوم وإنما نُؤَكِّل بالأدنى ؛ وإنْ جَلَّ ما يمضى !
وقد تَرَدَّدَ كلمة « ذو » بمعنى الذى ، وهى لغة طَيِّئٌ ، وفى ذلك يقول الشاعر
متحدثاً عن عفته ؛ إذا أَلْجَأَتْهُ الظروف ؛ فكان ضيفاً على بعض الناس :
ولستُ بهاجٍ فى القرى أهل منزل على زادهم أبكى ؛ وأبكى البواكيا
فإِما كرامٌ مُوسِرُونَ أَثْنَيْتُهُمْ فَحَسْبِي من « ذو » عندهم ما كَفَّأَنيَا
وإِما كرامٌ مُفَسِّرُونَ عَذَرْتُهُمْ وإِما لُثَامٌ فادَّكَرْتُ حَيَاثِيَا
ومن أدلة العطف على اسم إن بالرفع قبل تمام خبرها ، قول الشاعر عن نفسه
وحصانه ، واسم الحصان قَبَّار !! .

فَمَنْ يَلِكُ أَمْسَى بالمدينة رَحْلُهُ فإِنى « وَقَيَّارٌ » بها لَغَرِيبٌ
وبعض الجُهْلَة يحسب ذلك خطأ ، ويتهَجَّم على القرآن الكريم فى قوله تعالى :
« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى مَنْ آمَنَ بالله وعمل صالحاً فلا
خوف عليهم ولا هم يحزنون » . إن هذا ميدان لو مضيت فيه لم أنته منه ، وإنما
أَبَحْتُ لِنَفْسِي ؛ وارتضيت للقارئ ما فعلت ؛ لأنى أريد شرح الطريقة التى تعلمنا
بها العربية من ستين سنة ...

كل قاعدة يرى المؤلف نفسه مطالباً بالاستدلال عليها من التراث الأدبى فى
اللغة !! .

والسؤال : هل سيظل الاستدلال على القواعد مطلوباً إلى قيام الساعة ؟ إن
اللغة تدرس كى نحسن الكلام فى الحاضر والمستقبل ، ويبدو أن أساتذتنا لم يلتفتوا
لذلك كما ينبغى .. وخلت دروس النحو والصرف والبلاغة إجمالاً من التطبيقات
والأمثلة التى لابد من أن تكون كثيرة وفيرة ، فكان ذلك طعنة نافذة إلى اللغة
وتداؤها ...

ثم جاءت مدرسة الجارم ومن بعده ؛ فعالجت هذا الموضوع علاجاً جيداً ،
وكان لها جهد مقدور فى ترقية الأداء العربى وتقويته .. ولكن هذه المدرسة
اضمحلت مع ضغط الاستعمار الثقافى ، وانتصار التفاهات فى شتى الساحات ..
لقد لاحظت أن قاعدتى النحت والاشتقاق كادت تكونان معطلتين فى مواجهة

الحضارة الحديثة الزاحفة علينا مادياً وأدبياً ، كما لاحظت أن هناك خلطاً قبيحاً بين تعليم اللغة العربية للعرب وللأعاجم مسلمين أو غير مسلمين ...
وهناك فوضى في تعليم جموع التكسير ، وضبط المصادر القياسية والسماحية ، واشتقاق الأفعال بين المضارع والماضي ...

إن عناية الإنكليز باللغة بضبط لغتهم ونشرها ، وما في لغتهم إلا ما يكسب المهارة في بعض العلوم الحديثة ، ولا أدري ماذا أعمى العرب عن عشرات الدروب ينشرون فيها لغة القرآن ، ويصّرون الدنيا بمعالم الوحي الأعلى .
إن تعلم العربية فريضة على أمة رسالتها عالمية ، وتفريطها في ذلك خيانة فاضحة ! ويوجد في هذه الأيام المهزولة المهتزة قادة للعرب إذا تكلموا كانوا أطفالاً لا رجالاً ، وكانوا نماذج للهزل لا للجدّ !!
إننا نقترف خيانة فاجرة عندما نترك العربية تموت بين أيدينا ، وعندما نعد تعلمها حرفة لبعض الشيوخ المغموصين ، هذا كفر أو دونه الكفر !!

تدهور اللغة العربية

لاحظت أن اللغة العربية تسير من تسعين سنة في منحدر ، فالمفردات الدخيلة تطارد الكلمات الفصحى في كل ميدان .
عندما أكون في دار الإذاعة أسمع « الاستوديو » و « تيست » و « ستانداى »
وعندما أرى مباريات الكرة أسمع « الجول » و « الكورنر » ، وعندما أكون في البيت أسمع « بوتيك » و « سوبر ماركت » أما في عالم الفنادق فاللغة العربية مزدرة ، كذلك في عالم الدواء والصيدليات .
ومن قبل هذا البلاء المتنامي كان قد صدر حكم بطرد العربية من ميادين الطب والهندسة وسائر المعاهد العلمية .. كما أن ألفاظ الحضارة تفد كل يوم وتزيد حاملة طابعها الأجنبي ؛ لا يكاد ينفك عنها ، وفارضة الوحشة على لغتنا .
والغريب أن علماء الأزهر آثروا كلمات « ماجستير » و « دكتوراه » على غيرها ، وما أبدع أن يقال : دكتور في الفقه ، ودكتور في النحو ... !

وظاهر أن الغزو الثقافي يصادف نصراً بعد نصر ، وأن الانحلال القومي يلف العامة والخاصة في ردائه المهين ..

أين حماة اللغة ؟ أين المدافعون عن لساننا الروحي والشرعي والمادى والأدبي ؟ لقد بدأت مطاردة الفصحى مع الاحتلال العسكرى ، وبقيت بعد رحيل الجيوش الغازية ؛ مع ضراوة الاستعمار الثقافي ...

وظاهر أن خطط الدفاع فاشلة أو معدومة ! إننا نردّد الآن بصدق ما قاله حافظ إبراهيم من تسعين سنة يستنهض الهمم للذود الفناء عن لغتنا ، فإن الاستعانة الصادرة من الشاعر الباكي ذهبت مع الريح ... نحن ما تقدمنا خطوة في طريق شرفنا ؛ وصون تراثنا ، بل تأخرنا خطوات ، وحاصرنا الرطانات الأعجمية والكلمات العامية ...

يقول حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٣ تحت عنوان « اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها » :

رَمَوْنِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ وَلَيْتَنِي وَلَدْتُ وَلِمَا لَمْ أَجِدْ لِعِرَاسِي وَسِعْتُ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ فِيَا وَيَحْكَمْ أَبْلَى وَتَبْلَى مُحَاسِنِي أَرَى لِرِجَالِ الْغَرْبِ عِزًّا وَمُنْعَةً أَتَّبُوا أَهْلَهُمْ بِالْمَعْجَزَاتِ تَفْئُتًا أَرَى كُلَّ يَوْمٍ بِالْجَرَائِدِ مَزْلَقًا أَيَهْجُرُنِي قَوْمِي - عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ - سَرَتْ لَوْثَةُ الْإِفْرَنْجِ فِيهَا كَمَا سَرَى فَعَجَاءَتْ كُثُوبٌ ضَمَّ سَبْعِينَ رَقْعَةً إِلَى مَعْشَرِ الْكِتَابِ وَالْجَمْعِ حَافِلٍ فَإِذَا حَيَاةٌ تَبْعَثُ الْمَيِّتَ فِي الْبَلَى	عَقَمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عِدَائِي رِجَالًا وَأَكْثَفَاءَ وَأَذْتُ بِنَاتِي وَمَا ضِيقَتْ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتُ وَتَنَسَّقُ أَسْمَاءَ لِمُخْتَرَعَاتِ ؟ وَمَنْكُمْ وَإِنْ عَزَّ الدَّوَاءُ أُسَاتِي وَكَمْ عَزَّ أَقْوَامٌ بَعِزُّ لُغَاتِ فِيَالَيْتَكُمْ تَأْتُونَ بِالْكَلِمَاتِ ! مَنْ الْقَبْرِ يَدْنِي بِغَيْرِ أُنَاةٍ إِلَى لُغَةٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِرُؤَاةٍ ؟ لُعَابُ الْأَفَاعِي فِي مَسِيلِ فُرَاتِ مُشْكَلَةُ الْأَلْوَانِ مُحْتَلِفَاتِ بَسَطْتُ رِجَائِي بَعْدَ بَسْطِ شِكَايِ وَتَنَبَّهْتُ فِي تِلْكَ الرُّمُوسِ رُفَاتِي
---	--

وإما مِمات لا قيامة بعده مِماتٌ لَعَمْرَى لم يُقَسِّ بِمِات
ليتنا نعى ونستحي ...

لقد تقرر لدى المعنّين بالتعريب أن النحت والاشتقاق أهم الوسائل لما
يريدون ، وعندما راقبت الثمار العملية لم أستقر على حال ...

ففي مصر اختيرت كلمة المسرة « للتليفون » ، وفي الشام والجزيرة شاعت كلمة
الهاتف ، ولا تزال كلمة التليفون أشيع ! ! .

واختيرت كلمة كايح للفرملة ، ومِقْوَد أو زِمَام للدركسيون ، ومع ذلك فإن
الكلمات الأجنبية لا تزال تجري على الألسنة ! وتكاد كلمة مِذْياع تموت ليبقى اسم
الراديو هو الأشيع ، وقد نُحِتَتْ كلمة تلفاز عن وزن سِرْوال وقسطاس ، وحرّصنا
على نشرها ، ولكن مستقبل الكلمة لم يستقر بعد ! .

والعلاج الحاسم أن تضع لجان متخصصة الكلمات المختارة بدل الأجنبية ، ثم
تقوم لجان أخرى بفرض رقابة حكومية وشعبية على ترويحها ، وإشعار الجماهير أن
ترك العربية الفصحى في مَهَبِّ الريح كبيرة من الكبائر وأن الأمة التي تفقد لغتها
كالفتاة التي تفقد عرضها ، وأن المسلمين - من بين أمم الأرض خاصة - مكلفون
بالدفاع عن العربية ضد كل هجوم ؛ لأن الهجوم في مراحلهِ الأخيرة يتجه إلى وحى
الله ..

وقد حاول بعض الموارنة أن يخدموا العربية بطريقة مريبة ؛ فألفوا قاموساً
حرّصوا على تجريده من كل أثارة للكتاب والسنة ؛ ثم ألحقوا به فهرساً للأعلام
ثلاثة أرباعه من أعلام أوروبا ومعالمها ! وتلك محاولة متعمّدة لحو شخصيتنا ،
خطوة خطوة ..

ويزعم نفر من القاصرين أن ترجمة الطب والهندسة وغيرها صعبة ؛ أو
متعسّرة ، وهذا ستر للعجز العلمى والخلقى ..

وقد قرأت كتاباً عن الحمّيات بالعربية للدكتور إبراهيم حسن ، وكتاباً عن
الأمراض الجلدية والتناسلية للدكتور حبيب موسى ، وهما في عصرهما من أعلام
الطب ، وما عجزت لغتنا عن استيعاب المعانى كلها ..

إننى أحترق أى امرئ يطعن العربية دون غيرها من اللغات الأوروبية أو الآسيوية ، وهى لغات انتقل إليها الطب ولم تنتقل هى إلى الطب ..
إن التأثير الخسيس بالاستعمار الثقافى من وراء تدريس بالروسية ، ولو انتصرت إسرائيل فسيكون التدريس بالعبرية ..

إن الهمج أتباع لكل ناعق ، وأذيال لكل غالب ، والآن نرى فلاحين من أعماق القرى ، أو أعراباً من سكان الصحراء يرسلون إلى الإذاعات فى لندن وواشنطن يطلبون سماع أغانى أجنبية ، ويهدونها إلى آبائهم أو أمهاتهم الجالسين على الأكوام أو تحت الخيام !!.

أما ينتهى هذا الهزل ، وتستخفى تلك الوضاعة فى العلوم والفنون على سواء ؟
أما نتعصب للغتنا ؟!

إن الحضارات تهتم بالفنون والآداب كما تهتم بالعلوم والإنتاج ! ويظهر أن الإنسانية ترتبط بالمشاعر العاطفية ، والنواحي الجالية ، ودواعى المرح والاستجمام مثلاً ترتبط بالضرورات الاقتصادية ، والمباحث العقلية والكونية ...

وما نراه فى العالم الآن يصدّق هذه الفكرة ، فالناس من وراء العالم الإسلامى لهم فنون جادة وهائلة ، ولهم آداب مستقيمة ومائلة ، وتلك طبيعة البشر !.
وما نخافه هو أن يغلب الجانب الطائش ، ويكتسح ما حوله ..

وقد راقبت الفنون والآداب فى عالمنا العربى فوجدت أن عددًا من الفنانين والكتاب بلغ من الإسفاف حدًا يُخشى منه على الأخلاق والقيم الكريمة ؛ وإذا لم يُضرب على أيديهم فلن تفلح أمتنا أبدًا .. الكلمات المحقورة تجرى على ألسنتهم والحركات الهابطة ؛ وفقدان الهدف العالى ، كأن المهم إضحاك الرعاع ؛ وابتزاز أموالهم ...

وقد ألف الأوروبيون روايات فى موضوعات شتى ، وأنشؤوا أنواعًا من الفنون تليق أو تتجاوب مع بيئتهم ، وحاول رجال منا تقليدهم فى الأدب التمثيلى ، واستطاع شوق تأليف روايات أدبية وسياسية لها قيمة كبيرة ، بيد أن الحرب المعلنة على الأدب الرفيع أجهزت على المشروع كله ، فانتهى بنهاية شوق ...

وأتساءل الآن : ألا يوجد لدينا أدب يوجه إلى الخير والرشد ؟ ألا نستطيع عرض الأمثلة الرفيعة في سياقات رائعة جميلة ، من القصيدة أو المقالة أو الرواية ؛ طالت أم قصرت .. ؟

في التراث القديم ذخائر أهيل عليها التراب .. وقد ساءنى أن أهون ما في التراث يبرز ، وأنفس ما فيه يظل كنزاً مخفياً ، مع إمكان الانتفاع به ، وشدة الحاجة إليه .. ! يرى الأستاذ أحمد موسى سالم أن الأدب العربي انحرف من عهود مبكرة ، وأن من أعلام انحرافه أبا نواس ، وابن الرومي وغيرهما الذين لا تنميهن إلى العروبة أصول نقية ..

ومع تقديرى الكبير لأستاذنا فقد خالفته في هذا الحكم ، إذ أن عرباً أقحاحاً هبطوا في آدابهم إلى درك بعيد ، وهل كان امرؤ القيس نموذجاً شريفاً في شعره العاثر ؟ ..

الجريمة في نظرى إبراز امرئ القيس ابن الملك ، وإخفاء عروة بن الورد الصعلوك ، وأمثلة من الشعراء المقلّين الذين قفزوا إلى الأوج في يقظاتهم الأخلاقية ، ومعاناتهم الإنسانية الجديرة بالاحترام ..

وقد قرأت حماسة أبى تمام ، وأمالى القالى ، وتصفحت العقد الفريد .. ومررت بروائع من المشاعر والحكم ، والمدح والقدح ، والوصف الدقيق ، والغزل العفيف ، وملاحقة مواقف الإنسان مع الحياة خفصاً ورفعاً ، ونعمة وبؤساً وضحكاً وبكاء ، فوجدت في آدابنا القديمة ما يجب أن يرى نور الحياة ويتنفع به المعاصرون ، أكثر وأجدى مما يُقرأ الآن من آداب الإنكليز والفرنسيين والروس ... !!

العربية هي لسان الوحي ، وهي اللغة الرسمية للإسلام ، وفرض على العرب أن ينشروها ...

والحق أن عالمية الرسالة تقتضى عالمية اللغة ، ومن هنا أقبل المسلمون الأوائل على نشر العربية مع الإسلام ، وبذلوا في ذلك جهداً مشكوراً . كما أن الأمم الأخرى نشطت إلى إجادة العربية والمهارة في كتابتها والنطق بها ،

ولما كانت العروبة تعنى اللسان لا الدم ؛ فقد أضحى كل متكلم بالعربية عربياً ؛ ديناً وجنساً ! وضارع العرب الأقحاح فى كل شىء . بل سبقهم بتفوقه العلمى فأثمهم فى المساجد ، ودرس لهم علوم الكتاب والسنة . وبدأ - فى أيام التابعين ومن بعدهم - أن الأعاجم سادوا العرب فى تلك الساحات المفتوحة ..

بل إن الجاهير ما وجدت أى حرج فى إقرار هذا الوضع ، فإن التعصب للعرق لا يعرفه الأتقياء ، وسممة الإنسانية العامة الشائعة فى الكتاب والسنة جعلت الفاتحين عسكرياً يذوبون فى البلاد المفتوحة ، وصار الكل عرباً مسلمين ، لا فرق بين أصيل ودخيل ..

لكن بعض القاصرين أو المقصرين لما استوعروا طريق الكدح والبذل ؛ أرادوا ستر تخلفهم بإحياء النزعات العنصرية ، والنعرات القبلية ، فنشأت الشيعوية والقومية العربية !!

ولست بصدد تحقيق أيتها أنتجت الأخرى ، فالمهم أن هذه النزعات على وضاعتها لم تلق فى الجو الإسلامى النظيف ما يعينها على البقاء والاستفعال .. ومضت الجاهير تخدم الإسلام بإخلاص وحماسة ؛ شاعرة بأن الصياحين بأنسابهم مقصرون يحاولون ستر خسيستهم ..

وجدير بالعرب - الذين يذكرون أنهم أبناء الفاتحين الأوائل - أن يثابروا على تعليم لسانهم وأديهم العتيق الطهور ، وهم واجدون ثروة طائلة منه فى تراثهم المهمل ، ويستطيعون اختيار نماذج صالحة منه على أساس من استنارتهم بفطرة الإسلام ؛ وإنسانيته الراقية ..

وكذلك جدير بغير العرب أن يضبطوا لغة الوحى ، ويتقربوا إلى الله بتنمية أساليبها فى الكتابة والخطابة ، وما تُشكر جهودهم فى هذا المجال ...

وأنا عندما أنظر إلى أبى نواس ، والأبيات التى نغمها منه الأستاذ أحمد موسى ؛ أستنكرها من زاوية معينة ، والأبيات هى :

عاج الشقى إلى رسم يسائله وعجت أسأل عن خسارة البلد !!
ييكى على طلل الماضين من أسدٍ لادرّ دركك، قل لى: من بنو أسد؟

وَمَنْ تَمِيمٌ؟ ومن عكل؟ وَمَنْ يَمَنُّ؟ ليس الأعراب عند الله من أحد! إن أبا نواس في هذا المجون الذي عرف به ؛ ليس أسوأ أدباً من امرئ القيس الذي يقول :

فثلك حبلى قد طرقت ومرضعٍ فلهيتها عن ذى تمامٍ مُحُول !!
وتحقير العرب معصية ، وكرههم فسوق ، ولا يساويه في الضعة والردة إلا انتماء العرب لغير الإسلام ، واعتزازهم بعروقتهم الجاهلية واستهانتهم بالإسلام ...
ويوجد الآن قوميون عرب يملؤون أشداقهم فخراً بالعروبة ويسبقون أبا نواس إلى الخمارات ، والقرامطة إلى جحَد الشعائر الدينية .

إن الآداب العربية التي نريد إحياءها هي نماذج من صميم التراث العربي الأصيل ، تمتاز أولاً بأنها هتاف فطرٍ صافية عالية ، والإسلام دين الفطرة ، وتمتاز ثانياً بأنها بناء بلاغيٍّ محكم يعين على بقاء اللغة سليمة الأداء ؛ رفيعة المستوى ، وأخيراً فهي تربط عصرنا بأصوله وتجعل حاضرنا امتداداً له ! وتعيننا على الفهم السوي للكتاب والسنة ...

الأدب الرفيع موصول بالإسلام

الأدب الإنساني العالى هو صورة جميلة لفطرة الله في الأنفس والآفاق ، يتملأها الإنسان فيشعر بالتجاوب والرضا ، وقد عُرف هذا الأدب في شتى الأعصار والأمصا ، وكان موضع التقدير أياً كانت نسبته ...
قرأت نماذج منه في الأدب الجاهلي عندنا ، وشعرت بأنها من أنفس مواريث الإنسانية عامة ، كما عرفت نماذج من الآداب الأجنبية المترجمة جديرة بالاحترام .

ولعل ذلك كان قبل انتشار الوجودية والشيوعية وفنون الإلحاد والانحلال التي شوهت الفطرة ، وافترت أكاذيب كثيرة على الإنسان وأشواقه وظهرت جماع الشهوات ؛ واعتذرت عنه ؛ ثم جعلت الأمانى المحرمة أهدافاً مقبولة !! .
وأخطر هذه الآداب المقالات التي كتبها ملاحدة سافرون ، أو ملاحدة مقنعون ؛

يخفون الصليب أو التلمود في ضواهرهم ، ويجعلون من العلمانية شعارهم المكشوف ، ثم يكتب أحدهم عن حياته فلا يتحرج من ذكر ليلة نجسة قضاهها مع بغى في صدر شبابه !.

أو يمجّد الخيانة الوطنية كما فعل لويس عوض عندما جعل يعقوب حنا بطلاً قومياً ، وهو يعلم أنه جند فرقة من أتباعه لمظاهرة فرنسا وهى تحتل مصر ، وتدخل بنجلها الأزهر... ١١.

ويوجد الآن حشد كبير من أدباء علمانيين يهاجمون الإسلام بنجث شديد ، فى مقالات لهايونة الأفعى ، وسمها الناقع ..

وأنا أحتفى بالأدب الإنسانى المجرد ! الأدب الذى يصف بصدق مشاعرنا وما نعانى فى هذه الحياة ...

وعندى أن هذا الأدب يمتّ بصلة إلى الإسلام ، لأن الإسلام دين الفطرة ، فما اقترب منها من قول أو عمل يقترب منه ، وما تنقصه إلا تكملة يسيرة ليكون أدباً دينياً ..

من هذا المنطلق وضعتُ عناوين من السُّنة لشعر أو نثر ، قد يكون بعضه جاهلياً ؛ لأننى وجدت الإسلام يقرر هذا الخلق ، أو يُحضّر على هذا الأدب . فى السنة مثلاً يقول الرسول الكريم : «المجالس بالأمانات» ، ويقول : إذا حدث رجل رجلاً بحدّث ، ثم التفت فهو أمانة» ١١ وقد تكون صادقاً فى النقل ، أو فى وصف امرئ بما فيه ! لكن عواقب ذلك خطيرة فى الهدم وإشاعة الأضغان .

ألا يعجبك بعد هذا قول الشاعر فى أمانة الكلمة وحفظ الأسرار واستبقاء الوُد :

وفتيانٍ صديقٍ لستُ مُطّلعٌ بعضهم	على سر بعض غير أنى جِماعها
لكل امرئٍ شِعْبٌ من القلب فارغٌ	وموضعٌ نجوى لا يُرام اطلّاعها
يظّلون شتّى فى البلاد وسرهم	إلى صخرة أعياء الرجال انصداعها

وقول الآخر :

وَأَنْتَ امْرُؤٌ إِمَّا اتَّمَنْتُكَ خَالِيَا فَحُنْتُ ؛ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلًا بَلَا عِلْمَ
فَأَنْتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا بِمَنْزِلَةِ بَيْنِ الْخِيَانَةِ وَالْإِثْمِ
وَالْفَقْرُ مَرَضٌ يَصِيبُ بِالشَّلَلِ هُمَا قَوِيَّةٌ ، وَيَعْجزُ الْمَرْءُ عَنْ حَقُوقٍ يَتَمَنَّى أَدَاءَهَا ..
وَمَنْ تَمَّ اسْتِعَاذَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ ، أَلَا
تَتَجَاوَبُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ عُرْوَةِ بْنِ الْوَرْدِ « الْجَاهِلِي » وَهُوَ يَقُولُ فِي الْحَصْنِ عَلَى الْإِرْتِهَالِ
وَالْكَدْحِ :

دَعَيْتَنِي أُطَوِّفُ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي أَفِيدَ غِنًى فِيهِ لَذَى الْحَقِّ مَحْمِلِ
أَلَيْسَ عَظِيمًا أَنْ تُثَلِّمَ مُلِمَّةً وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحَقُوقِ مُعَوَّلِ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعًا لِحَادِثِ ثُلُمَ بِهِ الْأَيَّامُ فَالْمَوْتُ أَجْمَلِ
عَلَى أَنْ فَضَلَ اللَّهُ لَا يُطَلَّبُ بِمَعْصِيَتِهِ ، وَالْفَرْقُ شَاسِعٌ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ..
وَصَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ
الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحُ بَعُوضَةٍ ، أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ « فَلَا
نَقِيمَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَا » وَذَا بَدَاهَا عِنْدَ فَرَاغِ الْعَقْلِ وَخَوَاءِ الْقَلْبِ ، وَهُوَ مَا عَنَاهُ
الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ :

تَرَى الرَّجُلَ النَحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ مِزِيرِ
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ ، فَتُبْتَلِيهِ ، فَيُخْلِفُ ظَنُّكَ الرَّجُلَ الطَّرِيرِ
فَمَا عَظُمَ الرَّجَالُ لَهُمْ بِفَخْرِ وَلَكِنْ فَخَرُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرِ
وَفِي أَمْثَالِ الْغَرْبِ « النَّاسُ يَغْفِرُونَ لَكَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّجَاحَ » وَهَذَا تَصْوِيرٌ لِمَا يَلْقَاهُ
الرَّجُلُ النَّاجِحُ مِنْ إِسَاءَةٍ وَكَرَاهِيَةٍ صَوَّرَهَا الشَّاعِرُ أَحْسَنَ تَصْوِيرٍ عِنْدَمَا قَالَ :
وَإِنْ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَيْ وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلَفِ جَدَا
فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لِحُومِهِمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنِيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَإِنْ ضَيَّعُوا غَنْيِي حَفِظَتْ غِيَوِيهِمْ وَإِنْ هَوَّأَ غَيْبِي هَوَيْتَ لَهُمْ رُشْدَا
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بَنَحَسَ تَمَرِّي زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمَرَّ بِهِمْ سَعْدَا
وَلَا أَحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا

وهذه جملة من محاسن الشِّيم رأيتها في آيات وأحاديث شتى لخصها الشاعر في تلك الأبيات العامرة ؛ التي تصلح قواعد للتربية الراشدة ؛ وتأديب النفس ، والشاعر - بداهة - يرفض مهزلة «الكتب» كما رسمها «فرويد» ويطلب من كل ذى دين وعقل أن يضبط هواه ، ويلجم شهوته بلجام قاسٍ :

إذا أنت أعطيت الغنى ثم لم تجد بفضل الغنى ألفت مالك حامد
 إذا أنت لم تعرك يجنبك بعض ما يريب من الأدنى رماك الأبعاد
 إذا الجلم لم يغلب لك الجهل لم تزل عليك بروق جمّة ورواعد
 إذا العزم لم يفرج لك الشك لم تزل جنياً كما استتلى الجنية قائد
 وقل غناءً عنك مال جمعتة إذا صار ميراثا ووارك لاحد
 إذا أنت لم تترك طعاما تحبه ولا مقعدا تدعى إليه الولائد
 تجللت عارا لا يزال يشبه سباب الرجال نثرهم والقصائد
 سيقال : إنك حبست الأدب في ناحية ضيقة منه ؛ هي على جلالها لا تمثل ميدانه الواسع ؛ وأغراضه المتعددة ، ونقول : ربما كان هذا الاعتراض سليماً ؛ بيد أننا سوف نوضح معالم الأدب في أمتنا الإسلامية .

حال أدبنا يشير الخوف

حال الآداب العربية اليوم تثير الخوف ؛ فإن النهضة التي أنعشتها مع الثورة العراقية استخفت من الأوراق والمنابر ؛ وشحب الشعر الذي تورّد أيام البارودي وشوق وحافظ وأمثالهم ، وحلّ محله غناء يسمى الشعر المنشور ؟!

وخفت أدب العقاد ، وطه حسين ، وزكي مبارك ، وأحمد أمين ، وأحمد حسن الزيات ، وحلّت محله مقالات يمكن أن تكون وسطا بين العامة والفصحى ، وبين الصياغة الرفيعة والترجمات الركيكة عن اللغات الأخرى .. وتوقفت اللهجات السوقية وتعبيرات الرعاع وآثار الغزو الثقافي فإذا لون من التعبير الهابط يملأ المسارح ويغلب على الناشئة ، وتكاد ملامح الشخصية العربية تزول في أخلاطه المستغربة ...

ذلك من ناحية الشكل أو الأسلوب ، أما من ناحية الموضوع والحقائق الذاتية المأنوسة في أدبنا الموروث ، فإن الأمر مفرع ، والجماهير المخدرة تشدها إلى القاع أقلام ليس في نفثاتها فن ، ولا قيم رفيعة ؛ ولا غايات نصيرة ! وعلاقتها بالإسلام وتعاليمه مقطوعة ...

لقد نجح الاستعمار الثقافي في تدويخ الأمة ، وفتح المجال لأناس يكرهون الألوهية ورسالة محمد ، بل رسالات السماء كلها ، ويهزؤون بالصلاة ؛ ويرحبون بالشهوات ؛ ويسوقون الجماهير إلى موت محقق ...

وأولو الأبواب يحسّون بشاعة المصير الذي تتدافع إليه أمتنا في عصر تحرك فيه العبرانيون لبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى ، وتحرك الصليبيون لتقليص الرقعة التي انساح فيها الإسلام على امتداد القرون ، كي يرقصوا على بقايا الهامدة بعد قليل أو كثير من الأيام ...

إن المعركة الأدبية في ضخامة المعركة العسكرية ، وحراس الإسلام الآن في معركة بقاء أو فناء ...

ومن الصدق أن أقول : إن الأدب العربي في عهود الأتراك ذوى وكاد الشلل يأتى عليه ، فلما تحرك منذ قرن كان حراكه راشداً ، وغرضه ماجداً ، بيد أن الاستعمار الثقافي وضع العقبات في طريقه ، فبعد أن كان أميراً لشعراء يغنى في أفراح الإسلام ويبكى في مآسيه ، ويرثى «أدرنة» ، ويستصرخ الشعوب لمصير الإسلام بها ؛ ويرثى الخلافة الغاربة ، ويرثى عمر المختار في ليبيا .. الخ جاء أدب آخر يرفض هذه الموضوعات جميعاً ، ويدغدغ الغرائز ؛ ويحدو الشباب إلى دور اللهو والهوى .. !!

وكان تنويم الأزهر ؛ أو شغله بقضايا أخرى ، من بين أعمال هذا الاستعمار الثقافي اللعين ، والمرء يأخذ منه العجب وهو يرى مصارع المثل العليا ؛ ومقاتل الشريعة وحدودها ؛ واللغة الفصحى وشعرها ونثرها ، ثم يرى الجماهير هائمة على وجوهها في معركة الخبز هنا ؛ أو في ساحات العبث هناك ..

من خمسين سنة شاهدت معركة بين الأدب اللاتيني والأدب السكسوني ، بين

طه حسين والعقاد ، أهنك ذكر لأدبنا العربى من مصادره الإنسانية الزاكية ، حتى فى جاهليته ؟

إن العقاد رحمه الله ثاب إلى قومه ودينه وتراثه ، وكان له نتاج طيب ، ووقف شامعاً أمام العلمانية والإلحاد والاستبداد .. أما الدكتور طه فقد كان معروفاً بأن اللحن لا يجد طريقاً إلى لسانه ، وقد خدم العربية المجردة حيناً من الدهر ، ثم غلبته موجة الغرب الصليبي ، فبعثر الشرور فى معاهد شتى ، ولم يعد إلى رشده إلا مع الموت !!

واليوم أبحث فى ميدان الأدب الدينى عن أمثال لمحمد فريد وجدى وعبد الوهاب عزام ومن قبلها محمد رشيد رضا فلا أجد .. وأبحث فى الميدان السياسى عن أمثال لعبد الرحمن الكواكبي ، وعبد العزيز جادوى فلا أجد ، وأبحث فى ميدان الشعر عن أمثال لحافظ الجارم ومطران وبدوى الجبل فلا أجد ..

توجد أقلام مريضة تخدم العلمانية والخنوثة والضعف والشرود ، صببها بالتراث العربى كصلة اسكندر ديماس أو آرثر كونان دويل .. إن اللغة العربية من أقدم لغات العالم ، وأغناها بالألفاظ والمعانى ، وأقدرها على استيعاب الصور الجمالية تعبيراً وتحبيراً ..

وبعد نزول القرآن الكريم بهذه اللغة أصبحت هى الصلة بين الأرض والسماء ، وانفردت بأنها تضمنت عناصر الوحي الإلهى ، من الأزل إلى الأبد ، واستحقت بذلك خلوداً لا يُعرف للغة أخرى ، فى القارات الخمس ، قد تكون سبقت إلى وصف آله ، أو تشخيص علة ... ولكنها لم ترتفع أبداً إلى تلقى كلمات الله ، ووصايا إلى عباده ..

والأدب العربى بعد نزول القرآن قد يعتكر مجراه بلوثة شاعر أحمق أو أديب ماجن ، ولكنه لن يكون أدب فسوق وعوج ، ولن يكون حادياً للبشرية إلى العار والنار ...

إن صياغة القرآن الكريم لأجيال المسلمين حددت أدافهم وصانها وزكها ،

وقد عاب البعض على الشعر العربي أن يكثر فيه المديح ، غير أنك تعرف قيمة هذا النقد عندما تقرأ بيت أبي تمام :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم
في تصدّى سيف الدولة للصليبية الرومانية ؛ وشجاعته في قتال القياصرة يقول
المتنبي :

وقفت وما ي الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
ولست مليكا هازما لنظيره ولكنه الإسلام للشرك هازم
وفي اللغة العربية وأدبها وخلودها وضرورة امتداد سلطانها وتوطيد أركانها يقول
الأستاذ أحمد موسى سالم - أطل الله بقاءه - :

إن نزول القرآن الكريم كفل للغة العربية جملة من النتائج وضحت رسالتها ،
وحددت معالمها .

أولها : أن العرب جميعاً تشبوا باللغة الفصحى لأنها لغة الوحي والعقيدة ...
وثانيها : أن اللهجات العامية اقتضرت على حيز ضيق جداً من ممارسة الحديث
الخاص بين الأفراد مع اتساع مجالات استخدام الفصحى القرآنية ...
ثالثها : أن مرور الزمن ؛ وتتابع الأجيال لم يكن له من تأثير على بقاء اللغة
العربية الفصحى بل لقد زاد من تفاعلها مع القرآن الكريم فبقيت لغة الأمة العربية
الخالدة بخلود القرآن .

رابعها : أن نطاق اللغة العربية قد اتسع بحيث امتد إلى كل المسلمين في أنحاء
العالم ، فهم يقرؤون القرآن بالعربية ، بحروفه ، ويتخذون طريقة كتابته وسيلة
لتسجيل لغتهم ، وهذا في حد ذاته نصر حققه القرآن للعربية ، على مستوى
عالمى ، ونعمة أنعمها الله في نفس الوقت بالإسلام ولغته على تلك الشعوب .
خامسها : وهذا هو الأهم - كانت آية القرآن اللغوية إعلاناً عن صلاحية اللغة
العربية علمياً وإنسانياً لحمل وترشيد مفاهيم الحضارة ، والتعبير عنها ، مهما يكن
مستواها ، لأن اللغة التى تتسع للقرآن وآياته بهذا الاقتدار البالغ ، لابد أن تكون
أقدر على التعبير عن أى مستوى من مستويات تقدم الإنسان عبر كل العصور .

ونحن لا نبشئ ولا نياس لما أحاط بلغتنا العربية من مؤامرات مبعثها الحقد
القديم ؛ والضلال القديم ، ونعتقد أن صباحاً عريضاً سيعقب هذا الليل .
إن الرحمن هو الذى علم القرآن ، وهو الذى يتولى حفظه ! وستبقى اللغة التى
نزل بها خالدة بخلوده .
ونرجو أن تكون سبقت لنا الحسنى باختيار الأقدار لنا محامين عن لسان الوحي ،
ومحيين للتعالم القرآنية كلها ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

الفهرس

مقدمة.....	٥
الفصل الأول : إسلامية المعرفة أو المعرفة الإسلامية	١٧
الفصل الثاني : أبعاد الوحي الأعلى	٣١
الفصل الثالث : أغلفة تغطي الحقيقة العظمى	٤١
الفصل الرابع : توضيح الصورة ومنع الغش	٥٩
الفصل الخامس : حقائق في التربية	٨٧
الفصل السادس : لمحة عن الابتداء	١٠١
الفصل السابع : إعادة كتابة التاريخ	١٠٥
الفصل الثامن : على هامش التفسير	١٢٣
الفصل التاسع : على هامش السنة	١٤٣
الفصل العاشر : مستقبل العربية وآدابها	١٨٣

رقم الإيداع : ٩١ / ٢٢٠٢
التقديم الدولي : ٩٧٧-٠٩-٠٠٤٠٠٠

مطابع الشروقة

القاهرة : ٨ شارع مسيويه المصري - ت : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٢٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٢١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٢ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

